الأساليب النبوية

في معالجة المشكلات الزوجية

بحوث تحليلية للحياة الزوجية
في بيت النبوة

بقلم
الدكتور عبد السميع الأنيس
مدرس الحديث النبوي الشريف وعلومه
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالشارقة

دار ابن الجوزي

الإهداء

إلى علامة الشهباء المحدث المفسر الفقيه العارف الرباني فضيلة أستاذنا الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى[1]

وإلى العابد الزاهد العارف المربي الأستاذ الوالد رحمه الله تعالى[2]

الذي وجهني إلى دراسة الحديث النبوي الشريف

(1) انتقل إلى رحمة الله ليلة الثلاثاء 21 / من ذي الحجة 1422هـ/ ورثاه شقيقي الدكتور عبد الحكيم الأنيس بقصيدة منها هذه الأبيات:

فقدتْ به الشهباءُ أنصحَ عالمٍ ساقَ القلوبَ لحضرة الرحمنِ
تذكارُ أعلامِ الهداةِ بسمتهِ وبوجههِ المتوقدِ النوراني
من كان يخطو إثْرَ خطو نبيهِ فعلَ المحب الوالهِ المتفاني
آثارُك الزهراء تشهدُ أنها كُتبتْ بحبرِ الصدق والإتقان
أودعتَ فيها ما حباكَ الله من هدي النبيِّ وحكمةِ القرآن

(2) انتقل إلى رحمة الله ليلة الأحد / 4 / من ذي الحجة 1419هـ/ وقلت فيه قصيدة منها هذه الأبيات:

يا عابدًا أَلِفَ التهجدَ والتقى منك الجبينُ بنورها وضَّاءُ
ذكرٌ، وقرآنٌ، وطولُ تبتلٍ والله يعطي الفضلَ كيف يشاءُ
يا خيرَ من عاشَ الزمان لغيرهِ وسراجُهُ للسائرين ضياءُ
أنت الذي أعطى الأبوةَ حقها لكم النفوسُ على الدوام فداءُ

شكر وتقدير

امتثالاً لقول نبينا ﷺ «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**».

لابد من الشكر الجزيل، والدعاء الخالص للأساتذة الأجلاء الذين قرؤوا بعض مباحث هذا الكتاب، وأيدوا ملاحظاتهم القيمة فجزاهم الله عني خير الجزاء، وهم:

1- العلامة المحقق المحدث الأستاذ الشيخ شعيب الأرنؤوط[1].

2- والعلامة المحقق المحدث الأستاذ الدكتور نور الدين عتر[2].

3- وفضيلة الأستاذ الدكتور عويد المطرفي المكي[3].

(1) قرأ بحث «حادثة التخيير...»، الذي نشر في مجلة الأحمدية العدد (12)، 1423، الصادرة عن دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي، وهو المبحث العاشر من مباحث القسم الثاني من الكتاب بعد تهذيبه بما يتلائم مع هذا الكتاب.

(2) أستاذ التفسير والحديث في كلية الشريعة -جامعة دمشق.

قراء بحث «حادثة التحريم... «الذي نشر في مجلة الأحمدية، العدد (10)/1423، وهو المبحث التاسع من مباحث القسم الثاني من الكتاب بعد تهذيبه بما يتلاءم مع هذا الكتاب.

وقال عنه: «إن بحث (حادثة التحريم...) أصيل، وفيه جهد، وتتبع للروايات، ومناقشة للآراء، وفيه الإعتناء بالعزو للمراجع بدقة...».

(3) الأستاذ في جامعة أم القرى في مكة المكرمة.

قرأ بحث «حادثة التحريم...» أيضًا، وقال عنه: «هذا البحث قيم في موضوعه، وهو ممتاز في تناوله، وأسلوبه، كما أنه منطقي في تبويبه وترتيبه الفكري/ وتقسيمه.

وأشكر هذا الباحث على حسن أدبه، وجميل تعبيره فيما يتعلق برسول الله ﷺ من أمر بحثه هذا، ولكيف تخريجاته لمعاني الأحداث التي تخللت هذه الحادثة في هذا البيت الكريم.

4- وفضيلة الأستاذ المفسر الدكتور الشيخ عيادة الكبيسي[1].

5- وشقيقي العلامة الباحثة المتقن الدكتور الشيخ عبد الحكيم الأنيس[2].

***

(1) رئيس قسم أصول الدين في كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي، وقد قرأ بحث «حادثة التخيير..».

(2) باحث أول في دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث -دبي، وقد قرأ جميع مباحث هذا الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإن القرآنَ الكريمَ قد حصرَ موضوعَ المرجعية في شخص النبي ﷺ عندما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

فهوﷺ القدوة والأسوة في كل ما يُهِمُّ الإنسان في حياته وشؤونه...، لذلك كان ﷺ هو النموذج الأوحد في الكمال الإنساني والرقي الحضاري، وتعاليمُهُ ﷺ هي البوصلة الهادية إلى الطريق المستقيم، وبها يتم التوازن المنشود للحياة والأحياء.

وفي هذا البحث أردت أن أقدم أنموذجًا نتعرف من خلاله على منهج النبي ﷺ في حياته الزوجية، وتعامله ﷺ مع أهله داخل منزله وخارجه، كما نتعرف على أساليبه ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية في بيته الكريم.

ويأتي بحث هذا الموضوع في إطار الحديث عن فقهِ الأسرة المسلمةِ، والبحث عن مزيد من الحلول للحفاظ على خصائصها ميزاتها، ولابد من الإشارة إلى أنَّ نظام الأسرة في الإسلام ما زال محتفظًا بخصائصه ومزاياه، ولم يتصدع رغم كل محاولات المسخ والتشويه التي تريد لعقد هذا النظام أن ينفرط، وأن تخرج الأسرة من النظام الذي أراده الله نظامًا مستقرًّا آمنًا – يقوم

بواجبه في تنشئة الأجيال المؤمنة لتحقيق الأهداف والغايات - إلى التشتت والفوضى والضياع، ومن ثم الانصياعُ الكامل لمخططات الشيطان، وتحقيق أهدافه للنيل من كرامة الإنسان، وتفتيت المجتمع المسلم... واستقرار الأسرة يستحق منا كل اهتمام؛ وذلك لأنها تمثل آخر حلقة من الحلقات التي يستهدفها التآمر الغربي في صراعه مع الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا.. ولهذا كان من الضروري أن تُقدَّم الحياة الزوجية للنبي ﷺ بصورةٍ معاصرةٍ، وبلغةٍ معاصرةٍ، لتعيش الأسرة المسلمة في هذا العصر قريبًا من انموذج الأسرة النبوية، ويتم من خلالها إعادة تشكيل الأسرة المسلمة، بدلًا عن تشكيلها من خلال العادات البائدة أو الأفكار الوافدة.

أما عن منهجي في البحث: فقد اتبعت فيه المنهجية القائمة على الاستقراء والتحليل والنقد والاستنتاج، وقد قمت بعرض الأراء المختلفة في كل ما ذكرته، وناقشت الادلة المتوفرة عنها، ورجحت ما رأياه راجحًا حسب ما يقتضيه النظر العلمي مع الرجوع إلى المراجع الأصلية وترثيق النصوص - ولا سيما النبوية منها - حسب الطريقة العلمية في ذلك.

وكانت طريقتي في عزو الحديث: أني إذا عزوت إلى البخاري ومسلم مطلقين فأعني الصحيحين وإلا قيدت.

وإذا عزوت إلى أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، فأعني السنن الأربعة وإلا قيدت، مثلًا أقول: رواه النسائي في "السنن الكبرى".

وإذا قلت: رواه أحمد، فأعني: في "مسنده".

وإذا قلت: رواه ابن خزيمة وابن حبان، فأعني: "صحيحهما".

وإذا قلت: رواه الحاكم، فأعني في "مستدركه".

وإذا قلت: رواه البيهقي، فأعني: في "السنن الكبرى".

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنني نقلت بعض الروايات من طبقات ابن سعد، وفي سندها الواقدي، وهو معروف بضعفه، لكن يشفع لي أنني لم أعتمد على أي شئ من رواياته فيما يستنبط منه حكم شرعي، وإنما في بعض الأمور التاريخية، ومع ذلك فإنني سأورد خلاصة ما قيل في الواقدي، للاستفادة من ذلك عند معالجة مثل هذه المواضيع:

قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (469/9): وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ.

ونورد آثاره من غير احتجاج، أما في الفرائض، فلا ينبغي أن يذكر، مع أن وزنه عندي أنه مع ضعفه يكتب حديثه ويروى؛ لأني لا أتهمه بالوضع، كما أنه لا عبرة بتوثيق من وثقه كيزيد، وأبي عبيد، والصاغاني، والحربي، ومعن، وتمام عشرة محدثين؛ إذ قد انعقد الإجماع على أنه ليس بحجة، وأن حديثه في عداد الواهي، لكنه قال في مكان آخر (464/9): «وما ذلك إلا لوهن الواقدي عند العلماء، ويقولون إن ما رواه عنه كاتبه هو أمثل قليلاً من رواية الغير عنه».

وقال عنه تلميذه ابن سعد في «الطبقات» (77/7): وكان عالما بالمغازي واختلاف الناس وأحاديثهم.

وقال عنه الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (291/2):

«والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا» [1].

(1) ولتحقيق القول فيه ينظر كتاب "السيرة النبوية الصحيحة" للدكتور أكرم العمري 61/1، فقد أجاد وأفاد.

ولابد من الإشارة إلى أني لم أطَّلع على بحث مستقل في الموضوع الذي أكتب فيه، وإنما هناك دراسات جزئية متفرقة في ثنايا كتب التفسير وشروح الحديث، وقد قمت بمراجعتها والاعتماد على ما صح منها.

وأما خطة الكتاب فقد اشتملت على مقدمة وقسمين وخاتمة:

أما القسم الأول، فهو: الرسول ﷺ ومنهجه في حياته الزوجية:

ويشتمل على تمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الاقتصادي.

المبحث الثاني: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الإنساني.

المبحث الثالث: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب التعاوني.

المبحث الرابع: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الجمالي.

المبحث الخامس: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الترفيهي.

ومما يجب التنبيه إليه هنا: أني تكلمت في هذا القسم عن تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجوانب الاقتصادية، والإنسانية، والتعاونية، والجمالية، والترفيهية، وهي في الحقيقة معالجات غير مباشرة لما قد يطرأ من خلاف بين الزوجين، ولا سيما إذا علمنا إن أكثر الخلافات قد تنشأ من إغفال جانب من هذه الجوانب، أو التقصير فيه، ومن ثَمَّ فالتأكيد على هذه الجوانب هو جزء من حل المشاكل بالقضاء على أسبابها.

وهذا هو منهج وقائي، وهو بحد ذاته منهج نبوي نستطيع أن نتلمسه في كثير من المعالجات النبوية للمشاكل الطارئة، زوجية كانت أو غيرها، ولاشك أن تطبيقه يقضي على كثير من الخلافات قبل وقوعها.

وأما القسم الثاني، فهو: أساليبه ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية:

ويشتمل على أحد عشر مبحثًا كالآتي:

المبحث الأول: أسلوب الابتسامة والدعابة.

المبحث الثاني: أسلوب التغاضي.

المبحث الثالث: أسلوب الحوار والإقناع.

المبحث الرابع: أسلوب العظة والتذكير.

المبحث الخامس: أسلوب العتاب.

المبحث السادس: أسلوب التروي، والتثبت والتحقيق قبل إصدار الأحكام.

المبحث السابع: أسلوب القضاء العادل.

المبحث الثامن: أسلوب التأديب بالدفع.

المبحث التاسع: أسلوب الهجر.

المبحث العاشر: أسلوب التخيير والتشاور.

المبحث الحادي عشر: أسلوب الطلاق.

ولا شك أن هذه الأساليب التي اتبعها النبي ﷺ في معالجة المشكلات التي عرضت في بيته الكريم هي بمثابة الحلول لكثير من المشاكل التي تعترض الحياة الزوجية، ويستطيع الزوج الحكيم بعد دراستها أن يستفيد منها في معالجة أية مشكلة تعترضه، وذلك بالقياس عليها والإستهداء بها، ومن ثم الإطمئنان الكامل بصحة نتائجها، باعتبارها صادرة عن أكمل الأزواج سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، بل يستطيع المسلم أن يستفيد منها في معالجة كثير من المشكلات اليومية التي تعترضه في حياته الخاصة والعامة.

فَمَنْ الذي يستغني عن مبدأ التروي وعدم التعجل، والتثبت في الأمور.

وعن مبدأ الشورى الذي طبقه النبي ﷺ في كثير من أموره بينما غاب عن حياتنا الأسرية، والاجتماعية، والسياسية، بل والعلمية؟

ومَنْ يستغني عن أسلوب الحوار، وعدم فرض الآراء والحلول على الآخرين؟ ومن يستغني عن أسلوب الإقناع وهو مظهر من مظاهر العقل، وعدم اللجوء إلى العنف والقوة في تحصيل حق ضائع، أو الدفاع عن حق مكتسب؟

وكم بنا حاجة إلى إحياء مبدأ الفضاء العادل، هذا المبدأ العظيم الذي يعلم المسلم المحافظة على حقوقه، وعدم إضاعتها أو التساهل في تحصيلها.

ومَنْ يستغني عن أسلوب الابتسامة، وهي من مظاهر خلق المسلم، والابتسامة هي السحر الحلال يستطيع المسل بها أن يتجاوز كثيرًا من المشكلات ألم يقل عليه الصلاة والسلام «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**» [1].

ومن يستغني عن أسلوب العتاب الجميل للوقوف أمام بوادر الخلاف قبل أن يشتد، والحد من تفاقم المشكلات، وتزايد الأزمات.

فكم من عتاب جميل أوقف مشكلة، وأشعر المخطئ بسوء صنيعه..

وكم بنا حاجة إلى الموهظة الحسنة، والتذكير بحقارة الدنيا، وأن يومًا عظيمًا ينتظرنا نسأل فيه عن كل شيء، ونُحاسب فيه على هفواتنا وتقصيرنا وسوء أعمالنا.

حقًّا إنها أساليب رائعة صدرت من مشكاة النبوة نسأله سبحانه أن ينفعنا بها، إنه خير مسؤول، ولا بد من الإشارة إلى إن الأساليب النبوية التي تناولتها في

---

(1) رواه الترمذي (1956)، وابن حبان (474، 529).

هذا الكتاب هي الأساليب التي عالج النبي ﷺ بها الخلافات والمشكلات التي عرضت في بيته الكريم، أما المشكلات التي عرضت لأفراد الصحابة وعالجها النبي ﷺ، فلم أتعرض لها في هذا الكتاب، وهي مبثوثة في كتب الحديث النبوي، ولها تفصيلاتها في كتب شروح الحديث وكتب الفقه الإسلامي، ولعلي أتناولها بالدرس والتحليل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي الختام أقول: لقد بذلت جهدًا أحتسبه عند الله، وحسبي أني عشت زمنًا من عمري قريبًا من بيت النبوة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، هو خير أيام العمر وأجملها، وحسبي أني اجتهدت، فما كان من صواب فمن الله، والحمد لله الذي هداني إليه، وما كان غير ذلك فأستغفر الله منه، ورحم الله من أهدى إليَّ عيوبي، وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عبد السميع محمد الأنيس
أستاذ الحديث النبوي وعلومه المساعد
في كلية الشريعة والقانون – مسقط

القسم الأول

الرسول الزوج ﷺ ومنهجه

في حياته الزوجية

المبحث الأول: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الاقتصادي.

المبحث الثاني: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الإنساني.

المبحث الثالث: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب التعاوني.

المبحث الرابع: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الجمالي.

المبحث الخامس: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الترفيهي.

تمهيد:

إن الباحث في الحياة الزوجية عند النبي ﷺ يجد أنها تطبيق عملي دقيق لقوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: 19].

أجل إن كل المفاصل في حياة رسول الله ﷺ الزوج، وكل المفردات في شؤونه كافة إنما تنطلق من هذه الآية، التي تُعدُّ المقياس الذي يرجع إليه في شؤون الأسرة وشجونها.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام ذهب إلى أبعد من ذلك عندما جعل هذا المقياس علامة الخيرية المطلقة في المجتمع، فأي مؤمن في المجتمع الإسلامي لا يكتسب صفة الأفضلية، ولا ينال شرف الخيرية بين المسلمين إلا بعد أن يتقن التعامل الجيد مع أهله؛ ذلك لأنها اللبنة الأولى في المجتمع، فإذا أحسن الفرد المسلم التعامل معها كان ذلك بمثابة الشهادة له بأنه مؤهل لأن يصبح عضوًا نافعًا في المجتمع الإسلامي.

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»(1).

وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد لنا من الرجوع إلى النموذج الذي مثَّل قمة الخيرية في التعامل الأفضل مع أهله: إنه الرسول الزوج ﷺ.

---

(1) أخرجه الترمذي (3895)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن حبان (4177) عن عائشة، ورواه ابن ماجه (1977) عن ابن عباس.

ورواه أحمد (10106)، والترمذي (1162) عن أبي هريرة ولفظه «وخياركم خياركم لنسائهم»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ولا بد أن نقف على المفردات السلوكية التي انتظم منها عقد الحياة الكريمة لهذه الأسرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

إن الأسرة النبوية هي النموذج الأوحد للمسلم، وهي مثال الأسرة السعيدة لكل من يريد أن تكون حياته الزوجية سعيدةً.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد لنا من الإطلاع على مفردات هذه الخيرية في حياته ﷺ مع أهله، وذلك من خلال تعامله ﷺ مع زوجاته في الجوانب التي سيأتي ذكرها.

*****

المبحث الأول

تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الاقتصادي

من مظاهر الخيرية عند الرسول ﷺ حسن تعامله مع أهله في الجوانب الاقتصادية، ويتضح ذلك من خلال الأمثلة الآتية:

أولاً: من حيث السكن:

لقد أسكن رسول الله ﷺ أزواجه في الحجرات وكان لكل زوجة حجرة خاصة بها، وقد جاء ذكر الحجرات في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4].

كما جاء ذكرها في السنة النبوية:

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعًا يقول: «**سبحان الله! ماذا أنزل من الخزائن؟ وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صوحب الحجرات؟ - يقصد بذلك أزواجه لكي يصلين - رُبَّ كاسية في الدنيا، عارية يوم القيامة**»[1].

ثانيًا: من حيث الإحسان في النفقة:

ومن مظاهر الخيرية في الحياة الزوجية للنبي ﷺ أنه كان ﷺ كريمًا في إنفاقه على أهله، وهذا أمر غير مستغرب أبدًا، لا سيما إذا علمنا من شمائله

(1) رواه البخاري (7069) كتاب الفتن.

عليه الصلاة والسلام أنه كان أجود الناس[1].

فهل يعقل أن يكون أجود الناس خارج بيته، ولا يكون أجود الناس داخل بيته؟ والأدلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء عن لقيط بن صَبْرة قال: «كنت وافد بني المنتفق إلى رسول الله ﷺ... وفيه:

فبينما نحن مع رسول الله ﷺ جلوس؛ إذ دفع الراعي غنمه إلى المراح - مأوى الغنم والإبل ليلاً - ومعه سخلة تَيْعِر - هو صوت الشاة - فقال: ما ولدت يا فلان؟ قال: بَهْمَةً - وهي: ولد الشاة أول ما يولد - قال: فاذبح لنا مكانها شاة.

ثم قال: لا تحسبن أنَّا من أجلك ذبحناها، لنا غنم مائة، لا نريد أن تزيد، فإذا ولَّد الراعي بَهْمة ذبحنا مكانها شاة»[2].

إن رسول الله ﷺ كان غنيًّا بدليل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: 8]، وكان يسأل ربه الغنى، فيقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى**»[3].

وكان يستعيذ بالله من الفقر، فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**»[4].قال ابن حزم: «وكان ينفق على نسائه كل سنة عشرين وسقًا من شعير، وثمانين وسقًا من تمر، هكذا رويناه من طريق في غاية الصحة، وروينا من

---

(1) رواه البخاري (2627).

(2) أخرجه أبو داود (143).

(3) رواه مسلم (2721)، والترمذي (3489) عن عبد الله بن مسعود.

(4) انظر الحديث بكامله في سنن أبي داود (5090) وغيره.

طريق فيه ضعف أن هذا العدد لكل واحدة منهن في العام، فالله أعلم، فقد كان لكل واحدة منهن الإماء والعبيد والعتقاء في حياته ﷺ»[1].

لكن قال الشوكاني في «نيل الأوطار»: «ويدل على ذلك ما ثبت أن النبي ﷺ كان يعطي كل واحدة من زوجاته مائة وسق من خيبر»[2].

وقد كان له مصادر متعددة ينفق منها على أهله[3]، وهي:

1- الفيء: وهو ما أفاء الله عليه من المشركين من غير قتال، ومثال ذلك: الأموال التي كانت تأتيه من نخيل بني النضير وفدك.

وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، فكانت لرسول الله خاصة، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنته، وما بقي جعله في الكُراع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله»[4].

وفي راية: أن النبي ﷺ كان يبيع نخيل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم[5]، وعَنْوَن البخاري رحمه الله بابًا لهذه الرواية بقوله: باب حبس الرجل قوت

---

(1) «جوامع السيرة النبوية » ص: 34، والوسق: ستون صاعًا والصاع في الموازين المعاصرة: ثلاثة آلاف غرام على جهة التقريب.

(2) 221/5.

(3) الحديث عن مصادر إنفاقه هنا في العهد المدني فقط، أما العهد المكي: فمعلوم أنه ﷺ كان يرعى الغنم في بداية أمره، ثم عمل بالتجارة، وكانت زوجته خديجة من أهل التجارة والثراء في مكة.

(4) رواه البخاري (4033)، ومسلم (1757). والكراع اسم لجميع الخيل.«النهاية» مادة: كرع.

(5) رواه البخاري (5357)، ومسلم (1757) (50).

سنة على أهله، وكيف نفقات العيال.

ويستنبط من هذا الحديث جواز الادخار، قال الإمام النووي رحمه الله: «وفي الحديث جواز ادخار قوت سنة وجواز الادخار للعيال، وأن هذا لا يقدح في التوكل، وأجمع العلماء على جواز الادخار فيما يستغله الإنسان من قريته»(1).

وإذا علمنا أن غزوة بني النضير وقعت في السنة الرابعة من الهجرة حسب

(1) شرح صحيح مسلم (294/11).ولكن قد يقال: ألا يعارض ما تقدم من جواز الإدخار حديث أنس ﷺ «كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئًا لغد» رواه الترمذي (2362)، وقال هذا حديث غريب، وقد روي عن ثابت عن النبي ﷺ مرسلاً. أقول: الحديث لم يصححه سوى ابن حبان (6356)، وعند دراسة سنده تبين لي: أنه قد تفرد به جعفر بن سليمان، وهو وإن وثقه عدد من المحدثين فقد قال فيه علي بن المديني: أكثر عن ثابت ، وكتب مراسيل، وفيها أحاديث مناكير عن النبي ﷺ.

فأخشى أن يكون هذا الحديث من هذه المناكير، وهوقد جمع الرقائق، وجالس زهاد البصرة فحفظ عنهم الكلام الرقيق في الزهد، وللتوسع في ترجمته ينظر: «تهذيب الكمال » للمزي(43/5)، وفروعه.

وعلى فرض صحته فقد جمع العلماء بين الحديثين من عدة وجوه منها: ما ذكره ابن دقيق العيد.

-كما في « فتح الباري » لابن حجر(11/ 414): من أنه يحمل حديث أنس على الإدخار لنفسه، وحديث عمر على الإدخار لغيره. بينما يرى الحافظ بن كثير -كما في الشمائل ص 98: أنه ﷺ مما يسرع إليه الفساد كالأطعمة وغيرها..»، وهو وجيه.

قلت: ويمكن أن يحمل على اختلاف الأحوال والظروف، فعند نزول الشدائد، وحصول الأزمات كان لا يدخر شيئًا لغد، وعند السعة كان يدخر.

قول ابن إسحاق- وعلى رأي غيره أنها كانت في السنة الثالثة بعد غزوة بدر كما نقل ذلك البيهقي عن عروة - علمنا أن الادخار المطلوب كان في بداية المرحلة المدنية[1].هذا فضلًا عن الغنائم التي كان يغنمها المسلمون من جراء المعارك التي كانت تقع بينهم وبين أعدائهم وهي كثيرة: ومن المعلوم أن لرسول الله ﷺ منها: خمس الخمس، مثال ذلك غزوة بدر.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وفيها - أي غزوة بدر - كان أول خُمُس خمَّسه رسول الله ﷺ في الإسلام، فأخذ رسول الله ﷺ صفيه والخمس وسهمه، وفضل أربعة أخماس على أصحابه، فكان أول خمس قبضه رسول الله ﷺ»[2]. وفيها نزل قول الحق: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].قال الحافظ ابن كثير: «كان سهم النبي ﷺ الذي أصاب مع المسلمين مما قسم بخيبر، وفدك بكمالها، وهي طائفة كبيرة من أرض خيبر...، وأموال بني النضير مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خالصة وكان يعزل منها نفقة أهله سنة، ثم يجعل

(1) انظر: « السيرة النبيوية الصحيحة » د.أكرم العمري (304/1).
(2) تفسير الطبري(250/6).

ما بقي مَجْعَل مالِ الله يصرفه في الكراع، والسلاح، ومصالح المسلمين»[1].

وفي «السيرة النبوية» لابن هشام: «وكانت حصة أزواج النبي ﷺ يوم خيبر سبعمائة وسق من الطعام، وهي من قمح وشعير وتمر ونوى وغير ذلك..»[2].

فهذه أمثلة على نفقة رسول الله ﷺ على أهله، والمتتبع في كتب السيرة يجد نماذج كثيرة من إنفاقه ﷺ على أهله.

3- ومنها الصفي: وهو ما كان رسول الله ﷺ يصطفيه من كل غنيمة يغنمها المسلمون قبل أن يقسم المال[3].

4- ومنها الهدايا التي كانت تهدى إليه من المسلمين وغيرهم، فمن المعلوم أن رسول الله كان يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة[4]، «وكان إذا أتي بطعام سأل عنه أهدية أم صدقة؟ فإن قيل صدقة قال لأصحابه كلوا، ولم يأكل، وإن قيل هدية ضرب بيده ﷺ فأكل معهم»[5]. «وكان الناس يتحرون يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ»[6]؛ لأنهم «قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة»[7].

---

(1) «السيرة النبيوية» (384/3).

(2) (352/2).

(3) انظر الأموال لأبي عبيد ص 14.

(4) رواه أبو داود (174/4).

(5) رواه البخاري (2576).

(6) رواه البخاري(2574).

(7) رواه البخاري (2581).

والنبي ﷺ إذ يقبل الهدية فإنه كان يثيب عليها؛ تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسل الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها[1]، وكانت تصله الهدايا من ملوك الأرض، ومن الأمثلة على ذلك:

ما أخرجه البخاري في صحيحه: وقال أبو حميد: «أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه بردًا...»[2]، والأمثلة كثيرة في كتب الحديث والسيرة.

ولكن قد يقال: كيف توفق بين ما ذكرته آنفًا وبين ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت - والقائل عروة -: يا خالة، ما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا»[3]، وغير ذلك من الأمثلة. قلت: هذا صحيح، ولكنه لا ينافي ما تقدم؛ ذاك لأن رسول الله ﷺ ،كان أجود الناس»، «وما سئل عن شئ قط فقال: لا»[4]، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فليس من خلقه ﷺ أن يجد أقوامًا فيهم حاجة ويمتنع عن عطائهم ولو على حساب بيته وأهله.وكان بعض أصحابه ﷺ في غاية الغنى والسعة فمن المستبعد جدًّا أن

(1) رواه البخاري (2582).
(2) «فتح الباري» (230/5).
(3) رواه البخاري (2567).
(4) رواه البخاري (6035).

يتركوا أهل رسول الله ﷺ جائعين، وهم يتقلبون بالأموال والنعيم.

يدل هذا التفسير آخر الحديث المذكور آنفًا: إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح...».

ثم بعد هذا التوجيه رأيت توجيهًا آخر للإشكال المذكور ذكره الحافظ ابن حجر عندما قال: «وفي هذا الحديث: ما كان فيه الصحابة من التقلل من الدنيا في أول الأمر، وفيه جواز ذكر المرء ما كان فيه من الضيق بعد أن يوسع الله عليه تذكيرًا بنعمه، وليتأسى به غير»(1).

وهذا توجيه سديد يدل على ما جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «كان الرجل يجعل للنبي ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، فكان بعد ذلك يرد عليهم»(2).

إذن: كان الضيق المذكور في بداية الأمر، ثم وسع الله عليهم بعد ذلك، وقد أشار القرآن إلى هذه السعة بصورة عامة، وأن ذلك قد حدث بعد معركة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26].

وواضح أن هذه الآية قد جاءت في معرض التذكير بنعم الله، وكيف أنه تعالى نقلهم من الخوف إلى الأمن ومن الضيق إلى سعة الرزق.

---

(1) فتح الباري (5/ 119).

(2) رواه البخاري (3128).

ثم رأيت تحقيقًا رائعا للعلامة أحمد بن نصر الداودي حول هذا الموضوع، نقله عنه العلامة ابن بطال، وذلك عندما تعرض لشرح باب: فضل الفقر من كتاب الرقاق من صحيح البخاري، فقال: «ولم يأتِ في الحديث – فيما علمنا – أن النبي ﷺ كان يدعو على نفسه بالفقر ولا يدعو بذلك على أحد يريد الخير، بل كان يدعو بالكفاف[1]، ويستعيذ بالله من شر فتنة الفقر، وفتنة الغنى[2]، ولم يكن يدعو بالغنى إلا بشريطة يذكرها في دعائه[3]، فأما ما روي عنه أنه كان يقول: «**اللهم أحيِني مسكينًا وأمِتْني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين**»[4]، فإن ثبت في النقل فمعناه: ألا يجاوز الكفاف، أو يريد به الاستكانة إلى الله، ويدل على صحة هذا التأويل: أن ترك أموال بني النضير، وسهمه من فدك وخيبر، فغير جائز أن يظن به أن يدعو إلى الله ألا يكون بيده شيء، وهو يقدر على إزالته من يده بالإنفاق. وقال أيضًا: وقال عليه السلام لأبي لبابة: «**أمسك عليك بعض مالك**»[5].

---

(1) إشارة إلى ما رواه مسلم (1055) (19) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافًا».

(2) أخرجه مسلم (589)، وهو في مسند أحمد (24301).

(3) يعني الغنى الذي لا يطغي.

(4) رواه الترمذي (2352)، وقال: هذا حديث غريب.

قلت: وفي إسناده: الحارث بن النعمان الليثي، قال عنه ابن حجر في التقريب رقم (1052): ضعيف.

(5) وذلك حين قال: يا رسول الله أريد أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله.

وقوله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**»، قاله لكعب بن مالك وليس

=

وقال لسعد: «**إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس**»[1].

وقال لعمرو بن العاص: «**هل لك أن أبعثك في جيش يسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك رغبة من المال؟ قال: ما للمال كانت هجرتي، إنما كانت لله ولرسوله فقال: نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[2]، ثم أضاف الداودي قائلًا:

كيف يذم معاوية، ويأمر أبا لبابة وسعدًا أن يبقيا ما ذكر من المال ويقول: إنه خير، ثم يخالف ذلك وقد ثبت أنه دعا لأنس بن مالك، وقال «**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته**»[3].

فلم يدع له بكثرة المال إلا وقرن ذلك بقوله: «**وبارك له فيما أعطيته**»[4].«وقال الإمام الطبري: لاشك أن محنة الصابر أشد من محنة الشاكر غير

=

لأبي لبابة، والحديث أخرجه البخاري (2757)، ومسلم (2769) ضمن حديث توبة كعب، أما حديث أبي لبابة، فأخرجه أبو داود (3319)، (3320)، وهو في المسند (15750). ولفظه: أن أبا لبابة لما تاب الله عليه، قال يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي، وأساكنك، وأن أنخلع من مالي صدقة لله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**يُجزئ عنك الثلث**».

(1) رواه أحمد (1524)، والبخاري (3936)، ومسلم (1628) (5).

(2) يعني عندما سئل عنه وقد خطب امرأة فقال: إنه صعلوك لا مال له، والحديث أخرجه أحمد (17763).

(3) الحديث رواه البخاري (6378، 6379) في الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال والولد والبركة، ومسلم (2480)، والترمذي (3829).

(4) انظر «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (10/168-170-171).

أني أقول كما قال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر أحب إليَّ من أُبتلى فأصبر»[1].

وقال الحافظ ابن حجر في معرض رده على من قال: فالأفضل ما اختاره النبي ﷺ وجمهور أصحابه من التقلل في الدنيا والبعد عن زهراتها: «ودعوى أن جمهور الصحابة كانوا على التقلل والزهد ممنوعة بالمشهور من أحوالهم...ومن تبحر في سير السلف علم صحة ذلك»[2].

نعم إن رسول الله ﷺ كان غنيًّا، ولم يكن فقيرًا، ولكنه كان منفقًا، جوادًا، مؤثرًا غيره على نفسه، زاهدًا، وكان زهده ﷺ عن اختيار ورضا يدل على ذلك ما جاء في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «**عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا، يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك**»[3]، فكان ﷺ بذلك قدوة للشاكرين وقدوة للصابرين.

---

(1) انظر «فتح الباري» (14/422 - 423).

(2) المصدر السابق (14 / 423).

(3) أخرجه الترمذي (2347)، وقال: هذا حديث حسن.

المبحث الثاني

تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الإنساني

من مظاهر الخيرية عند رسول الله ﷺ حسن تعامله ﷺ مع زوجاته في جانبه الإنساني ويتضح ذلك من خلال الأمثلة الآتية:

أولًا: دخوله عليهن ومؤانسته لهن:

وكان له ﷺ نظام في الدخول والخروج عليهن يعرفنه جميعًا: وكان يطوف عليهن كل صباح فيسلم عليهن ويدعو لهن.

عن ابن عباس قال : «وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مصلاه، وجلس الناس حوله حتى تطلع الشمس ،ثم يدخل على نسائه امراة امرأة يسلم عليهن ، ويدعو لهن ، فإذا كان يوم إحداهن كان عندها»[1].

وكان إذا إنصرف من العصر دخل عليهن أيضًا، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن...»[2].

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: «ويمكن الجمع بأن الذي كان يقع أول النهار سلامًا ودعاءً محضًا والذي في آخره معه جلوس واستئناس ومحادثة»[3].

---

(1) أخرجه ابن مردويه كما في «فتح الباري» 53/12.

(2) (5268).

(3) (53/12).

ثم يلقاهن مجتمعات كل ليلة فيؤنسهن:

عن أنس ﷺ قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسع، هكن يجتمعن كل ليلة في بيت التي يأتيها...»[1].

ويشار هنا إلى أن هذا النظام الذي سار عليه رسول الله ﷺ لم يتركه، وكان يطبق حتى أيام زواجه: عن أنس ﷺ قال: بُني على النبي بزينب ابنة جحش بخبز ولحم...وفيه: فخرج النبي ﷺ فانطلق ﷺ إلى حجرة عائشة، فقال: «**السلام عليكم آل البيت ورحمة الله**»، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك؟ بارك الله لك، فتقرَّى – أي تتبع – حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة[2].

وقد كان عليه الصلاة والسلام يعدل بين نسائه، ولم يكن يفضل واحدة منهن على غيرها فيما يملك العدل فيه ومن ذلك:

1- القسم العادل في البيت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت لعروة: يا ابن أختي، كان رسول الله ﷺ لا يُفضَّلُ بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قلَّ يومٌ إلا وهويطوف علينا جميعًا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي

(1) رواه مسلم (1463)(47)، كتاب النكاح، باب القسم بين الزوجات.

(2) رواه البخاري (4793)، كتاب التفسير، باب: قوله ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾. [الأحزاب: 53]

هو يومها فيبيت عندها[1].

2- القرعة بينهن إذا أراد سفرًا:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة ينت زمعة وهبت يومها لعائشة[2].

وأختم هذه الفقرة بشهادة إحدى زوجاته - وهي السيدة عائشة - له بحسن تعامله معهن، ورفقه بهن، وضحكه وتبسمه لهن.

سُئِلت عائشةُ رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ إذا خلا بنسائه، فقالت: كان كالرجل من رجالكم، إلا أنه أكرم الناس، وأحسن الناس خلقًا، وألين الناس في قومه، وأكرمهم، ضحَّاكًا بسامًا[3].

ثانيًا: تصريحه بحب أهله:

ومن مظاهر الخيرية في الحياة الزوجية للنبي ﷺ في جانبها الإنساني أنه كان يحب أهله ويصرح بذلك:

---

(1) أخرجه أبو داود (3135) كتاب النكاح: باب القسم بين النساء، والحاكم (2/ 186)، وصححه.

(2) أخرجه البخاري (2593) ومسلم (2770) (56).

(3) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (1/ 365)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (1001/ 1750)، وهناد بن السري في «الزهد» برقم (1269)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ»، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» رقم (11).

وقبل أن أبدأ بالحديث عن هذه الصفة أود أن أشير إلى آية كريمة في كتاب الله تتحدث عن العلاقة التي يجب أن تسود بين الزوجين، قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

إذن فليس بغريب على رسول الله ﷺ أن يتحدث عن هذه المودة، وهناك شواهد متعددة تدل على ما نحن فيه بصدد الحديث عنه:

عن عائشة رضي الله عنها قالت[1]: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرْتُ على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها – وفي رواية [2]: لكثرة ذكره إياها، وثنائه عليها – وربما ذبح الشاة ثم يُقطِّعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق[3] خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: «**إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد**».

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: استأذنت هالة بنت خويلد، أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «**اللهم هالة**». قالت: فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين[4]، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرًا منها» [5].

---

(1) رواه البخاري (3818)، ومسلم (2435) (76).

(2) رواه البخاري (5228).

(3) صدائق: أي صديقات.

(4) حمراء الشدقين نسبتها إلى كبر السن؛ لأن من دخل في سن الشيخوخة مع قوة بدنه يغلب على لونه غالبًا الحمرة المائلة إلى السمرة. كذا قال القرطبي، كما في «فتح الباري» (7 / 140).

(5) رواه البخاري (3821)، ومسلم (2437) (78). ولفظ مسلم: فارتاح، وليس فارتاع.

وفي رواية أحمد: «**ما أبدلني الله عز وجل خيرًا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها إذ حرمني أولاد النساء**» (1).

ولم يمنعه حبه لعائشة أن يصرح فضل خديجة، ومكانها في قلبه، ولو في ذلك الموقف الذي ظهرت فيه غيرتُها، بل لم يكتم حبه لها، وقد مضى على وفاتها أكثر من خمس سنين! فقال لعائشة: «**إني قد رزقت حبَّها**»(2). فما أعظم وفاءه، وما أرحب قلبه، وما أصدق لسانه، وما أصرح وأفصح تعبيره ﷺ.

إن رسول الله ﷺ لا يجد غضاضة في أن يحب زوجه، وأن يصارحها بذلك معبرًا عن عاطفة خيرة، ويكتم كثيرون سواه عواطفهم تجاه أزواجهم لئلا يُخَدش كبرياؤُهم، أو يقل احترامهم فيما يحسبون وهم مخطئون(3)، فقد جاء في الصحيح عن عمرو بن العاص أنه قال لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: «**عائشة**» (4).

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال وهو: ما السر في اختصاص عائشة رضي الله عنها بهذا الحب الكبير؟ والجواب: أن ظهور النبوة في الأرض أمر نادر، لا سيما

---

(1) رواه أحمد (24864). وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (4 / 128): تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به.

(2) رواه البخاري (3818)، ومسلم (2435)، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين.

(3) «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم العمري (2 / 647).

(4) رواه البخاري (3662)، ومسلم (2384).

وأن النبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء، ومن ثمَّ فقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام في السيدة عائشة مزايا كثيرة تؤهلها للقيادة العلمية في أمور النساء وشؤونهن، وأن تحمل عنه ما يتعلق بذلك من أحكام، ولهذا فقد أحبها ذلك الحب، وخصها بهذا الاختصاص، وفضلها على سائر نسائه.

*****

ثالثًا: وفاؤه بحقوق المعاشرة الزوجية الخاصة:

ومن مظاهر الخيرية في الحياة الزوجية للنبي ﷺ في جانبها الإنساني وفاؤه ﷺ بحقوق المعاشرة الزوجية الخاصة.

وبادئ ذي بَدْء لا بد أن أُقرِّر بأن الإسلام شرع المباشرة الزوجية للاستمتاع الطيب، وأباح ممارستها في عامة الظروف والأحوال، وجعل مجالات الحظر محدودة للغاية، وذلك في فترة الحج عندما كل من الزوجين في حالة الإحرام، وفيما إذا كان كل من الزوجين، أو أحدهما صائمًا.

وفيما إذا كانت المرأة في حالتي الحيض والنفس، وأعني المباشرة المحظورة هنا الجماع، بل إن الحق تبارك وتعالى قد قرر بأن حب الشهوات من النساء متع الحياة فقال: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [آل عمران: 14].وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى عندما قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**» (1).

وإذا كانت المرأة من أفضل متع الحياة فلا غرابة أن نجدها من الأمور التي حببت إلى النبي ﷺ، وهو أمر يتفق مع الفطرة السليمة، ويتجاوب مع الإنسانية الكاملة التي مثلها رسول الله ﷺ.

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُبِبِ إليَّ من دنياكم: النساء**

(1) رواه مسلم (1467).

والطِّيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» [1].

إن النبي عليه الصلاة والسلام يريد بهذا التوجيه أن يصرف أمته عن الرهبنة التي شاعت في أوساط المتدينين في الديانات الأخرى، وعن العادات والأفكار التي ألفوها وهي بعيدة كل البعد عن المنطق السليم، والفطرة المستقيمة.

ولقد أراد الصحابي الجليل عثمان بن مظعون أن يتبتل فنهاه رسول الله ﷺ[2]. وقال له: «**إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة**» [3].

ولهذا فالزواج من سنته ﷺ وقد نعى على بعض أصحابه عندما أراد ألا يتزوج النساء، فقال: «... **أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» [4].

وفي هذا الإطار نفهم قوله ﷺ عندما أراد قال: «**وفي بُضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**» [5].

---

(1) رواه أحمد (12293)، (12294)، والنسائي (7/ 61- 62)، والحاكم (2 / 160)، وصححه، والضياء في «المختارة» (1737)، وصححه، وقواه الذهبي في «الميزان» (2/ 177)، وحسنه ابن حجر في التلخيص (116/3).

(2) رواه مسلم (1402).

(3) رواه الطبراني من طريق سعيد بن العاص كما في فتح الباري (11/ 361).

(4) رواه البخاري (5063)، ومسلم (1401).

(5) رواه مسلم (1006).

فقد عدَّ النبي ﷺ الجماع عبادة من العبادات التي يُؤجَرُ فاعلُها، وأنَّ من قصَّر فيها فقد قصَّر في أداء الحقوق المترتبة عليه، يدل على ذلك قوله ﷺ: «**وإن لزوجك عليك حقًّا**... »[1].

ولم يكتف النبي ﷺ بتقريره حقًّا، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عدَّ المرأة الصالحة من السعادة، وبذلك أصبح مفهوم السعادة عند النبي ﷺ ليس محصورًا في اللذات المعنوية كما هو مذهب الفلاسفة، وإنما يشمل اللذائذ الحسية ،والمعنوية معاً، يقول عليه الصلاة والسلام: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء**.... »[2].

ولا بأس أن أذكر نماذج من الحياة الزوجية الخاصة عند النبي رسول الله ﷺ: وهي بمثابة الجانب التطبيقي لما قررته آنفًا من مفاهيم حول المعاشرة الزوجية، وهي بحد ذاتها كافية ليطَّلع المسلم على هديه ﷺ في مثل هذا الموضوع الحساس، ومن ثمَّ يتابع الطريق بمفرده ضمن الإطار الذي رسمه النبي عليه الصلاة والسلام له.

1- وفاؤه ﷺ بحق المرأة من المباشرة:

يدل على ذلك ما جاء عن أنس بن مالك : «أن نبي الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وله يومئذٍ تسع نسوة»[3].

---

(1) رواه البخاري (1975).
(2) رواه أحمد (1445)، وابن حبان (4032)، واللفظ له، والحاكم (2 / 162).
(3) رواه البخاري (284)، ومسلم (309).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «كان ﷺ مع كونه أخشى الناس لله وأعلمهم به يكثر التزويج لمصلحة تبليغ الأحكام التي لا يطلع عليها الرجال، ولإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة، لكونه كان لا يجد ما يشبع به من القوت غالبًا، وإن وجد كان يؤثر بأكثره ، ويصوم كثيرًا ، ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة.

ووقع في الشفاء : أن العرب كانت تمدح بكثرة النكاح لدلالته على الرجولية.

ثم أضاف قائلًا: ولم تشغله كثرتهن عن عبادة ربه» [1].

2- وعلى الزوجة الصالحة أن تهيئ نفسها لزوجها، وتستعد له:

وقد كانت أمهات المؤمنين لا يقضين ما عليهن من صيام رمضان إلا في شعبان وما يمنعهن سوى الشغل بالنبي ﷺ.

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن كانت إحدانا لتفطر في زمان رسول الله ﷺ، فما تقدر على أن تقضيه مع رسول الله ﷺ حتى يأتي شعبان [2].

قال الراوي: الشغل برسول الله ﷺ أي: ما يمنعهن من ذلك سوى الانشعال برسول الله ﷺ.

قال النووي رحمه الله: إن كل واحده من نسائه ﷺ كانت مهيئه نفسها لرسول الله ﷺ لاستمتاعه في جميع أوقاتها إن أراد ذلك... وهذا من الأدب.

(1) «فتح الباري» (11/ 356)

(2) رواه مسلم (1146)(152).

وإنما كانت تصومه في شعبان؛ لأنه ﷺ كان بصوم معظم شعبان، فلا حاجة له فيهن حينئذٍ من النهار[1].

3- ويدخل في باب الاستعداد: تزيين المرأة وتجملها:

يدل على ذلك ما جاء في حديث جابر قال: قفلنا مع النبي ﷺ من غزوة فلما ذهبنا لندخل قال: «**أمهلوا حتى تدخلوا ليلًا - أي عشاء - لكي تمتشط الشعثة وتستحد المُغيبة**»[2].

وفي رواية: «**إذا قدم أحدكم ليلًا، فلا يأتين أهله طروقًا، حتى تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة**»[3].

ومعنى الشعثة: أي المرأة التي اغبر وتلبد شعر رأسها حتى تصلح من شأنها.

ومعنى تستحد المغيبة: أي تستعمل المرأة التي غاب عنها زوجها الحديدة وهي الموسى وذلك في حلق العانة.

فعلى المسلم أن يعلم أهله بمجيئه حتى تستعد وتتزين وتتجمل قبل قدومه، ولا يفاجئها بالدخول عليها، وهي في حالة لا يحب أن يراها عليها.

فالرسول عليه الصلاة والسلام في هذا التوجيه الحكيم يأمر الأزواج بالتمهل في دخول المدينة حتى تتهيأ الزوجات للاستقبالهم.

قال الحافظ ابن حجر: لأنه يجد أهله على غير أهبة من التنظف والتزين

---

(1) شرح صحيح مسلم (8 / 22).
(2) رواه البخاري (5079)، ومسلم (1928).
(3) رواه مسلم (1928) (182).

المطلوب في المرأة فيكون سبب النفرة بينهما[1].

4- ولا بأس من تكرار الجماع في الليلة الواحدة:

يدل على ذلك ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يفعل فليتوضأ**» [2].

وفي رواية ابن خزيمة: «**فإنه أنشط للعود**». قال الحافظ ابن حجر: استدل ابن خزيمة على أن الأمر بالوضوء للندب لا للوجوب بما رواه من الزيادة فإنه أمشط للعود، فإنها تدل على أن الأمر للإرشاد أو للندب، ويدل أيضًا على أنه لغير الواجب ما رواه الطحاوي من أن النبي ﷺ كان يجامع ثم يعود ولا يتوضأ[3].

وفي كل ما تقدم ما يدل على أن الجماع حق من حقوق الزوجة، ويجب الوفاء به، وأن التقصير بذلك يعرض الحياة الزوجية لكثير من المخاطر، وقد يكون سببًا من أسباب المشكلات الزوجية.

بَيْد أن الشريعة لم تحدد في ذلك حدًّا، بل أن ذلك داخل في عموم قوله تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: 19].

وقد سئل الشيخ ابن تيمية عن الرجل إذا صبر على زوجته الشهر والشهرين لا يطؤها، فهل عليه إثم أم لا؟ وهل يُطالَبُ الزوج بذلك؟

فأجاب: يجب على الرجل أن يطأ زوجته بالمعروف، وهو من أوكد حقها

---

(1) «فتح الباري» (252/9).

(2) رواه مسلم (623).

(3) «فتح الباري» (33/2).

عليه، أعظم من إطعامها.

والوطء الواجب، قيل: أنه في كل أربعة أشهر مرة.

وقيل بقدر حاجتها وقدرته، كما يطعمها بقدر حاجتها وقدرته، وهذا أصح القولين[1].

بينما قال ابن حزم: وفرض على الرجل أن يجامع امرأته التي هي زوجته.

وأدنى ذلك مرة في كل طهر إن قدر على ذلك، وإلا فهو عاصٍ لله تعالى، برهان ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾ [البقرة: 222][2].

5- ومن الأمور التي كان رسول الله ﷺ يؤكد عليها في الحياة الزوجية الخاصة: الملاعبة والمضاحكة بين الزوجين:

يدل على ذلك ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**تزوجت يا جابر**».

فقلت: نعم.

فقال: «**أبكراً أم ثيباً؟**».

قلت: بل ثيبًا.

قال: «**فهلاَّ جارية تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك؟**»[3].

(1) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (271/32).

(2) «المحلى» (9/ 174).

(3) رواه البخاري (5079)، ومسلم (1928).

6- ومن الأمور التي كان يفعلها رسول الله ﷺ في حياته الزوجية الخاصة التقبيل:

يدل على ذلك: ما جاء عن عائشة «أن النبي ﷺ قبَّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة...» (1).

وكان يقبل ويباشر حتى وهو صائم، يدل على ذلك: ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه»(2)؛ أي حاجته.

وفد أشارت السيدة عائشة بقولها: «وكان أملككم لإربه» إلى أن الإباحة لمن يكون مالكًا لنفسه دون من لا يأمن من الوقوع فيما يحرم؛ وهو هنا : الجماع.

ومن هنا اختلف الفقهاء في حكم القبلة والمباشرة دون الجماع للمسلم الصائم: فمنهم من قال بالتفريق المذكور آنفاً ، ومنهم من أباحها مطلقاً، ومنهم من فرق بين الشاب والشيخ، فكرهها للشاب خشية الوقوع في المحذور وأباحها للشيخ، ومنهم من كرهها مطلقًا وهم المالكية(3).

وإذا كان التقبيل المذكور كان يقع منه ﷺ في العبادة، أو قبل الخروج للعبادة، فما بالك في استعمال ذلك في غير أوقات العبادة.

---

(1) رواه الترمذي (75)، وأبوداود (178)، والنسائي (170)، وابن ماجه (502).

(2) رواه البخاري (1927)، ومسلم (1106).

(3) انظر «فتح الباري» (644/5)، وللاطلاع على أدلة هذه الأقوال ومناقشتها ينظر كتب الفقه الإسلامي.

7- ومن الأمور التي كان يفعلها رسول الله ﷺ في حياته الزوجية، الملاطفة في الطعام والشراب:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة أنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ، فيشرب، وأتعرَّق العَرْق - أي آخذ اللحم من العَرْق أي العظم الذي أخذ منه معظم اللحم وبقيت عليه بقية - وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ[1].

وملاطفة النبي ﷺ لعائشة في الطعام والشراب في حالة الحيض كان له من النبي ﷺ مقصد آخر أيضًا، وهو الرد على ما كان شائعًا عند اليهود من أن المرأة إذا حاضت لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت. وعندما سأل أصحاب النبي ﷺ عن ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»[2].

ولهذا عندما سأل رجلٌ رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «**لك ما فوق الإزار**»[3]. بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يحض الزوج على رفع اللقمة إلى فم

---

(1) رواه مسلم (300) (14).

(2) رواه مسلم (302).

(3) رواه أبو داود (197).

الزوجة ويعد ذلك عبادة من العبادات التي يؤجر فاعلها.

يدل على ذلك ما جاء عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ «**وإنك مهما أنفقت من نفقة، فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى فِيِّ امرأتك**» (1).

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث الإنفاق في وجوه الخير؛ لأن المباح إذا قصد به وجه الله صار طاعة، وقد نبه على ذلك بأقل الحظوظ الدنيوية العادية وهو رفع اللقمة في فم الزوجة ، إذ لا يكون ذلك غالباً إلا عند الملاعبة والممازحة، ومع ذلك فيؤجرُ فاعلهُ إذا قصد به قصدًا صحيحًا، فكيف بما هو فوق ذلك» (2).

8- ومن الأمور التي كان يفعلها رسول الله ﷺ في حياته الزوجية، القرب من زوجته:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره..،. فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضعًا رأسه على فخذي قد نام.

فقال: حبستِ رسول الله ﷺ والناس ، ليسوا على ماء! وجعل يطعنني في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي(3).

---

(1) رواه البخاري (2742)، ومسلم (1628).
(2) فتح الباري (7 / 272).
(3) رواه البخاري (334)، ومسلم (367).

9- ومن الأمور التي كان يفعلها رسول الله ﷺ في حياته الزوجية الخاصة اغتساله ﷺ مع زوجاته:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كنت أغتسل أنا ورسول ﷺ من إناء واحد، ونحن جنبان**»[1].

وفي رواية فيبادرني حتى أقول: دع لي، دع لي.

وعن ميمونة: أنها كانت تغتسل هي والنبي ﷺ في إناء واحد[2].

وعن أم سلمة: أنها كانت هي ورسول الله ﷺ يغتسلان في الإناء الواحد من الجنابة[3].

وأختم هذه الفقرة بنصوص نفيسة في هذا الموضوع سجلها لنا الشيخ ابن القيم في كتابه النافع «زاد المعاد» فقال رحمه الله:

«وأما الجماع والباه، فكان هديه ﷺ فيه أكمل هدي، يحفظ به الصحة وتتم به اللذة وسرور النفس، ويحصل به مقاصده التي وضع لأجلها؛ فإن الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الأصلية:

أحدها: حفظ النسل.

الثاني: إخواج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البلدن.

الثالث: قضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة، وهذه وحدها هي الفائدة التي في الجنة، إذ لا تناسل هناك، ولا احتقان يستفرغه الإنزالُ.

---

(1) رواه مسلم (321).

(2) رواه مسلم (322).

(3) رواه مسلم (324).

وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة.

ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويحبه , ويقول: «**حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب**..» [1].

وقال أيضاً: «ومما ينبغي تقديمه على الجماع مداعبة المرأة، وتقبيلها، ومص لسانها، وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله، ويقبلها.

وروى أبو داود في سننه أنه ﷺ كان يقبل عائشة ويمص لسانها» [2].

«وأحسن أشكال الجماع أن يعلو الرجل المرأة، مستفرشًا لها بعد الملاعبة والقُبلة، وبهذا سميت المراة فراشًا، كما قال رسول الله ﷺ: «**الولد للفراش**»، وقد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187].

وأكمل اللباس وأسبغه على هذا الحال.

وجماع الحائض حرام طبعًا وشرعًا، فإنه مضرٌّ جدًّا، والأطباء قاطبة تحذر منه» [3].

---

(1) 228/4، وقد تقدم تخريج الحديث.

(2) 231/4، والحديث أخرجه أحمد (24916)، وأبو داود (2386)، وابن خزيمة (2003)، لكنه قال: باب الرخصة في مص لسان المرأة..

إن جاز الاحتجاج بمصدع أبي يحيى – أحد رواة الحديث عن عائشة – فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح.

وضعف الشيخ شعيب الأرنؤوط لفظة: «**ويمص لسانها**»، وقال عن إسناد هذا الحديث: فالإسناد مسلسل بمن لا يحتج بما انفرد به، وقد انفردوا بلفظو : ويمص لسانها.

(3) 234/4، وحديث الولد للفراش، رواه البخاري (2218)، ومسلم (1457).

«وأما الدبر، فلم يبح على لسان نبي من الأنبياء، وقد قال رسول الله ﷺ: **«ملعون مَنْ أتى المرأة في دبرِها»** [1].

***

(1) 235/4، وحديث «**ملعون من أتى المراة..** » رواه أحمد (9733) و(10206)، وأبو داود (2162)، وصحح البوصيري إسناده.

المبحث الثالث

تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب التعاوني

من مظاهر الخيرية عند رسول الله ﷺ في تعامله مع زوجاته في جانبه التعاوني:

أولاً: أنه كان يعاون أهله في المنزل، وهذا يدل على مشاركته ﷺ أهله في تدبير شؤون المنزل، مع كثرة الأعباء الملقاة على عاتقه:

عن الأسود قال: سألت عاشة : ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله – تعني خدمة أهله – فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة[1].

وفي رواية: قالت: كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويَحلُب شاته، ويخدِم نفسه[2].

وفي رواية: قالت: كان يَخيطُ ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم[3].

قال الحافظ ابن حجر: قوله في «في مهنة أهله» بفتح الميم وكسرها وسكون الهاء، وقد فسرها في الحديث بالخدمة، وهي من تفسير آدم بن أبي إياس شيخ

(1) رواه البخاري (676)، كتاب أبواب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج.

(2) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (541)، وابن حبان (5675) في باب: ذكر ما يستحب للمرء أن لا يأنف من العمل المستحقر في بيته بنفسه وإن كان عظيماً في أعين البشر.

(3) رواه أحمد (121/6)، وابن حبان (5677).

المصنف... وفي الصحاح: المهنة بالفتح: الخدمة , وهذا موافق لما قاله، لكن فسرها صاحب المحكم بأخص من ذلك فقال: المهنة: الحذق بالخدمة والعمل.

ثم أضاف قائلًا:

وفي الحديث: الترغيب في التواضع، وترك التكبر، وخدمة الرجل أهله [1].

وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول بذلك من باب حسن المعاشرة مع أهله، وإلا فالدارس لحياة النبي ﷺ يجد أن كتب السيرة ذكرت أسماء أكثر من عشر خادمات في بيته الكريم ﷺ، هذا فضلًا عن الخدم والموالي[2].

***

(1)«فتح الباري» (163/2).

(2) انظر كتاب «أسد الغابة في أسماء الصحابة» لابن الأثير، وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله شديد الاعتناء بموالي رسول الله ﷺ يحب أن يعرفهم، ويحسن إليهم.

وكتب أيام خلافته إلى أبي بكر بن حزم أن يفصح له عن موالي رسول الله ﷺ: الرجال والنساء وخدامه.

وانظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (497/1)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (315/5).

وقد كتب السخاوي كتاباً حافلاً بهذا الموضوع سماه: «الفخر المتوالي فيمن انتسب إلى النبي ﷺ من الخدم والموالي» فارجع إليه.

ومن الأمثلة على هذا الجانب.

ثانيًا: التعاون على الخير

لا بد ونحن نتحدث عن تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في جانبه التعاوني أن نشير إلى أمر غاية في الأهمية ألا وهو التعاون على الخير فيما يرضي الله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: 2]. وأي تعاون أعظم من تعاون الزوجين على أمر من أمور الآخرة، وهذا ما يعلمنا إياه رسول الله ﷺ.

يدل على ذلك ما جاء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة تعينه على أمر الآخرة**» (1).وما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى، وأيقظ أمرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت , وأيقظت زوجها فصلى، فإن أَبَى نضحت في وجهه الماء**» (2).وما جاء عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا استيقظ الرجل من الليل، وأيقظ أهله، فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**» (3).

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يطبق ذلك عمليًّا، ويضرب لنا

(1) رواه أحمد (22437)، وابن ماجه (1856).

(2) رواه أحمد (7410)، وأبو داود (1308) وابن ماجه (1336).

(3) رواه أبو داود (1309) وابن ماجه (1335)، واللفظ له، وابن حبان (2560).

أروع الأمثلة في تعاون الزوجين على الخير، يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله» [1].

وتحدثنا أم سلمة رضي الله عنها: زوج النبي ﷺ عن موقف من هذه المواقف فتقول: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعًا، يقول: «**سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن؟، وماذا أنزل من الفتن؟، من يوقظ صواحب الحجرات؟ – يريد أزواجه – لكي يصلين – ربَّ كاسية في الدنيا , عارية في الآخرة**»[2].

وتحدثنا أم المؤمنين جويرية عن موقف آخر من مواقف النبي ﷺ مع زوجاته في جانب من جوانب التعاون على البر والتقوى، وكيف كان يعلمهن ما يرفع منزلتهن عند الله بأيسر سبيل، وأسهل طريق:

فقد خرج النبي ﷺ من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة.

فقال: «**ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟**».

قالت: نعم.

قال النبي ﷺ: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته**» [3].

---

(1) رواه البخاري (2024)، ومسلم (1174).

(2) رواه البخاري (7069).

(3) رواه مسلم (2726).

ومن الأمثلة على التعاون:

ثالثًا: التشاور بين الزوجين

ويدخل في باب التعاون أيضًا التشاور بين الزوجين في القضايا التي تهم الأسرة، أو تُهِم المجتمع؛ ذلك لأن الأمر بالشورى أمر عام يشمل جميع المجالات داخل الأسرة وخارجها، وفي الأمور الخاصة والعامة امتثالًا لقوله تعالى ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى: 38]، وحسبنا في ذلك تلك المشورة التي قدمتها أم سلمة لرسول الله ﷺ يوم الحديبية:

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: «.. فلما فرغ – أي رسول الله ﷺ – من قضية الكتاب – أي كتاب صلح الحديبية – قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**».

قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك، أخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا.. »[1].

ويتأكد مثل هذا التشاور في القضايا التي لها أثر كبير في حياة الأبناء والبنات ومستقبلهم، يدل على ذلك ما جاء عن أنس قال: خطب رسول الله ﷺ على جُليبيب امرأةً من الأنصار إلى أبيها.

(1) رواه البخاري (2732).

قال: حتى أستامر أمها – أى حتى أستشير أمها –.

قال: «**فنعم إذًا**».

قال: فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها.. »[1].

وفي رواية أخرى:

قال: قال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «**زوجني ابنتك**».

فقال: نعم وكرامة يا رسول الله، ونُعْمَ عيني – أي نكرمك، ونسر عينك بها–.

قال: «**إني لست أريدها لنفسي**».

قال: فلمن يا رسول الله؟

قال: «**لجُليبيب**».

قال: فقال: يا رسول الله أشاور أمها.

فأتى أمها، فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك.

فقالت: ونعمت عيني، زوِّج رسول الله ﷺ.

فقال: أنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب.

قالت: حَلْقَى أجليبيب...؟

لا، لعمر الله، لا أزوج جليبيًا.

فلما قام أبوها ليأتي النبي ﷺ قالت الفتاة من خدرها لأمها:

من خطبني إليكما؟ قالا: رسول الله ﷺ.

---

(1) رواه أحمد (12393)، وابن حبان (4053).

قالت أتردون على رسول الله ﷺ أمره، ادفعوني إلى رسول الله ﷺ فإنه لن يضيعني فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: شأنك بها، فزوَّجها جليبيبًا... »[1].

وقد جاء في هذا المعنى حديث آخر يقول فيه النبي ﷺ: «**آمروا النساء في بناتهن**» [2].

***

(1) رواه أحمد (19810). وقولها «حَلْقَى» تقال في الأمر يعجب منه، وانظر «النهاية» مادة: حلق.

(2) رواه أبو داود (2088).

المبحث الرابع

تعامل النبي ﷺ في الجانب الجمالي

تمهيد:

كان رسول الله ﷺ أجمل الناس، وكان مع هذا الجمال أنيقًا، لا يطيق ما يتنافى مع هذه الأناقة، وكان ﷺ متجملًا وقد ظهر تجمله ﷺ في شؤونه كافة، ولهذا كان لابد لنا من الوقوف على مفردات التجمل في حياته ﷺ، ليقتدي بها المسلم في حياته الزوجية.

والتجمل وإن كان عنوانًا بارزًا في حياة النبي ﷺ بصورة عامة إلا أننا نستطيع أن نستفيد منه في حياته الزوجية بصورة خاصة، ذاك لأن الحياة الزوجيية هي اللبنة الأولى في المجتمع، ونجاح الإنسان فيها عنوان على نجاحه في حياته الاجتماعية بصورة عامة.

ونستطيع أن نتعرف على مفردات التجمل في حياة النبي ﷺ من جانبين، هما:

1- **تنظفه.**

2- **اهتمامه بمظهره الخارجي.**

أولًا: تنظفه ﷺ:

رعايته ﷺ لجميع وسائل التنظيف في سائر أعضاء جسده أمر واضح غاية الوضوح في سيرته ﷺ بل إن النبي عليه الصلاة والسلام رعى هذا الجانب

رعاية خاصة عندما عده من خصال الفطرة التي كان يأمر بها. ومعنى الفطرة: أي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء، واتفقت عليها الشرائع، وكأنها أمر جِبِليّ فطروا عليه، ليكونوا على أكمل الصفات وأشرفها صورة [1].

وخصال الفطرة كثيرة منها: ما جاء عن عائشة أن الرسول ﷺ قال:

«عشر من الفطرة: قص الشارب، وقص الأظافر، وغسل البراجم – وهي عقد الأصابع التي في ظهر الكف– وإعفاء اللحية، والسواك، والإستنشاق، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء – أي الاستنجاء– ، قال مصعب–أحد رواة الحديث–: ونسيت العاشرة إلا أن تكون **المضمضة»**[2].

ومن وسائل التنظيف: الوضوء خمس مرات في اليوم والليلة، لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** ﴾ [المائدة: 6] .وإلى مشروعية الوضوء مع كل صلاة ذهب جمهور الفقهاء إلا أنهم اختلفوا في وصف هذه المشروعية على قولين؛ منهم من ذهب إلى الوجوب، والجمهور على أنه مندوب، في حالة كونه على وضوء.

ومنها: المحافظة على غسل الجمعة لقوله ﷺ: «**إذا أراد أحدكم أن يأتي الجمعة فليغتسل**» [3].

ومنها المحافظة على نظافة الأسنان، فقد كان ﷺ شديد العناية بها،

---

(1) انظر ما قيل عن الفطرة: «فتح الباري» (336/13)، وقد أخترت أجمع ما قيل فيها

(2) رواه النسائي (127/8، 128).

(3) رواه مسلم (844).

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنا نعد لرسول الله ﷺ سواكه وطهوره فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك، ويتوضأ، ثم يصلي"[1].

وكان يقول: «**السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**» [2].

والثابت عنه ﷺ أنه كان يستاك مفطرًا وصائمًا، وعند الانتباه من النوم، وعند الوضوء، وعند الصلاة، وعند دخول البيت، وغير ذلك.

ثانيًا: اهتمامه ﷺ بمظهره الخارجي:

كان رسول الله ﷺ يمتاز ببهاء طلعته، وجمال هيئته، وأناقة ملبسه، وطيب رائحته، وترجيل شعره، وسأتناول الحديث عن هذا الجانب من حياة الرسول الزوج ﷺ من عدة زوايا:

الزاوية الأولى: عنايته ﷺ بأناقة ملبسه:

القاعدة العامة في لباسه ﷺ أنه كان يتحرَّى فيها صفة الجمال، يدل على ذلك ما جاء عنه ﷺ أنه قال: «**لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، فقال: إن الله جميل يحب الجمال...** »[3].

فكان ﷺ يتحرى الجمال في ملبسه، والإناقة بمظهره الخارجي، وعلى المسلم أن يقتدي برسول الله ﷺ في ذلك، ولكن ضمن الضوابط الآتية:

---

(1) رواه مسلم (1736).

(2) رواه النسائي (5).

(3) رواه مسلم (91)، وأبة داود (4091)، وغيرهما.

ضوابط اللبس في ضوء السنة النبوية

1-ألا يكون لباسه من الحرير، والديباج، والإستبرق، بإستثناء الشئ القليل من ذلك، فإنه رخص فيه.

2-وألا ينوي به الخيلاء ولا الشهرة.

قال ﷺ: «**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة، ثم تلهب فيه النار**» [1].

وقد كان السلف يكرهون الشهرتين من الثياب: العالي والمنخفض.

3-وألا يكون ملونًا بالألوان الخاصة بالنساء، كلباس الأحمر القاني، بدليل ما جاء عن عبد الله بن عمرو قال: «رآني رسول الله ﷺ وعليَّ ثوب مصبوغ بعصفر مُورَّدٌ، قال: ما هذا؟ فانطلقت فأحرقته...، فقال النبي ﷺ: « **أفلا كسوته بعض أهلك، فإنه لا بأس به للنساء**» [2].

4-وألايكون مما لا يختص به الكفار.

قال عليه الصلاة والسلام: «**إن هذه من لباس الكفار فلا تلبسها**».

قال ذلك لعبد الله بن عمرو وقد رأى عليه ثوبين معصفرين» [3].

5- وأن يتذكر عند لباسه نعمة الله عليه ليربط النعمة بالمنعم، قال ﷺ «**من لبس ثوبًا جديدًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة: غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**» [1].

---

(1) رواه أبو داود (4029).

(2) رواه أبو داود (4063، 4065).

(3) رواه مسلم (2077).

الألبسة التي كان يلبسها ﷺ

ولا بأس أن نستعرض – ولو بشكل موجز – أنواع الألبسة التي كان عليه الصلاة والسلام يلبسها: «كان أحبُّ الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحِبَرَة» [2].

والحِبَرَة كما قال ابن بطال، وهي: من برود اليمن تصنع من قطن، وكانت أشرف الثياب عندهم.

وسميت بهذا السم كما قال القرطبي: لأنها تحبَّر أي: تزين، والتحبير: التزين والتحسين[3].

وحتى عند وفاته لم يفارقه هذا النوع من الثياب، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «إن النبي ﷺ حين توفي سجي ببرد حِبَرة» [4].

ولبس حلة حمراء: يدل على ذلك ما جاء عن البراء بن عازب ﷺ قال: «رأيت النبي ﷺ وعليه حُلة حمراء مترجلًا – والترجيل: تسريح شعر الرأس والحية ودهنه –لم أر قبله ولا بعده مثله» [5].وفي رواية ما رأيت: «ما رأيت شيئًا أحسن منه» [6].«والحُلة: إزار ورداء، ولا تكون الحلة إلا اسمًا للثوبين معًا». =

(1) رواه أبو داود (4019).

(2) رواه البخاري(5813).

(3) «فتح الباري» (233/13).

(4) رواه البخاري(5814)، ومسلم (943).

(5) رواه النسائي(5314).

(6) رواه البخاري(5848).

والحلة الحمراء: بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود كسائر البرود اليمنية، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر، وإلا فالأحمر البحت منهي عنه أشد النهي» [1].

ويبدو لو أن الحلة الحمراء المذكورة لها مواصفات خاصة، وهي تمتاز بأنها من ذوات الألوان الهادئة؛ إذ إن لونها ليس مشبعًا بالحمرة، بل هو من الألوان الحمراء الخفيفة الصبغ، وهي لم تصبغ كلها، وإنما فيها لون آخر من البياض أو سواد، ولونها ثابت لا يتغير، ويصبغ غزلها قبل نسجه.

ولبس ﷺ بردين أخضرين:

يدل على ذلك ما جاء عن أبي رمثة: قال رأيت رسول الله ﷺ يخطب وعليه بُردان أخضران[2].

والبرد الأخضر: هو الذي فيه خطوط خضر، وهو كالحلة الحمراء سواء، فمن فهم من الحُلة الحمراء الأحمر البحت فينبغي أن يقول: إن البرد الأخضر كان أخضر بحتًا، وهذا لا يقوله أحد[3].

ولبس القميص: وهو من أحب الثياب إليه:

يدل على ذلك ما جاء عن أم سلمة قالت: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص» [4].

---

(1)«زاد المعاد»لابن قيم الجوزية (132/1).

(2) رواه النسائي (5334)، وأبو داود (4206)، وغيرهما.

(3) زاد المعاد (139/1).

(4) رواه أبو داود (4021).

وكـان قميصـه مـن قطـن، وكـان قصـير الطـول، قصـير الكمـين[1] – أي إلى الرسغ [2]–.

وأختم هذه الفقرة بما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلل» [3].

هـذه أمثلة على الألبسة التي كـان يلبسـها رسـول الله ﷺ، وعنصر الجمـال فيهـا واضح كما رأيت، وهذا هو محل الشاهد الذي أردت التدليل عليه.

وإلا فهناك أنواع أخرى من الألبسة التي كان رسول الله ﷺ يلبسـها: ومن أهمهـا، أنه ﷺ «لبس الجبة الشامية، وكانت ضيقة الكمين، وجبة طيالسة كسروانية لها لِبْنَةُ ديباج، واشتري سراويل، والظاهر أنه اشتراها ليلبسـها، وقد روي في غير حديث أنه لبس السراويل، ولبس الإزار والرداء، ولإزاره من نسج عُمان..» [4].

قال ابن القيم:

«وكان غالب ما يلبس هو وأصحابه ما نسج من القطن، وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان، قال ابن سيرين: «وقد حدثني من لا أتهم أن النبي ﷺ قد لبس الكتان، والصوف والقطن، وسنة نبينا أحق أن تُتَّبع».

ومقصود ابن سيرين بهذا أن أقواماً يرون أن لبس الصوف دائمًا أفضل من غيره فيتحرونـه، ويمنعـون أنفسـهم مـن غـيره، وكـذلك يتحـرون زيًّا واحـدًا مـن

(1) زاد المعاد(135/1).

(2) رواه أبو داود (4023).

(3) رواه أبو داود (4037)، وغيرهما.

(4) انظر زاد المعاد (123/1-135).

الملابس ويتحرون رسومًا وأوضاعًا وهيئات يرون أن الخروج عنها منكرًا، وليس المنكر إلا التقيد بها، والمحافظة عليها وترك الخروج عنها.

والصواب: أن أفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ التي سنَّها، وأمر بها، ورغب فيها، وداوم عليها، وهي:

أن هديه في اللباس: أن يلبس ما تيسر من اللباس...» [1].

بل إن النبي ﷺ كان يأمر بالتجمل، وحسن المظهر وعندما رأى رجلًا رث الثياب قال له: «**إذا أتاك الله مالًا فلير أثره عليك**» [2].

وعد إظهار النعمة من الأعمال المحبوبة عند الله: فقال: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» [3].

الزاوية الثانية: عنايته بشعره: كان النبي ﷺ يعتمي بشعره خير عناية،«وكان من هديه في حلق الرأس تركه كله، أو أخذه كله، ولم يحفظ عنه حلقه إلا في نسك» [4]؛ إذ كان الغالب عليه ترك حلقه، يدل على ذلك ما جاء عن أنس ﵁ قال:«كان شعر النبي ﷺ إلى نصف أذنيه» [5].وكان يرجّل نفسه تارة،يدل على ذلك ما جاء عائشة رضي الله

(1) المصدر السابق (137/1، 138).

(2) رواه النسائي(5224).

(3) أخرجه الترمذي(2819)، عن عبد الله بن عمرو.

(4) زاد المعاد(167/1).

(5) رواه النسائي(5234).

عنها، عن النبي ﷺ، «أنه كان يعجبه التيمن ما استطاع في ترجله ووضوئه» (1).

وترجِّله السيدة عائشة تارة أخرى (2)، لكنه كان لا يبالغ في ذلك، وينهى عن المبالغة(3).

قال ابن بطال:

والترجيل: تسريح شعر الرأس واللحية، ودهنه، وهو من النظافة، وقد ندب الشارع إليها، وقال تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (4) [الأعراف: 31].

وكان ﷺ يعد العناية بالشعر بابًا من أبواب تكريمه، وكان يقول: «**من كان له شعر فليكرمه**» (5), وفي هذا الحديث دعوة صريحة إلى العناية بالشعر وإصلاحه، ورعايته على الدوام.

«ورأى ررجلًا شَعِثًا قد تفرق شعره فقال: **أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره**» (6).

---

(1) أخرجه البخاري (5926).

(2) انظر الحديث في صحيح البخاري (5925).

(3) عن عبد الله بن المغفَّل أن النبي ﷺ كان ينهى عن الترجل إلا غِبًّا، رواه أحمد (16793)، وأبو داود(4159)، والترمذي (1756)، وقال حسن صحيح.

(4)«فتح الباري» (380/13).

(5) رواه أبو داود (4059), وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (13/ 380), وسنده حسن.

(6) والحديث رواه أبو داود (4059) , عن جابر بن عبد الله وفيه : ورأى رجلاً آخر عليه ثياب وسخة فقال : «**أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه**».

ومن مظاهر عنايته بشعره: أنه ﷺ كان يسدل شعره ثم فرقه[1].

والفرق : أن يجعل شعره فرقتين، كل فرقة ذؤابة، ويكشفه عن جبينه[2].

والسدل: أن يسدله من ورائه، ولا يجعله فرقتين[3].

الزاوية الثالثة: تطيبه ﷺ:

كان رسول الله ﷺ يحب الطيب، وكان يكثر من التطيب، وكان أحب الطيب إليه المسك، وكان لا يرده [4]، ويقول: «**من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيِّبُ الريح**» [5].

الزاوية الرابعة: ومن مظاهر العناية بمظهره الخارجي: ذوقه الرفيع في تعامله مع العطاس والتثاؤب:

من ذلك: أنه ﷺ كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو ثوبه، وغضَّ بها صوته[6].

وكان ينهى عن التثاؤب , ويأمر من غلبه التثاؤب أن يمسك بيده على فمه قال ﷺ: «**إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فمه فإن الشيطان يدخل**» [7].

(1) أخرجه أبو داود (4185)، والنسائي (5238).

(2)«فتح الباري» (370/13).

(3) زاد المعاد (168/1).

(4) أخرجه البخاري(5929)، والنسائي(5258).

(5) أخرجه مسلم (2253)، والنسائي (5259).

(6) أخرجه الترمذي (2745).

(7) رواه مسلم (2995).

وأختم هذا المبحث - تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الجمالي - بكلمة نفيسة سجلها الحافظ ابن حجر عن مقاصد الشريعة من هذا التجمل، فقال: «ويتعلق بهذه الخصال - أي خصال الفطرة -: مصالح دينية ودنيوية تدرك بالتتبع، منها تحسين الهيئة، وتنظيف البدن جملة وتفصيلاً، والاحتياط للطهارتين, والإحسان إلى المخالط والمقارن [1]، بكف ما يتأذى به من رائحة كريهة، ومخالفة شعار الكفار من المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان، وامتثال أمر الشارع، والمحافظة على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: 64]. لما في المحافظة على هذه الخصال من مناسبة ذلك، وكأنه قيل: قد حسَّنت صوركم فلا تشوهوها بما يقبحها، أو حافظوا على ما يستمر به حسنها، وفي المحافظة عليها محافظة على المروءة، وعلى التآلف المطلوب؛ لأن الإنسان إذا بدا في الهيئة الجميلة كان أدعى لإنبساط النفس إليه فيقبل قوله، ويحمد رأيه، والعكس بالعكس» [2].

وكا قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله ينطبق تمام الانطباق على العلاقة بين الزوج والزوجة، فلا شك أن التجمل باب من أهم أبواب حسن المعاشرة للزوجة،وصدق الله عندما قال: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾. كما أن ترك التجمل باب من أبواب سوء المعاشرة[3].

---

(1) وهل يوجد مخالط أو مقارن للرجل أكثر من زوجته.

(2) "فتح الباري" (335/13).

(3) وقد جاء في هذا المعنى حديث عن النبي ﷺ وهو قوله: «**اغسلوا ثيابكم وخذوا من**

=

وقد أطلت في هذا المبحث لأبين هدي النبي ﷺ في التجمل لاسيما للزوج؛ وذلك لأننا اعتدنا أن نرشد الزوجة إلى التزين والتجمل لزوجها، ولا نرشد الزوج لذلك.

***

= **شعوركم، واستاكوا وتزينوا، وتنظفوا فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم»**.

وهو حديث ضعيف.ذكره الذهبي في «تذكرة الحافظ» (1158/3)، وفي سنده عبد الله بن ميمون القداح، قال عنه البخاري: ذاهب الحديث، وقال عنه ابن حبان: لا يجوز أن يحتج بما انفرد به.

وأورده السيوطي في «جمع الجوامع»، ونسبه إلى ابن عساكر عن علي رضي الله عنه ، كما في «جامع الأحاديث» برقم (3856) بترتيب أحمد عبد الجواد.

المبحث الخامس

تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الترفيهي

ومن مظاهر الخيرية عند رسول الله ﷺ في تعامله مع زوجاته في جانبه الترفيهي أنه كان يأذن لهن باللهو المباح، ويتضح ذلك من خلال الفقرات الآتية:

1. إقراره النظر إلى اللهو المباح.
2. إقراره سماع الغناء المباح من الجارية.
3. سماحه لهن بمصاحبة النساء.
4. ممارسة الرياضة البدنية.
5. وكان يصحبهن في سفره، ويتبادلان أطراف الحديث.
6. إقراره الدعابة والمزاح، وتبسمه لهما.
7. سماعه طرف الأخبار الاجتماعية منهن.
8. وكان يصحبهن معه في الولائم أحيانًا، ولا يختص بطعام طيب دونهن.

***

أولًا: إقراره النظر إلى اللهو المباح:

ويتضح ذلك من خلال المثالين الآتيين:

أ– إقراره ﷺ أهله النظر إلى اللهو المباح يوم العيد:

يدل على ذلك ما جاء عن عاشة رضي الله عنها قالت: «...وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدَّرَقِ[1]والحراب، فإما سألت النبي ﷺ، وإما قال: «**تشتهين تنظرين؟**» [2].

قلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: «**دونكم**[3] **يا بني أَرْفِدة**» [4] حتى إذا مللت قال: «**حسبك**» قلت: نعم. قال: «**فاذهبي**» [5].

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث: جواز النظر إلى اللهو المباح، وفيه حسن خلقه ﷺ مع أهله، وكرم معاشرته» [6].

---

(1) الدرق: جمع درقة، وهي ترس مصنوع من جلد.

(2) جاء في رواية النسائي في «سننه الكبرى»: فقال لي النبي ﷺ : «**يا حميراء، أتحبين أن تنظري إليهن؟**» قلت : نعم. قال ابن حجر في «فتح الباري» (500/3): إسناده صحيح، ولم أر في حديث صحيح ذكر الحميراء إلا في هذا.

(3) دونكم بالنصب على الظرفية بمعنى الإغراء، وفيه: إذن وتنهيض لهم، وتنشيط.

(4) بني أرفدة: قيل هو لقب للحبشة، وقيل: المعنى يا بني الإماء، وجاء في رواية: فإنهم بنو أرفدة: كأنه يعني أن هذا شأنهم وطريقتهم، وهو من الأمور المباحة فلا إنكار عليهم.

(5) أخرجه البخاري (2907)، ومسلم (892)، (16)، وغيرهما.

(6)«فتح الباري» (314/2)، شرح حديث رقم (454).

ب- ومن نماذج اللهو المباح: إقراره ﷺ أهله على النظر إلى اللهو المباح في غير يوم العيد:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«ولما قدم وفد الحبشة على رسول الله ﷺ قاموا يلعبون في المسجد فرأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إليهم , وهم يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو» (1).

وفي رواية أخرى: قالت: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يومًا على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله ﷺ» (2).

وفي رواية قالت: «كان رسول الله ﷺ جالسًا، فسمعنا لغطًا وصوت صبيان، فقام رسول الله ﷺ فإذا حبشية تزفن , والصبيان حولها فقال: «**يا عائشة، تعالي فانظري، فجئت فوضعت لَحْيَيَّ على منكب رسول الله ﷺ فجعلت أنظُر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي:** «**أما شبعت، أما شبعت؟**»، قالت فجعلت أقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده، إذ طلع عمر، قال: فارفضَّ الناس عنها، قالت، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لأرى شياطين الأنس والجن قد فروا من عمر**»، قالت: فرجعت» (3).

وفي رواية أن النبي ﷺ قال يومئذٍ: «**لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة، إني**

---

(1) أخرجه ابن حبان (5846).

(2) أخرجه البخاري (454)، ومسلم (892)، (18).

(3) أخرجه الترمذي (3691)، عن عائشة.ومعنى فارفض: أي تفرق.

أُرسِلت بحنيفية سمحة»[1].

وقد ورد حديث آخر يبين لنا بعض ما كانت الحبشة تقول في لعبهم ذلك، وهو: ما جاء عن أنس ﷺ: أن الحبشة كانوا يزفنون بين يدي رسول الله ﷺ، ويتكلمون بكلام لا يفهمه، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يقولون؟**» قالوا: يقولون: محمد عبد صالح[2].

وقد استنبط الحافظ ابن حجر[3] من رواية: «ولما قدم وفد الحبشة على رسول الله ﷺ» أن الحادثة المذكورة وقعت بعد فتح خيبر، وقدوم جعفر بن أبي طالب إلى المدينة، ومن المعلوم أن فتح خيبر كان في شهر محرم، سنة سبع من الهجرة.

وعلى الحديث المذكور اعتمدت في قولي: إقراره ﷺ أهله على النظر إلى اللهو المباح في غير يوم العيد.

ويشار هنا إلى أنه قد تقدم معنا في النموذج الأول أن السيدة عائشة نظرت

(1) رواه أحمد (24855)، وقال الشيخ شعيب: إسناده قوي.

(2) أخرجه ابن حبان (5840)، وفي رواية النسائي في الكبرى: ومن قولهم يومئذ: أبا القاسم طيبًا. ومعنى يزفنون: أي يرقصون.

(3) «فتح الباري» (697/11).

قال رحمه الله: وظاهر الترجمة أن المصنف كان يذهب إلى جواز نظر المرأة إلى الأجنبي بخلاف عكسه، وهي مسألة شهيرة، واختلف الترجيح فيها عند الشافعية، وحديث الباب يساعد من أجاز، ولكن النووي أجاب عن ذلك بأن عائشة كانت صغيرة دون البلوغ، أو كان ذلك قبل الحجاب، وقواه بقوله في هذه الرواية. «**اقدروا قدر الجارية الحديثة السن**». لكن يعكر عليه أن في بعض طرقه «أن ذلك كان بعد قدوم وفد الحبشة ولعائشة يومئذٍ ست عشرة سنة، فكانت بالغة، وكان ذلك بعد الحجاب...».

إلى لعب السودان، وكان ذلك يوم عيد وفي هذا الحديث – النموذج الثاني – ما يفيد أن السيدة عائشة أيضًا نظرت إلى الحبشة، وهم يلعبون بحرابهم وليس فيه إشارة إلى أن ذلك وقع يوم العيد، فهل يا ترى هما قصة واحدة؟ هذا محتمل ولكنني رجحت أنهما قصتان، وأن اللعب المذكور قد وقع مرتين: مرة يوم العيد، وقد قام به السودان ومرة ثانية عند قدوم جعفر بعد فتح خيبر، اعتماداً على رواية ابن حبان: لما قدم وفد الحبشة» ويبدو لي أنه قام به الوفد الذي وفد من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ﵁ بدليل قوله: «قاموا يلعبون». ويؤيده: رواية أنس: أن الحبشة كانوا يزفنون، ويتكلمون بكلام لا يفهمه...» مما يدل على أنهم قوم طارئون على المدينة وليسوا من أهلها.

***

ثانيًا: ومن الأمثلة على الجانب الترفيهي، إقراره ﷺ أهله على سماع الغناء المباح من الجارية يوم العيد:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ [في يوم فطر - أو أضحى-][1] وعندي جاريتان [من جواري الأنصار][2] تغنيان بغناء بُعاث[3]، [قالت: وليستا بمغنيتين][4]، فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ! [5]، فأقبل عليه رسول الله عليه السلام[6] فقال: «**دعهما [يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا]**[7]. فلما غفل غمزتهما فخرجتا»[8].

---

(1) من رواية البخاري (3931).

(2) من رواية البخاري (952).

(3) وفي رواية البخاري (952): تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بُعاث.

وفي رواية أخرى (987): جاريتان تدففان وتضربان.

وفي رواية أخرى (3931): وعندها قينتان تغنيان بما تعازفت الأنصار يوم بعاث. ويوم بُعاث يوم مشهور من أيام العرب، كانت فيه مقتلة عظيمة انتصر فيها الأوس على الخزرج، وكان قبل الهجرة بثلاث سنين.

(4) من رواية البخاري (952).

(5) في رواية أخرى (952): أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ! وذلك في يوم عيد.

وفي رواية أخرى (3931): مزمار الشيطان مرتين!

(6) في رواية البخاري (987)، فكشف النبي ﷺ عن وجهه.

(7) من رواية البخاري (952).

(8) أخرجه البخاري (949)، وما كان مقوسًا فهو من زيادتي على هذه الرواية، ولكن جميع هذه الألفاظ من صحيح البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي هذا الحديث من الفوائد: الرفق بالمرأة، واستجلاب مودتها، وفيه: أن إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين، وفيه: مشروعية التوسعة على العيال في أيام الأعياد بأنواع ما يحصل لهم ببسط النفس، وترويح البدن من كُلف العبادة.

واستدل به على جواز سماع صوت الجارية بالغناء ولو لم تكن مملوكة؛ لأنه ﷺ لم ينكر على أبي بكر سماعه بل أنكر إنكاره، واستمرتا إلى أن أشارت إليهما عائشة بالخروج، ولا يخفى أن محل الجواز ما إذا أمنت الفتنة بذلك»(1).

ومعنى قوله: «ليستا بمغنيتين»؛ أي: ليستا ممن يعرف الغناء كما يعرفه المغنيات المعروفات بذلك، وهذا منها تحرز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به، وهو الذي يحرك الساكن، ويبعث الكامن، وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر، وغيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه(2).

قال الإمام المهلب بن أحمد بن أبي صفرة (ت 435هـ):

«وكان أهل المدينة على سيرة من أمر الغناء واللهو، وكان النبي ﷺ وأبو بكر على خلاف ذلك، ولذلك أنكر أبو بكر المغنيتين في بيت عائشة؛ لأنه لم يرهما قبل ذلك بحضرة النبي ﷺ، فرخص في ذلك للعيد، وفي ولائم إعلان النكاح»(3).

****

(1) «فتح الباري» (499/3).

(2) هذا التفسير من كلام الإمام القرطبي رحمه الله كما في «فتح الباري» (498/3).

(3) انظر شرح صحيح البخاري للإمام علي بن خلف بن بطال (549/2).

ثالثًا: سماحة لهنَّ بمصاحبة النساء، واللهو معهن:

ومن نماذج ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت ألعب بالبنات[1] عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتَقمَّعن[2] منه [فيسرِّ بهنَّ][3] إليَّ فيلعبن معي»[4].

قال الحافظ ابن حجر:

«واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب، من أجل لعب البنات بهن، وخص ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض ونقله عن الجمهور...»[5].

ويشار هنا إلى أن الإمام البخاري رحمه الله عنون للباب الذي أخرج فيه هذا الحديث بقوله: «باب الانبساط إلى الناس».

وقال ابن مسعود: «خالط الناس، ودينك لا تكلمنّه»، ثم قال: والدعابة مع الأهل.

وهو استنباط دقيق من الحديث، وهو يريد أن يقول: يدل هذا الحديث على مشروعية الدعابة مع الأهل، والدُعابة هي: الملاطفة في القول بالمزاح وغيره.

---

(1) البنات: أي لُعب على صورة البنات.

(2) يتقمَّعن: أي يتغيبن منه، ويدخلن من وراء الستر حياءً وهيبةً منه ﷺ.

(3) فيسرِّبهن: يرسلهن.

(4) أخرجه البخاري (6130)، ومسلم (2440)، (81).

(5) «فتح الباري» (648/13).

ويشار هنا أيضًا إلى أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تلعب بالبنات، وتصور منها الأشكال الغريبة، وكان رسول الله ﷺ يمازحها في ذلك ويضحك، يدل على ذلك ما جاء عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر، فهبَّت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لُعَبٍ، فقال: «**ما هذا يا عائشة؟**»، قالت: بناتي، وأرى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع، فقال: «**ما هذا الذي أرى وسطهنّ؟**» قالت: فرس، قال: «**وما هذا الذي عليه؟**» قالت: جناحان**!** قال: «**فرس له جناحان؟**» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟**!** قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه[1].

****

(1) أخرجه أبو داود (4764)، وقوله: وفي «سهوتها»، السهوة: شيء شبيه بالرف والطاق يوضع فيه الشيء. وقوله: من «رقاع»، الرقاع: قطع من نسيج.

رابعًا: ممارسة الرياضة البدنية:

ومن مظاهر الخيرية عند رسول الله ﷺ في تعامله مع أهله في جانبه الترفيهي، ممارسة الرياضة البدنية معهن، ومثال ذلك، سباق الجري:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر، وهي جارية قالت: لم أحمل اللحم ولم أَبْدن، فقال لأصحابه: «**تقدموا**» فتقدموا.

ثم قال لي: «**تعالي حتى أسابقك**»، فسابقته [فسبقته] على رجلي، فلما كان بعد، خرجت معه في سفر، فقال لأصحابه: «**تقدموا**» ثم قال: «**تعالي حتى أسابقك**»، ونسيت الذي كان، وقد حملت اللحم، فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله، وأنا على هذه الحال؟! فقال: «**تفعلين**» فسابقته فسبقني، فجعل يضحك، وقال: «**هذه بتلك السبقة**»[1].

يدل هذا الحديث على حسن تعامل المصطفى ﷺ مع أهله، وانبساطه لهن، كما أنه يدل على مشروعية الرياضة البدنية للزوجة إذا كانت هذه الأعمال الرياضية منضبطة بالضوابط الشرعية؛ لأنها تنشط الأعضاء، وتريح النفوس، وتبعث على النشاط، وتذهب عن النفس السآمة والملل.

****

(1) أخرجه أحمد (26277)، وأبو داود (2578)، والنسائي في «الكبرى» (8942)، وابن حبان (4691) وغيرهم.

خامسًا: وكان ﷺ يصحبهن في سفره، ويتبادلان أطراف الحديث:

ومن أمثلة الجانب الترفيهي: أنه ﷺ كان يصحب أهله في سفره، ويسير معهن في الليل ويتجاذبان أطراف الحديث.

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبي ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري، وأركب بعيرك تنظرين وأنظر، فقالت: بلى، فركبت فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلم عليها حتى نزلوا، وافتقدته عائشة...»[1].

يستفاد من هذا الحديث: أن يصحب الرجل زوجه في سفره، وأن يهيئ من الظروف ما يسهل عليه أمر سفرها معه، وقد غاب هذا الأدب النبوي عن كثير من الأزواج في المجتمع الإسلامي، وأصبح الرجل يعيش حياته في سفره وحضره منفردًا، وأصبحت المرأة تعيش حياتها منفصلة عن الزوج في كثير من الأحيان، وهذا أمر له آثاره السلبية على الأسرة المسلمة مما يؤدي إلى انفصام

---

(1) أخرجه البخاري (5211)، ومسلم (2445) (88).

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث (221/11): «كأن عائشة أجابت إلى ذلك لما شوقتها إليه من النظر إلى ما لم تكن هي تنظر، وهذا مشعر بأنهما لم يكونا حال السير متقاربتين بل كانت كل واحدة منهما من جهة كما جرب العادة من السير قطارين، وإلا فلو كانتا معًا لم تختص إحداهما بنظر ما لم تنظره الأخرى».

العلاقة بينهما، وقد يؤدي ذلك إلى الفراق.

وعلى المسلم أن يهتدي بالهدى النبوي في ذلك، فإنَّ صحبته لأهله في سفره، وسيره معها ليلًا، وتجاذبه معها أطراف الحديث له أثر كبير في زيادة الألفة والمودة والتفاهم بينهما.

ومن الأحكام الفقهية المستنبطة من هذا الحديث:

مشروعية القرعة في القسمة بين الشركاء وغير ذلك، وإلى ذلك ذهب الجمهور وخالف المالكية، ولهم اجتهاد في تفسير الحديث، قال القرطبي رحمه الله:

ينبغي أن يختلف ذلك باختلاف أحوال النساء، وتختص مشروعية القرعة بما إذا اتفقت أحوالهن لئلا تخرج واحدة معه فيكون ترجيحًا بغير مرجح.

وعللوا ذلك بقولهم: إن بعض النسوة قد تكون أنفع في السفر من غيرها فلو خرجت القرعة للتي لا نفع بها في السفر لأضر بحال الرجل، وكذا بالعكس قد يكون بعض النساء أقوم ببيت الرجل من الأخرى(1).

قلت: هذا الخلاف إنما يقوى في حق من كان متزوجًا أكثر من اثنتين، كأن يكون أخذ حقه كله في التعدد، أما المتزوج من اثنتين فيمكن له أن يصحب معه في كل سفر واحدة منهن، وأما المتزوج واحدة فلا يجري هذا الخلاف في حقه أصلًا.

ومما ينبغي ذكره هنا أن النبي ﷺ كان في غاية الشفقة على أهله في

---

(1) انظر «فتح الباري» لابن حجر (221/11).

السفر، ومن مظاهر شفقته، ورحمته، وعنايته أنه كان يمهد لزوجه موضعًا ليناً لركوبها، ويضع ركبتيه لتصعد عليهما، يدل على ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: «.. ثم خرجنا إلى المدينة - راجعين من خيبر - فرأيت النبي ﷺ يحوِّي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبتيه وتضع صفيةُ رجلها على ركبتيه حتى تركب...»[1].

ومن مظاهر شفقته على أهله في السفر أنه ﷺ كان يوصي الحادي أن يخفف رفقًا بهن، يدل على ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه:

أن النبي ﷺ كان في سفر، وكان غلام يحدو بهن يقال له أَنْجَشة، [وكان حسن الصوت]، فقال النبي ﷺ: «**رويدك يا أَنْجَشة سوقك بالقوارير**»[2].

رويدك: أي ارفق، القوارير: كنى عن النساء بالقوارير.

قال الخطابي رحمه الله:

كان أنجشة أسود، وكان في سوقه عنف، فأمره أن يرفق بالمطايا وقيل: كان حسن الصوت بالحداء، فكره أن تسمع النساء الحداء، فإن حسن الصوت يحرك من النفوس، فشبه ضعف عزائمهن، وسرعة تأثير الصوت فيهن بالقوارير في سرعة الكسر إليها، وقد جزم ابن بطال بالمعنى الأول، بينما جزم أبو عبيد الهروي والقاضي عياض بالمعنى الثاني، وجوز القرطبي الأمرين، فقال: شبههن بالقوارير لسرعة تأثرهن، وعدم تجلدهن، فخاف عليهن من

(1) رواه البخاري (4211)، ومعنى يحوي: أي يجعل لها حوية تركب عليها وهي كساء محشوة تدار حول الركب، وفي رواية أخرى (4213): فلما ارتحل وطأ لها خلفه.

(2) رواه البخاري (6210).

حث السير بسرعة: السقوط، أو التألم من كثرة الحركة، والاضطراب الناشئ عن السرعة، أو خاف عليهن الفتنة من سماع النشيد»[1].

وهذا الجمع جيد معقول.

****

(1) انظر «فتح الباري» (13/670 - 679).

سادسًا: إقراره المزاح والدعابة وتبسمه لهما:

ومن أمثلة الجانب الترفيهي، إقراره ﷺ المزاح وتبسمه لهما:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «زارتنا سودة يومًا، فجلس رسول الله ﷺ بيني وبينها، إحدى رجليه في حجري، والأخرى في حجرها، فعملت له حريرة... فقلت: كُلي، فأبت.

فقلت: لتأكلي أو لألطخن وجهك فأبت، فأخذت من القصعة شيئًا فلطخت به وجهها، فرفع رسول الله ﷺ رجله من حجرها تستقيد مني، فأخذت من القصعة شيئًا فلطخت به وجهي، ورسول الله ﷺ يضحك...»[1].

من المعلوم أن سودة تربطها علاقة جيدة مع السيدة عائشة، فهي أولًا من حزبها، يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها: أن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة، وصفية، وسودة، والحزب الآخر: أم سلمة، وسائر نساء رسول الله ﷺ[2]، وهي التي وهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة[3] فغير مستغرب هذا المزاح بينهما في حضرة النبي

(1) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (8868)، وأبو يعلي في «مسنده» (4476/7)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (15/4): ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن. و«الحريرة» هي: الحساء المطبوخ من الدقيق والدسم والماء كما في «النهاية» مادة: حسا.

(2) رواه البخاري (2581).

(3) انظر في ذلك الحديث الذي رواه البخاري (5212).

ﷺ، وهو ﷺ يضحك من ذلك.

ومن الأمثلة على الدعابة اللطيفة وتبسمه لهنَّ ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: رجع رسول الله ﷺ من جنازة بالبقيع، فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: بل أنا يا عائشة! وارأساه ثم قال: «**ما ضرك لو متِ قبلي، فقمت عليك، فغسلتك، وكفنتك، وصليتُ عليك، ودفنتك؟**»

فقالت: لكأني بك - والله - لو فعلت ذلك، لرجعت إلى بيتي، فعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم بدئ بوجعه الذي مات فيه...»[1].

ولا شك أن المزاح اللطيف، والدعابة الحلوة تؤدي إلى تطييب الخواطر، والترويح عن النفوس وغرس بذور المحبة الصادقة بين الزوجين.

***

(1) رواه أحمد (25908)، وابن ماجه (1465)، والنسائي في الكبرى (7079)، وابن حبان (6586).

سابعًا: سماعه ﷺ الطُرَف والأخبار الاجتماعية منهن:

ومن مظاهر الخيرية عند رسول الله ﷺ في تعامله مع أزواجه في الجانب الترفيهي سماعه ﷺ من زوجه طُرَف الأخبار:

يدل على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «اجتمع إحدى عشرة امرأة فتعاقدن، وتعاهدن أن ينعتن أزواجهن ويصدقن. فقالت إحداهن: زوجي عياياء، طباقاء، كلُّ داءٍ له داء، شجَّكِ أو فلَّكِ أو جمع كلًّا لك[1].

قالت الأخرى: زوجي لحمُ جملٍ غَثٍّ بجبل، لا سهلٌ فيرتقى إليه ولا سمينٌ فينتَقَلُ[2].

(1) قولها: «زوجي عياياء» العياياء: العنين العاجز عن مباضعة النساء.

«طباقاء»، المعجم الذي انطبق عليه الكلام، وقيل: الأحمق الذي انطبقت عليه الأمور فلا يهتدي إلى الخروج منها.

قولها: «كل داء له داء»: أي كل شيء من أدواء الناس فهو فيه، معناه: كل العيوب المتفرقة في الناس مجتمعة فيه.

وقولها: «شجك أو فلك» الشج في الرأس خاصة، وهو أن يعلو الرأس بالعصا، والفل: الكسر في سائر البدن.

تقول: إن زوجها إذا غضب لم يملك نفسه، فإما أن يشج رأسي أو يكسر عضوًا من أعضائي، أو يجمعهما عليَّ.

(2) قولها: «زوجي لحم جمل غث» أي مهزول، على رأس جبل: تصف قلة خيره، وبعده مع القلة، كالشيء في قُلَّةِ الجبل الصعب، لا ينال إلا بالمشقة، فكذلك هذا لا يوصل إلى خيره إلا بموته لبخله.

وقولها: «ولا سمين فينتقل» أي ينقله الناس إلى منازلهم للأكل.

وقالت الأخرى: زوجي العَشَنَّقُ، إن أَسكُت أُعلَّقْ، وإن أَنطِق أُطلَّقْ[1].

وقال الأخرى: زوجي إذا شرب اشتفَّ، وإذا رقد التف، ولا يدخل الكف، فيعلم البثَّ[2].

وقالت الأخرى: زوجي لا أَبثُّ خبرَه، أخشى أن لا أذره[3]، [إن أَذكرْهُ أذكر عُجَرَهُ وبُجَرَه].

فقال عروة: هؤلاء خمسة يشكون.

وقالت الأخرى: زوجي ليل تهامة، لا حرٌ ولا بردٌ ولا مخافة[4].

وقالت الأخرى: زوجي إذا دخل فَهِدَ، وإذا خرج أَسِد، ولا يَسأَلُ عما عهد[5].

---

(1) قولها: «زوجي العشنق» أي الطويل، تريد أنه منظر لا خير فيه، إن ذكرت ما فيه طلقني، وإن سكت تركني معلقة لا أيمّا ولا ذات بعل.

(2) قولها: «إذا شرب اشتف» أي: شرب ما في الإناء كله فلم يبق شيئًا.

«وإذا رقد التف» أي نام في ناحية ولم يضاجعني.

وقولها: «ولا يدخل الكف فيعلم البث» تريد لا يضجع معي ليعلم حزني على بعده وما عندي من المحبة له، وقيل غير ذلك.

(3) قولها: «لا أبث خبره» أي لا أنشره لقبح آثاره.

«إني أخاف أن لا أذره» أي: لا أبلغ صفاته من طولها، وقيل: لا أقدر على فراقه للأولاد والأسباب التي بيني وبينه، وقولها: عُجَرَه، وبُجَرَه: أرادت عيوبه الظاهرة، وأسراره الكامنة، ولعله كان مستور الظاهر رديء الباطن.

(4) قولها: «زوجي ليل تهامة لا حر ولا برد» تريد حسن خلقه، وسهولة أموره أي لا ذو حر ولا ذو برد، لأن في كل واحد منهما أذى، وليس عنده أذى ولا مكروه «ولا مخافة» أي: لا أخاف شره.

(5) قولها: إذا دخل فهد، أي: نام وغفل عن معايب البيت التي يلزمني إصلاحها ، والفهد :

=

وقالت الأخرى: زوجي الريحُ ريحُ زرنبٍ، والمسُّ مسُّ أرنبٍ، أغلبه والناسَ يغلبُ[1].

وقالت الأخرى: زوجي أبو مالك، وما أبو مالك: ذو إبلٍ كثيرةُ المسالك، قليلةُ المبارك، إذا سمعن صوت المِزَهر أيقنَّ أنهنّ هوالك[2].

وقالت الأخرى: زوجي طويلُ النِّجاد، رفيعُ العماد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد[3].

قالت أم زرع: زوجي أبو زرع وما أبو زرع؟ أَناسَ من حُليٍ أُذُنيَّ[4]، ومن

= ________________

كثير النوم.

وقولها: إذا خرج أسد، تقول: إذا خرج إلى لقاء العدو خافه كل شجاع، وكان كالأسد الذي يخافه كل سبع.

وقولها: «ولا يسأل عما عهد، أي عما رأى في البيت من طعام ومأكول لسخائه، وسعة قلبه». تصفه بالكرم، والشجاعة، وحسن الخلق.

(1) الزرنب: نوع من الطيب. تريد زوجي لين العريكة، شبهته بالأرنب في لين مسه أغلبه، والناس يغلب: فوصفته مع جميل عشرته لها، وصبره عليها بالشجاعة.

(2) قولها: المزهر، العود وهو المعزف، أرادت أن الإبل إذا سمعت صوت المعازف، علمت بنزول الضيف، وأيقنت أنها منحورة لهم. وصفته بالكرم، وكثرة القرى، والاستعداد له مع الثروة الواسعة.

(3) «النجاد» حمالة السيف، وهو ما يتلقد به، كَنَت به عن امتداد قامته، وحسن منظره.

«رفيع العماد» العماد: عود الخباء، كَنَت بارتفاعه عن شرفه، وارتفاع بيته.

«النادي» مجلس القوم ومجتمعهم، والكريم يقرب بيته من النادي ليظهر فيعرف فيغشى.

(4) وقولها أناس، من النوس وهو الحركة، وكل شيء تحرك متدليًا، تقول: حلاني بالقرطة والشنوف حتى تنوس بأذنيها، أي تحركهما.

شحم عَضُديَّ[1] وبجح بنفسي فبجحت[2]، ابن أبي زرع وما ابن أبي زرع؟ مضجَعُهُ كَمَسَلِّ الشطبة[3]، وتكفيه ذراع الجَفْرة[4].

بنت أبي زرع وما بنت أبي زرع؟ ملء كسائها، وصفر ردائها، وخير نسائها، وغيظ جاراتها، وطوع أبيها وطوع أمها[5]، خادم أبي زرع وما خادم أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثًا، ولا تعش بيتنا تعشيشًا[6]، أتاني أبو زرع، وأنا في شق فنكحني، فانطلق بي إلى أهل صَهيل وأَطيط ودائس، ومُنَقٍّ، فأنا عنده

---

(1) وملأ من شحم عضدي: تريد: أحسن إليَّ حتى سمنت، ولم ترد به العضد خاصة، بل أرادت الجسد كله.

(2) وبجح بنفسي فبجحت «أي: فرحني ففرحت، وعظمت عند نفسي، وقال ابن الأنباري أي عظمني فعظمت عند نفسي».

(3) وقولها: «مضجعه كمسل الشطبة» تشبهه في الدقة بما شطب من جريد النخل وهو سعفه، وذلك أنه يشقق منه قضبان دقاق ينسج منها الحُصر، أرادت أنه خفيف اللحم، دقيق الخصر، وقال ابن الأعرابي: أرادت بمسل الشطبة سيفًا يسل من غمده، شبهته به.

(4) وقولها: «تكفيه ذراع الجفرة» تصفه بقلة الأكل، والجفرة تأنيث الجفر وهو من ولد المعز الذي أتى عليه أربعة أشهر وفصل عن أمه، وأخذ في الرعي

(5) وقولها: «ملء كسائها» تريد عظيمة العجز والفخذين، أي: هي ذات لحم تملأ كساءَها، وصفر ردائها: الصفر: أي الشيء الفارغ، أراد أن امتلاء منكبيها، وقيام نهديها يرفعان الرداء عن أعلى جسدها فهو لا يمسه فيصير كالفارغ منها، بخلاف أسفلها وغيظ جاراتها: أي تحسدها لجمالها وكمالها.

(6) وقولها: «لا تبث حديثنا» أي لا تشيعه ولا تنم. وقولها لا تملأ بيتنا تعشيشًا أرادت أنها لا تخوننا في الطعام فتخبئ في كل زاوية شيئًا كالطير تعشش في مواضع شتى، وقيل: إنها مصلحة للبيت مهتمة بتنظيفه، وإلقاء كناسته، وإبعادها منه. وأنها لا تكتفي بقم كناسته وتركها في جوانبه كأنها الأعشاش.

أشربُ فأَتقمَّحُ[1]، وأَرقُدُ فأَتصبَّحُ، وأَقولُ فلا أُقَبَّحُ، خرج من عندي أبو زرع والأوطاب تُمخَضُ[2]، فأبصر امرأة لها ابنان كالفهدين، يلعبان من تحتها برمانتين، فنكحها أبو زرع وطلقني، فنكحت بعده شابًا سَريًا، فركب فرسًا شريًّا، وأخذ رمحًا خطيًّا، وأراح على بيتي نعمًا ثريًّا[3] وأتاني من كل سائمة زوجًا،

(1) قوله: «بشق» أي بمشقة، صهيل وأطيط: أي أهل خير وإبل، والصهيل: صوت الخيل، والأطيط: صوت الإبل، ودائس: الذي يدوس الطعام، داسه يدوسه، ودرسه يدرسه تريد أنهم أصحاب زرع وكُدس يدوسونه وينقونه، والمنقي: الغربال. وقولها: «أشرف فأتقمح» أي تشرب حتى تروى، وأرقد فأتصبح: أي أنام الصبحة، والصبحة النوم أول النهار، وأقول فلا أقبح، أي لا يرُدُّ علي قولي لكرامتي عليه.

(2) «والأوطاب تمخض» الأوطاب: أسقيه اللبن، واحدها وَطَب. كناية عن كثرة اللبن، وأن عندهم ما يكفيهم ويفضل حتى يمخضوه، ويستخرجوا زبده.

(3) قولها: «يلعبان من تحتها برمانتين» قال أبو عبيد: معناه أنها ذات كفل عظيم إذا استلقت نتأ الكفل بها من الأرض حتى يصير تحتها فجوة يجري فيها الرمان. وقيل: أرادت بالرمانتين الثديين. وقولها: «شابًا سريًا» أي:من سراة الناس، وهم كبراؤهم في حسن الصورة والهيئة.

وقولها: «فرسًا شريًا» أي يستشري في سيره، أي: يلج ويتمادى، وقولها: «خطيًا» تعني الرمح سمي خطيًا لأنه يحمل من بلد بناحية البحرين يقال له: الخط فنسب إليه.

وقولها: «نعمًا ثريًّا» أي كثيرًا يقال: أثرى بنو فلان إذا كثرت أموالهم. قولها: «ميري أهلك» أي صليهم وأوسعي عليهم. والحاصل: أنها وصفته بالسؤدد في ذاته، والشجاعة، والفضل، والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله، وتهدي منه ما شاءت لأهلها مبالغة في إكرامها، ومع ذلك فكانت أحواله عندها محتقرة بالنسبة لأبي زرع، وسبب ذلك أن أبا زرع كان أول أزواجها، فسكنت محبته في قلبها كما قيل: ما الحب إلا للحبيب الأول.

اعتمدت في شرح مفردات الحديث على:

=

فقال: كلي وميري أهلك فلو جمعت كل شيء أصبته منه فجعلته في أصغر وعاء من أوعية أبي زرع ما ملأه.

قالت عائشة: فقال لي رسول الله: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع**» (1).

وفي رواية: «**في الألفة والوفاء لا في الفرقة والجلاء**».

وفي رواية أخرى: «**إلا أنه طلقها وإني لا أطلقك**».

قالت عائشة: يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع لأم زرع».

قال الحافظ ابن حجر:

وكأنه قال ذلك تطييبًا لها، وطمأنينة لقلبها، ودفعًا لإيهام عموم

=

1- «فتح الباري» لابن حجر 572/11 - 603.

2- و«الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» بتحقيق الأستاذ شعيب الأرنؤوط (25/16) فما بعدها.

(1) أخرجه البخاري (5189) في كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل (5189)، ومسلم (2448) (92) من طريق عيسى بن يونس عن هشام بن عروة عن عبد الله بن عروة، عن عروة عن عائشة. لكنني اخترت إخراجه هنا من رواية سعيد بن سلمة عن هشام بن عروة به.

علمًا بأن هذه الرواية أشار إليها كل من البخاري ومسلم، ولم يخرجاها، وإنما أخرجها الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه «الفصل للوصل المدرج في النقل» (275/1)، واخترت إخراجها منه لحسن ترتيبها، إذ قد تم فيها ترتيب الخمسة اللاتي مدحن أزواجهن على حدة، بعد أن قمت بتصحيح ما وقع فيها من إدراج ووهم، قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (576/11): «وقد اختلف كثير من رواة الحديث في ترتيبهن، ولا ضير في ذلك، ولا أثر للتقديم والتأخير فيه، إذ لم يقع تسميتهن، نعم في رواية سعيد بن سلمة مناسبة، وهي سياق الخمسة اللاتي ذممن أزواجهن على حدة، والخمسة اللاتي مدحن أزواجهن على حدة...».

التشبيه بجملة أحوال أبي زرع؛ إذ لم يكن فيه ما تذمه النساء سوى ذلك.

وأجابت هي عن ذلك جوابَ مثلها في فضلها وعملها[1].

وفي هذا الحديث من الفوائد:

1- حسن عشرة المرء أهله بالتأنيس والمحادثة بالأمور المباحة، ما لم يُفْضِ ذلك إلى ما يمنع؛ أي شرعًا.

2- وفيه المزح أحيانًا، وبسط النفس به، ومداعبة الرجل أهله، وإعلامه بمحبته لها، ما لم يؤدِّ إلى مفسدة تترتب على ذلك من جنيها عليه، وإعراضها عنه.

3- وفيه: إخبار الرجل أهله بصورة حاله معهم، وتذكيرهم بذلك لا سيما عند وجود ما طُبِعن عليه من كفر الإحسان.

4- وفيه: ذكر المرأة إحسان زوجها.

5- وفيه: الحديث عن الأمم الخالية: وضرب الأمثال بهم اعتبارًا.

6- وفيه: جواز الانبساط بذكر طرف الأخبار، ومستطابات النوادر تنشيطًا للنفوس.

7- وفيه: حض النساء على الوفاء لبعولتهن، وقصر الطرف عليهم، والشكر لجميلهم.

8- وفيه: جواز وصف النساء ومحاسنهن للرجل، لكن محله إذا كن

---

(1) «فتح الباري» (601/11).

مجهولات.

9- وفيه: جواز التأسي بأهل الفصل من كل أمة؛ لأن أم زرع أخبرت عن أبي زرع بجميل عشرته، فامتثله النبي ﷺ.

10- وفيه: «ما كانت النساء عليه من فصاحة وبلاغة، قال القاضي عياض: في كلام هؤلاء النسوة من فصاحة الألفاظ، وبلاغة العبارة والبديع ما لا مزيد عليه..»[1].

11- وفيه: فضيلة للسيدة عائشة، وما كنت تتمتع به من حسن الحديث، ولطيف المجالسة، وحفظ نوادر الأخبار، والاطلاع على ما يدور بين النساء من أخبار وأسرار.

12- ولابد من الإشارة إلى حرمة أن تصف الزوجة زوجها بما يكرهه؛ لأن ذلك من الغيبة المحرمة على من يقوله، ومن يسمعه.

وهؤلاء الأزواج الذين وصفتهم نساؤهم بما يكرهون كانوا غير معروفين، وذكر المرء بما فيه من العيب جائز إذا قصد التنفير من ذلك الفعل شريطة أن يكون مجهولًا غير معروف.

***

(1) «فتح الباري» (602/11، 603).

ثامنًا: وكان ﷺ يصحبهن في الولائم معه، ولا يختص بطعامٍ طيبٍ دونهم:

من مظاهر الخيرية في حياة النبي ﷺ الزوجية: أنه كان ﷺ يصحب زوجته معه في الولائم لتأكل معه، لاسيما إذا كان الطعام موصوفًا بالجودة.

يدل على ذلك ما جاء عن أنس: أن جارًا لرسول الله ﷺ فارسيًّا كان طيب المرق، [وكانت مرقته أطيب شيء ريحًا]، فصنع لرسول الله ﷺ [طعامًا]، ثم جاءه يدعوه.

فقال: «**وهذه؟**» لعائشة.

فقال: لا.

فقال رسول الله ﷺ: «**لا**».

ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه؟**».

قال: نعم في الثالثة.

فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله»[1].

(1) رواه أحمد (12243)، ومسلم (2037)، والنسائي (158/6)، وابن حبان (5301)، وغيرهم، وما بين القوسين زيادة من رواية ابن حبان. ومعنى قوله: يتدافعان: أي يمشي كل واحد منهما في أثر صاحبه.

قال الإمام النووي رحمه الله:

فَكَرِهِ ﷺ الاختصاص بالطعام دونها، وهذا من جميل المعاشرة، وحقوق المصاحبة، وآداب المجالس المؤكدة»[1].

ويستفاد من هذا الحديث: جواز اتخاذ الأمراق الطيبة، وألوان الطعام الحسنة، واستعمال ما أخرج الله سبحانه لعباده من طيبات الرزق، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32].

إن في هذا الحديث: «الصورة البارزة الحية لجميل خلقه ﷺ مع أهله، وعظيم رحمته وعاطفته تجاهها...، أفيترك رسول الله ﷺ أهله ليجلس من ورائها إلى مائدة شهية عامرة عند جاره الفارسي؟!، ما كان خلق رسول الله ﷺ ليرضى بذلك!

وأما أن يكون في ذلك ما يدل على أن عائشة رضي الله عنها ذهبت مع رسول الله متبرجة، وجلست أمام الفارسي سافرة، واختلطت (العائلات) على نحو ما يتم اليوم في الأسر الإسلامية التي لا سلطان لدين الله على حياتها، فهو شيء لا سبيل في الحديث لأي دلالة عليه...»[2].

****

(1) شرح صحيح مسلم (208/13)، وانظر «فتح الباري» (332/12) عند شرح حديث رقم (5434).

(2) «إلى كل فتاة تؤمن بالله» للدكتور محمد سعيد البوطي ص50.

القسم الثاني

أساليبه ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية

ويشتمل على تمهيد، وأحد عشر مبحثًا؛ وهي:

المبحث الأول: أُسلوب الابتسامة والدعابة.

المبحث الثاني: أسلوب التغاضي.

المبحث الثالث: أسلوب الحوار والإقناع.

المبحث الرابع: أسلوب العظة والتذكير.

المبحث الخامس: أسلوب العتاب.

المبحث السادس: أسلوب التروي، والتثبت، والتحقيق قبل إصدار الأحكام.

المبحث السابع: أسلوب القضاء العادل.

المبحث الثامن: أسلوب التأديب بالدفع.

المبحث التاسع: أسلوب الهجر.

المبحث العاشر: أسلوب التخيير والتشاور.

المبحث الحادي عشر: أسلوب الطلاق.

****

تمهيد :

لقد عاش رسول الله ﷺ مع زوجاته الطاهرات حياة سعيدة طيبة؛ إذ إنها كانت تطبيقًا عمليًّا دقيقًا لقوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

فلا عجب بعد ذلك أن نرى رسول الله ﷺ يتحدث عن حياته الزوجية بقوله: «**وأنا خيركم لأهلي**».

وقد سبق الحديث عن هذه الخيرية في الجوانب الاقتصادية والإنسانية والتعاونية، والجمالية والترفيهية في حياته الزوجية ﷺ.

ولكن لابد أن تثور بعض المشكلات في هذا البيت الكريم «وهي من الندرة بحيث لا تذكر لولا ما تعوَّد المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامة على السواء، وهذا مع طول العشرة، وتعدد الزوجات، وكثرة الحوادث الجسام، وقلة النسل الذي يصل المقطوع، ويرأب المصدوع»(1).

ولكن رسول الله ﷺ كان في كل مرة يعالج هذه المشكلات، ويقضي عليها بما عرف عنه من الحكمة والعقل والرحمة والإنصاف، ولقد اتبع عليه الصلاة والسلام في معالجة هذه المشكلات أساليب متعددة، حاولتُ استقصاءها ودراستها ما استطعت إلى ذلك من سبيل، وقد بذلت في ذلك جهدًا أحتسبه عند الله إيمانًا مني بضرورة مثل هذه الدراسات في ارتقاء الأسرة المسلمة إلى محلها الأسمى، والمحافظة على دورها في تنشئة الأجيال المؤمنة، لتحقيق الأهداف العليا في مجتمعنا الإسلامي.

****

(1) «عبقرية محمد» للأستاذ عباس محمود العقاد ص 125.

المبحث الأول

أُسلوب الابتسامة والدعابة

من الأساليب التي استعملها رسول الله ﷺ في معالجة الخلافات الزوجية أسلوب الابتسامة والدعابة فقد يرى عليه الصلاة والسلام أن موقفًا معينًا لا يجدي فيه الغضبُ فضلًا عن أن ينفع فيه العنفُ، ولذلك فما أكثر المواقف التي كان يقابلها ﷺ بالتبسم المشفق، أو الدعابة الحلوة التي تغير وجه الموقف كله، فكم من مشكلة ليس لها من حل سوى الابتسامة أو الدعابة الحلوة التي تضفي عليها طابع المرح، وتبعدها عن دائرة الجد الذي يزيد من تفاقم المشكلة أحيانًا، ويصعب معه حلها.

وقد جاءت في السنة المطهرة نماذج كثيرة في تبسمه ﷺ وقت الخلاف، وسأقتصر هنا على نموذج واحد لبيان هذا الأسلوب:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أرأيت لو نزلت واديًا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرًا لم يؤكل منها في أيها كنت تُرتع بعيرك؟

قال: «**في التي لم يُرتع منها**»، زاد في رواية أبي نعيم: قالت: فأنا هِيَه؛ يعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها[1].

وفي رواية أخرى:

---

(1) رواه البخاري (5077). قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (366/9) وفي هذا الحديث: بلاغة عائشة، وحسن تأتيها في الأمور.

قالت: دخل عليَّ يومًا رسول الله ﷺ، فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: «**يا حميراء كنت عند أم سلمة**».

فقلت: ما تشبع من أم سلمة؟ قالت: فتبسم.

ثم قلت: يا رسول الله، ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع، والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى؟

قال: «**التي لم ترع**».

قلت: فأنا لست كأحد من نسائك، كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيري.

قالت: فتبسم رسول الله ﷺ[1].

إنه تساؤل مشروع نابع من حرص الزوجة على زوجها، ومن غيرتها عليه، لكن الزوج أحيانًا يرى أن هذا السؤال تدخل في شؤونه، وحرص من الزوجة مبالغ فيه فيجادلها، وتجادله، ويخاصمها، وتخاصمه، وتكبر المشكلة، وتتفاقم، وتزداد الشكوكُ، لتحل محل الثقة المتبادلة مما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى الهجران أو الطلاق، وليس مثل أسلوب الابتسامة الحلوة، والدعابة المرحة في مثل هذه المواقف التي تقفها الزوجة من حل، ولو أمطرته بعشرات الأسئلة، وهو يعاني التعب والإرهاق.

****

---

(1) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (55/8).

المبحث الثاني

أُسلوب التغاضي

ومن الأساليب التي كان يستعملها رسول الله ﷺ في معالجة الخلافات الزوجية: أسلوب التغاضي؛ وذلك لأن كثيرًا من الخلافات الزوجية لا تحل بأسلوب الخصومة، ولا ينفع معها الجدل، وكم رأينا من خلافات ما زادها الجدل إلا تعقيدًا، بل زاد من صعوبة حلها.

وكم رأينا من خلافات قضي عليها في مهدها بسبب تغاظي الزوج عنها، والابتعاد عن إثارتها، والانصراف عنها إلى عبادة أو عمل نافع مفيد.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب النبوي ما جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسع، فكن يجتمع كل ليلة في بيت التي يأتيها. فكان في بيت عائشة، فجاءت زينب فمدَّ يده إليها.

فقالت: هذه زينب، فكف النبي ﷺ يده. فتقاولنا حتى اسْتَخَبَتَا[1]، وأقيمت الصلاة.

فمرّ أبو بكر على ذلك، فسمع أصواتهما.

فقال: اخرج يا رسول الله إلى الصلاة، واحث في أفواههن التراب. فخرج النبي ﷺ.

(1) قوله: استخبتا: من السخب، وهو اختلاط الأصوات وارتفاعها. كما في «شرح صحيح مسلم» للنووي (47/10).

فقالت عائشة: الآن يقضي النبي ﷺ صلاته فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل.

فلما قضى النبي ﷺ صلاته أتاها أبو بكر، فقال لها قولًا شديدًا.

وقال: «**أتصنعين هذا؟**»[1].

وواضح من هذا الحديث أن النبي ﷺ لم يباشر معالجة الموقف في قمة ثورته بل تغاضى عنه، وانصرف إلى الصلاة. والإغضاء الرحيم هو أفضل حل لهذه المشكلة «لاسيما وأن الدافع لكل واحدة من المتخاصمتين هنا هو حب رسول الله ﷺ، ولا يجوز أن يكون الحب سببًا لإساءة محبوبها إليها، فلا يجزى الإحسان بالإساءة عند سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام»[2].

وقد عالجها أبو بكر ﷺ خير معالجة، إذ زجر عائشة على ما بدر منها.

ولم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بهذا الأسلوب فقط، بل كان عليه الصلاة والسلام يحول بين هذا الطرف الثالث - حتى ولو كان أبًا - وبين الإساءة إلى الزوجة، وبذلك تشعر هذه الزوجة أن زوجها أرأف بها من أبيها.

يدل على ذلك ما جاء:

عن النعمان بن بشير قال: أستأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فسمع صوت عائشة عاليًا، وهي تقول: والله لقد علمت أن علياً أحبُ إليك من أبي.

فأهوى إليها أبو بكر ليلطمها، وقال: يا ابنة أم رومان، أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ فأمسكه رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر مغضبًا، فقال

---

(1) رواه مسلم (1463) (47).

(2) انظر كتاب دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ، د/ محمد رواس قلعجي ص 185.

رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، كيف رأيتني، أنقذتك من الرجل**».

- في رواية مسند أحمد: فلما خرج أبو بكر جعل النبي ﷺ يترضاها يقول لها: «**ألا ترين أني قد حلت بين الرجل وبينك**».

ثم استأذن أبو بكر بعد ذلك، وقد اصطلح رسول الله ﷺ وعائشة.

- وفي رواية مسند أحمد: فوجده يضاحكها.

فقال أبو بكر: أدخلاني في السلم كما أدخلتماني في الحرب.

فقال رسول الله ﷺ: «**قد فعلنا**»(1).

ويمكننا أن نستنبط من قول أبي بكر رضي الله عنه : أدخلاني في السلم كما أدخلتماني في الحرب: أسلوبا نبويًّا جديدًا في معالجة الخلافات الزوجية، ألا وهو أسلوب التحكيم؛ إذ إن قوله: «أدخلاني في السلم»، يدل على أن النبي ﷺ وزوجه عائشة رضي الله عنها طلبا منه التدخل لحل هذا النزاع، وأنهما رضياه أن يكون حكمًا بينهما، وإن كان مطلع الحديث لا يفيد هذا المعنى بصورة واضحة، وكأنه يوحي أن أبا بكر دخل من غير طلب، وأنه تدخل كطرف ثالث لحل هذا الخلاف القائم، والخاص بأحب الرجلين إلى النبي ﷺ.

ولمزيد من البيان عن أسلوب التغاضي انظر الدرس الرابع عشر من الدروس المستفادة من قصة التحريم في المبحث التاسع من هذا الكتاب.

---

(1) أخرجه أحمد (18394/30، 18421)، وأبو داود (4999)، والنسائي في «السنن الكبرى» (9110)، واللفظ له، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (5309).

وقد ثبت من حديث عمرو بن العاص عند البخاري (3662)، أنه سأل النبي ﷺ: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، فقلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثم من؟ قال: «**عمر بن الخطاب**»، فعد رجالًا.

المبحث الثالث

أسلوب الحوار والإقناع

ومن الأساليب التي استعملها النبي ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية أسلوب الحوار الهادف لإقناع الزوجة بالعدول عن خطأ وقعت به، أو فكرة مسبقة حملتها وهي غير صحيحة.

ولا شك أن إتباع مثل هذا الأسلوب داخل الأسرة له أثره الكبير في استقرارها، وضمان مستقبلها، إذ يجعل الأسرة تتنسم نسائم الحرية، وهي تتبادل الآراء فيما بينها، وتتحاور في كل مشكلة تعرض لكي تتجاوزها.

والاستبداد من الأمراض الخطيرة التي تعصف بالأسرة فتدمرها وتقضي على حاضرها ومستقبلها. ومن ثَمَّ تعصف بالأمم والمجتمعات فتقتل فيها روحَ الإبداع، وتقضي على المواهب، وإذا أردنا أن نحمي الأمة من الاستبداد فلابد من الرجوع إلى الأسرة أولًا لنشيع فيها جوًّا من الحرية، وأن يتقن أفرادها فن الحوار، وأسلوب الإقناع حتى يكون لهم ذلك عادة وسجية.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة وقدوة، فهو الذي علمنا فن الحوار، وهو الذي استعمل أسلوب الإقناع لمعالجة ما يعترضه من مشكلات.

ولبيان ذلك سأعرض ثلاثة نماذج أوضحُ من خلالها أسلوب الحوار والإقناع عند الرسول الزوج عليه الصلاة والسلام.

***

النموذج الأول: اتباعه ﷺ أسلوب الإقناع عن طريق الحوار في تعامله مع زوجه الطاهرة صفية بنت حيي بن أخطب النضرية رضي الله عنها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قالت - يعني صفية -: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إليَّ، قتل زوجي وأبي، وقومي فما زال يعتذر إليَّ، ويقول: يا صفية إن أباك ألب عليَّ العرب، وفعل، وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي»[1].

وفي رواية: «**أما إني أعتذر إليك مما صنعت بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا، وقالوا فيَّ كذا وكذا**»، فما قمت من مقعدي، ومن الناس أحد أحب إليَّ منه ﷺ»[2].

في هذا الحديث نشهد نموذجًا رائعًا من نماذج الإقناع عن طريق الحوار.

هذا النموذج هو تعامله ﷺ مع زوجته الطاهرة أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب النضرية رضي الله عنها.

فقد كانت هذه المرأة من اليهود، هؤلاء القوم الذين لقي النبي ﷺ منهم كل شر وبلاء، فقد اشتدت عداوتهم له، وامتدت حربهم معه سنين عددًا.

وهو الذي سالمهم عندما قدم المدينة، وصان حقوقهم الدينية والمدنية.

---

(1) أخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» ص66، من طريق عفان مختصرًا.

وأخرجه البيهقي (138/9)، من طريق عبد الواحد بن غياث: كلاهما (عفان وعبد الواحد)، عن حماد بن سلمة، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، به، وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (508/9): أخرجه البيهقي بإسناد رجاله ثقات.

(2) «السيرة الحلبية» (749/2).

وصالحهم على أن يكونوا معه لا عليه، ولكن أبوا إلا نقض العهود، وجاهروا بالعداوة والبغضاء، وتحالفوا مع أعدائه عليه، مما اضطر النبي ﷺ أن يخوض معهم معارك حربية كغزوة بني النضير، وغزوة بني قريظة، وغزو خيبر، وغيرها.

وقد أسفرت هذه المعارك عن مقتل حيي بن أخطب والد صفية في معركة بني قريظة، ومقتل زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق في معركة خيبر[1]، كما أسفرت هذه المعارك عن مقتل عدد كبير من قومها، ولهذا كان ﷺ من أبغض الناس إليها.

لكن الأمر سرعان ما تغير فإذا بالنبي ﷺ الذي كان من أبغض الناس إليها يصبح من أحب الناس إليها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف استطاع النبي ﷺ أن ينقل صفية من الكفر إلى الإيمان؟ ومن اليهودية - ومعروف تعصب اليهود لدينهم - إلى الإسلام؟ ومن امرأة كارهة له، وشديدة البغض لشخصه، إلى امرأة يصبح النبي ﷺ أحب إليها من أبيها وزوجها، والناس أجمعين.

بل أصبح أحب إليها من نفسها، وتفديه بكل ما تملك، وإذا ألمَّ به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليمًا معافًى.

اجتمع نساء النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله ﷺ.

---

(1) وقد قتل في غزوة خيبر لأنه قتل الصحابي الجليل محمود بن مسلمة، وانظر «المغازي» للواقدي (673/2).

فقال: «**مضمضن**».

فقلن: من أي شيء؟

فقال: «**من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة**»(1).

والجواب على هذا التساؤل: أن النبي ﷺ سلك في تعامله مع زوجه الطاهرة صفية مسلكين، استطاع بهما أن ينقلها من زوجة شديدة الكره والبغضاء له، إلى زوجة تفديه بنفسها وأهلها والناس أجمعين:

المسلك الأول: أنه ﷺ استعمل معها أسلوب الحوار والإقناع، يدل على ذلك قولها: «فما زال يعتذر إليَّ، ويقول: «**يا صفية، إن أباك ألب عليَّ العرب وفعل، وفعل**» حتى ذهب ذلك من نفسي».

إن أسلوبي الحوار والإقناع لهما الأثر الفعال في تغيير المفاهيم، وإعادة صياغة العقول، واستمالة النفوس، وتطييب القلوب.

لقد أوضح لها النبي ﷺ موقفه من أبيها وقومها، وعرض لها ما قام به والدها من جرائم، وما اقترف من آثار في حقه ﷺ، وحق المسلمين ولم يروا منه ﷺ منذ مقدمه المدينة إلا كل خير: أليس قد صان حقوقهم الدينية والمدنية؟ أليس قد أقام معهم العهود والمواثيق وسالمهم ولم يحاربهم، أراد ﷺ منهم أن يعيشوا معه - وهم أهل كتاب - ليكونوا يدًا واحدة على أهل الشرك وعبدة الأصنام، وأن يقيموا على معاقلهم الأولى التي بين الأوس والخزرج، وأن ينصروه، إذا ما تعرض للخطر.

---

(1) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (339/4): وسنده حسن.

فلماذا خانوا العهود؟ ولماذا نقضوا المواثيق؟

لقد قام والدها حيي بن أخطب بكثير من الجرائم.

ومنها على سبيل المثال:

1- محاولته اغتيال النبي ﷺ، وذلك عندما ذهب النبي ﷺ إلى بني النضير ليستعين بهم على دية رجلين من بني عامر قتلهما الصحابي الجليل عمرو بن أمية، ولم يكن يعلم أن لهما أمانًا وعهدًا من النبي ﷺ.

فقال حيي بن أخطب: يا معشر اليهود، قد جاءكم محمد في نفير من أصحابه لا يبلغون عشرة، فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، فلن تجدوا أخلى منه الساعة.

ولكن رسول الله ﷺ جاءه الخبر من السماء بما هموا به، فنهض سريعًا كأنه يريد حاجة، وتوجه إلى المدينة»[1].

وكانت هذه الخيانة سببًا من أسباب إجلائهم من المدينة إلى خيبر في غزوة عرفت بـ(غزوة بني النضير).

2- جريمته النكراء في غزوة الأحزاب:

وقد كان ممن حزب الأحزاب، وألب العرب من قريش وغطفان وبني سليم في تلك الغزوة[2]، التي كانت ثانية الغزوات الإسلامية في شدة

---

(1) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (190/2)، و«المغازي» للواقدي (363/1)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (57/2)، و«جوامع السيرة» لابن حزم ص 145، و«فتح الباري» لابن حجر (331/7)، و«السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم العمري (307/1).

(2) انظر «المغازي» للواقدي (441/2)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (214/2).

الأزمات، ونزول البلاء، وزلزلة الأقدام بعد غزوة أحد.

3- جريمته في غزوة بني قريظة:

وهو الذي أغرى قائد بني قريظة كعب بن أسد بنقض العهد مع رسول الله ﷺ والتعاون الكامل مع الأحزاب التي احتشدت من أنحاء الجزيرة لحرب محمد ﷺ والقضاء على المسلمين.

فكانت هذه الخيانة سببًا في مقتل عدد كبير من يهود ومنهم حيي بن أخطب نفسه[1].

وأما المسلك الثاني: فهو حسن تعامل النبي ﷺ مع صفية، ولطيف معاشرته لها.

كان لهذا المسلك عدة مظاهر أجملها فيما يأتي:

1- أحسن إليها لكونها بنت رجل له منزلته في قومه.

فوالدها حيي بن أخطب: كان سيد بني النضير من ذرية نبي الله هارون عليه السلام، ووصف بأنه: سيد الحاضر والبادي، وسيد الحيين كليهما - أي بني النضير، وبني قريظة - يحمهم في الحرب، ويطعمهم في المحل[2].

لقد كان والدها قائدًا من قادة بني النضير، ولكنه كان قائدًا مغرورًا، فأورد قومه موارد الهلاك، وكان حبرًا من أحبار اليهود، يعلم علم اليقين أن

---

(1) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (220/3)، و«المغازي» للواقدي (454/2)، و«أنساب الأشراف» (343/1) للبلاذري.

(2) «المغازي» للواقدي (519/2)، وممن وصفه بهذا الوصف أحد رجال يهود المسمى بـ «الزبير بن باطا».

محمدًا سول الله ﷺ، ولكنه كان حاسدًا حقودًا، وقد منعه حسده الشنيع وعدم إنصافه عن طلب السعادة لقومه، وهو يعرف طريقها.

2- لم يكرهها على الإسلام: فقد عرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام، فقال: «**إن تكوني على دينك لم نكرهك، فإن اخترت الله ورسوله اتخذتك لنفسي**»، قالت: بل أختار الله ورسوله[1].

3- أعتقها من العبودية:

4- ورضيها أن تكون زوجته، وهذا شرف ما بعده شرف؛ إذ نالت بهذا الاختيار لقب: أم المؤمنين، وأصبحت زوجة سيد المرسلين:

عن أنس بن مالك قال: سبى رسول الله ﷺ صفية فأعتقها، وتزوجها[2].

5- أكرمها بوليمة بعد أن تزوجها:

يدل على ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: «أقام النبي ﷺ بين خبير والمدينة ثلاث ليالٍ، ويُبنى عليه بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمة، وما كان فيها من خبز ولحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالًا بالأنطاع فبُسِطت فألقي عليها التمر والأَقِط والسمن»[3].

6- حسن معاملته لها، ورفقه بها:

عن أنس رضي الله عنه قال: «فرأيت رسول الله ﷺ يُحوِّي لصفية بنت حيي

(1) «المغازي» للواقدي (707/2).

(2) رواه البخاري (4201).

(3) رواه البخاري (4213).

وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»(1).

وتحدثنا صفية رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، فتقول:

ما رأيت أحدًا قطُّ أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجز ناقته ليلًا، فجعلت أنعس فتضرب رأسي مؤخرة الرحل فيمسني بيده، ويقول: «**يا هذه مهلًا**»(2).

7- دفاعه ﷺ عنها، وتفخيم شأنها، لكونها ذات شرف ونسب، وزجر من يؤذيها:

يدل على ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال:

بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ، وهي تبكي.

فقال: «**ما يبكيك؟**».

فقالت: قال لي حفصة: إني بنت يهودي.

فقال النبي ﷺ: «**إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفتخر عليك؟**»

ثم قال: «**اتقي الله يا حفصة**»(3).

---

(1) رواه البخاري (4211).

(2) «السيرة الحلبية» (750/2).

(3) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (20921)، ومن طريقه أحمد بن حنبل (12392)، والترمذي (3894)، وقال: حسن صحيح، وابن حبان (7211)، والحاكم (29/4)، والضياء في المختارة (1793)، وما بعده.

وفي رواية عن صفية بنت حيي، قالت: دخل عليَّ رسول الله، وقد بلغني عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له.

فقال: «**ألا قلت: فكيف تكونان خيرًا مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى**».

وكأن الذي بلغها أنهم قالوا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، وقالوا: نحن أزواج النبي ﷺ وبنات عمه[1].

****

(1) رواه الترمذي (3892)، قال: وفي الباب عن أنس، وهذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من رواية هاشم الكوفي، وليس إسناده بذاك، وأخرجه الحاكم (29/4).

حكمة زواجه ﷺ من صفية بنت حيي:

ولقد كان في هذا الزواج حكم كثيرة، وأحكام تشريعية وفيرة، ولا شك أن للإرادة الإلهية حكمة في هذا الزواج المبارك، وقد ظهر ذلك من خلال رؤيا رأتها، كانت بمثابة التمهيد لهذا الزواج، والتحضير له:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟

فقالت: كان رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: «**تمنين ملك يثرب!**»[1].

ولعل من أعظم حِكَم هذا الزواج، أن السيدة صفية نقلت لنا اعترافًا خطيرًا عن حبرين من أحبار يهود، وقائدين من أعظم قادتهم؛ وهما: أبوها حيي، وعمها أبو ياسر، هذا الاعتراف يؤكد صدق نبوة النبي ﷺ:

وإليك نص هذا الاعتراف الخطير:

عن صفية أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قطُّ مع ولد لهما إلا أخذاني دونه.

قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي، وعمي أبو ياسر بن أخطب مفلسين.

قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس.

---

(1) أخرجه البيهقي (138/9) بسند صحيح.

قالت: فأتيا كالَّين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني.

قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم.

قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟

قال: نعم والله.

قال: أتعرفه وتثبته؟

قال: نعم.

قال: فما في نفسك منه؟

قال: عداوته والله ما بقيت»[1].

***

(1) «السيرة النبوية» لابن هشام (518/1).

النموذج الثاني: أتباعه ﷺ أسلوب الحوار والإقناع مع السيدة عائشة رضي الله عنها:

عن عائشة أنها قالت - وهي تصف سفرًا -: وكان متاعي فيه خف، وكان على جمل ناج[1]، وكان متاع صفية فيه ثقل، وكان على جمل ثفال بطيء يتبطأ بالركب[2].

فقال رسول الله ﷺ: حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب.

قالت عائشة: فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله، غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله.

قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**يا أم عبد الله، إن متاعك كان فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل، فأبطأ بالركب، فحولنا متاعها على بعيرك، وحولنا متاعك على بعيرها**».

فقالت: ألست تزعم أنك رسول الله؟

قالت: فتبسم.

قال: «**أو في شك أنت يا أم عبد الله؟**»

قالت: قلت: ألست تزعم أنك رسول الله أفهلا عدلت؟

وسعني أبو بكر، وكان فيه غرب - أي حدَّة - فأقبل علي، فلطم وجهي.

فقال رسول الله ﷺ: «**مهلًا يا أبا بكر**».

---

(1) ناج: أي مسرع.

(2) ثفال: أي بطيء ثقيل لا ينبعث إلا كرهًا.

فقال: يا رسول الله: أما سمعت ما قالت؟

فقال رسول الله ﷺ: «**إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه**»[1].

وواضح من هذا الحديث كيف أن النبي ﷺ عالج هذه المشكلة عن طريق الحوار، وبيّن لها السبب الذي دعاه إلى أن يتخذ القرار المذكور.

****

(1) رواه أبو يعلي في «مسنده» (4670/8)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (322/4): رواه أبو يعلي، وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس، وسلمة بن الفضل، وقد وثقه جماعة: ابن معين وابن حبان، وأبو حاتم، وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقد رواه أبو الشيخ بن حيان في كتاب الأمثال، وليس فيه غير أسامة بن زيد الليثي وهو من رجال الصحيح، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات، وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (9/ 406): وسنده لا بأس به».

النموذج الثالث: أتباعه ﷺ أسلوب الحوار والإقناع مع السيدة عائشة رضي الله عنها أيضًا:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلًا.

قالت: فغرت عليه. فجاء فرأى ما أصنع.

فقال: «**مالك يا عائشة أغرت؟**».

فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟

فقال يا رسول الله ﷺ: «**أقد جاءك شيطانك؟**»

قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟

قال: «**نعم**».

قلت: ومع كل إنسان؟

قال: «**نعم**».

قالت: ومعك يا رسول الله؟

قال: «**نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**»[1].

وفي رواية ابن حبان: قالت: فقدت رسول الله ﷺ، وكان معي على فراشي، فوجدته ساجدًا، راصًّا عقبيه، مستقبلًا بأطراف أصابعه

---

(1) أخرجه أحمد (24845)، ومسلم (2815) (70)، واللفظ له، والنسائي مختصرًا في «الصغرى» (72/7)، وفي «السنن الكبرى» (8858).

وأخرجه مطولًا ابن خزيمة (654)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (111)، والحاكم (228/1)، وغيرهم.

للقبلة..»[1].

«فسمعته يقول: «**اللهم، إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[2].

***

المبحث الرابع

أسلوب العظة والتذكير

ومن الأساليب التي استعملها النبي ﷺ في معالجة الخلافات الزوجية أسلوب

(1) رواه ابن حبان (1933).

(2) رواه ابن حبان (1932).

العظة والتذكير.

ويستعمل هذا الأسلوب في حال تقصير المرأة في أداء حق الله عليها، أو في أداء حقوق الزوج التي أوجبها الشرع له عليها.

وحق الله عليها هو فعل ما أمرها به، وترك ما نهاها عنه، وقد أمر الله تعالى المسلم بوقاية أهله من النار، ويدخل في هذا الأمر قطعًا الزوجة؛ لأن زوجته من أهله، وإنما تكون الوقاية بحملها على طاعة الله تعالى، واجتناب ما نهى عنه بالعظة والنصيحة والتذكير والتخويف والترغيب والترهيب، وإلا فـ«بوسائل» التأديب الأخرى المشروعة؛ كالهجر مثلًا.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: 6].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته...، والرجل راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيته...**»[1].

ومن نماذج وعظه ﷺ لأهله ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا؛ تعني: قصيرة.

فقال: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**».

قالت: وحكيت له إنسانًا - أي بأن أفعل مثل فعله، أو أقول مثل قوله على وجه التنقيص.

---

(1) رواه البخاري (893).

فقال: «**ما أحب أني حكيت إنسانًا، وأن لي كذا وكذا**»[1].

إن الكلمة كائن حي عند الإنسان الواعي الذي فقد وجوده في هذه الحياة، وفهم أبعاد علاقته مع خالقه ونفسه ومجتمعه.

ولذلك فقد أولى النبي ﷺ الكلمة اهتمامًا بالغًا، فهو لا يفتأ يذكر الأمة بآثارها، وينبه العقول إلى أبعادها.

لقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: «حسبك من صفية كذا وكذا»، وهي تحسب أنها قالت كلمة ليس لها ذلك الأثر الكبير في ميزان الأعمال عند الله.

فوعظها النبي ﷺ وذكَّرها وخوفها من عواقب هذه الكلمة التي نطقت بها بقوله: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»؛ أي: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها.

إن في هذا الحديث ترهيبًا شديدًا لكل من تسول له نفسه فيلقي بالكلمة وهي مخالفة لمنهج الله غير عابئ بها، ولا متفكر بمسؤوليته تجاهها.

ولو أن الزوجة ألقت لكل كلمة تقولها بالًا، وحسبت لها حسابًا فلم تنطقها إلا بعد تفكير عميق لما تحدد من مواقف، وتكشف عن مسئوليات لتجنبتها أشد الاجتناب.

---

(1) أخرجه أحمد (24964)، (25560)، وأبو داود (4875)، والترمذي (2502)، وقال: حديث حسن صحيح.

إنَّ الزوجة المسلمة مطالبة بالأخذ بهذا التوجيه النبوي، والاهتمام كل الاهتمام بالمحافظة على لسانها؛ لأنها مسؤولة عن كل كلمة تنطق بها، أليس قد قال عليه الصلاة والسلام: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم**»[1].

ومن نماذج أسلوب العظة والتذكير في المنهج النبوي عند وقوع الخلاف ما كان يفعله ﷺ مع زوجه الصديقة عائشة رضي الله عنها، بأن يضع يده على أنفها ويعلمها أن تلجأ إلى الله بالدعاء ليذهب غيظ قلبها، ويجيرها من الشيطان، ويعيذها من مضلات الفتن.

ولا شك أن الالتجاء إلى الله له أثر كبير في طمأنينة القلب، وهدوء البال، وإليك نص الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ، وأنا غضبي، فأخذ بطرف المفصل من أنفي، فعركه، ثم قال:

«**يا عويش، قولي: اللهم اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من الشيطان**»[2].

وفي رواية: كانت عائشة رضي الله عنها إذا غضبت عرك النبي ﷺ بأنفها ثم يقول: «**يا عويش، قولي: اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب**

---

(1) رواه البخاري (6478).

(2) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (623).

وقال الحافظ العراقي في «تخريج إحياء علوم الدين» (386/1): سنده ضعيف.

قلت: لأن فيه مسلمة بن علي الخشني وهو ضعيف. انظر ترجمته في تهذيب الكمال (67/27).

غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن»[1].

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ إذا غضب على عائشة وضع يده على منكبها، فقال: «**اللهم اغفر لها ذنبها، وأذهب غيظ قلبها، وأعذها من مضلات الفتن»**[2].

ومن المعلوم أن الوعظ من الأساليب القرآنية التي أرشد الحق تبارك وتعالى الزوج إلى تطبيقه عند الخوف من نشوز الزوجة وعصيانها، فلا بأس أن أستعرض ما قاله العلماء عن هذا الأسلوب التربوي في معالجة المشكلات، وسأذكر هنا ما كتبه العلماء عن الوعظ الوارد في قوله تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

قال الإمام القرطبي: «أي فعظوهن بكتاب الله تعالى: أي ذكروهن ما أوجب الله عليهن من حسن الصحبة، وجميل العشرة للزوج والاعتراف بالدرجة التي له عليها، ويذكرها أيضًا بقول النبي ﷺ: «**لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**[3].

---

(1) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (456)، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر مرسلًا.

(2) أخرجه ابن عساكر في كتاب «الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» ص 143، وفي بقية بن الوليد وصف التدليس وقد عنعن.

قلت: لكن الحديث بهذه المتابعات يتقوى، والمرفوع منه له شاهد من حديث أم سلمة أخرجه أحمد (26576) ونصه:

«قلت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «**بلى، قولي: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتنا**»»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: إسناده حسن.

(3) الجامع لأحكام القرآن (171/5).

وقال الإمام الجصَّاص: في معنى ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ : يعني خوفوهن بالله وعقابه»[1].وقال الإمام الرازي: «قال الشافعي: أما الوعظ فإنه يقول لها: اتقي الله، فإن لي عليك حقًّا، وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك»[2].

– وفي «تفسير الآلوسي»: ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ أي فانصحوهن وقولوا لهن: اتقين الله وارجعن عما أنتن عليه، وظاهر الآية ترتب هذا على خوف النشوز، وإن لم يقع وإلا لقيل: نشزن»[3].

– وفي «تفسير المنار»: في «معني ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ : إذا آنس الزوج من زوجته ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية، فعليه أولًا أن يبدأ بالوعظ الذي يرى أنه يؤثر في نفسها. والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة، فمنهن من يؤثر في نفسها التخويف من الله – عز وجل – وعقابه على النشوز، ومنهن مَن يؤثر في نفسها التهديد والتحذير من سوء العاقبة في الدنيا، كشماتة الأعداء، والمنع من بعض الرغائب كالثياب الحسنة والحلي، والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر في قلب امرأته»[4].

وقال ابن قدامة الحنبلي: «فمتى ظهرت منها – من الزوجة – أمارات النشوز، فإنه يعظها فيخوفها الله سبحانه وتعالى، ويذكرها ما أوجب الله له

(1) أحكام القرآن (189/2).
(2) تفسير الرازي (90/10).
(3) 24/5.
(4) 72/5.

عليها من الحق والطاعة، وما يلحقها من الإثم بالمخالفة والمعصية، وما يسقط بذلك من حقوقها من النفقة والكسوة، وما يباح له من ضربها وهجرها»[1].

القول الراجح في وعظ الزوج زوجته[2]:

«والواقع أن الوعظ يجب أن يكون بالموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]، والموعظة الحسنة هي التي لا يخفى على من تعظه بأنك تناصحه بها وتقصد ما ينفعه فيها.

وعلى هذا يجب على الزوج أن يشعر زوجته في وعظه إياها أنه يريد الخير لها، ويقيها الضرر والشر بسبب تقصيرها فيما أوجبه الله له عليها من حقوق.

فيذكرها بمعاني الإيمان التي تستلزم طاعة بامتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه، ومن ذلك ما أوجبه الله عليها من حقوق لزوجها، فلا يجوز التفريط فيها، لما يترتب على ذلك مما يسؤوها في الدنيا والآخرة. كما أن الموعظة الحسنة يجب أن تثير عواطفها وأحاسيسها نحو زوجها شريك حياتها، وأنه لا يليق بها أن يصدر منها ما يزعجه ولا يسّره، وأن العشرة بالمعروف هي شأن الزوجات القانتات الحافظات للغيب، وليس كثيرًا عليها أن تكون واحدة منهن.

ثم ينبغي أن يكون وعظ الزوج زوجته سرًّا فيما بينه وبينها لا بحضور أهلها ولا بحضور أهله، حتى لا يحصل تدخل من الغير فيما يخصهما، فينتصر هذا

(1) «المغني» 46/7.

(2) « المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم» للدكتور عبد الكريم زيدان 313/7 - 314.

الغير لأحدهما دون الآخر، والأمر لم يبلغ بعد إلى حد بعث الحكمين لفض النزاع والشقاق.

ثم يجب أن يكون وعظ الزوج هينًا لينًا رقيقًا خاليًا من التعنيف والغلظة والشدة وروح الاستعلاء، مفعمًا بالحب وإرادة الخير لها، وإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية السليمة التي ترضي الله.

كما على الزوج أن يذكِّر بحق الأولاد - إن كان لهم أو لا — بأن لا يظهروا أمامهم بمظهر المختلفين المتنازعين.

كما عليه أن يذكرها بأن نشوزها وما يتبع ذلك من نفرة وخلاف سيفرح له الأعداء والكارهون لها، فلتفوت عليهم مقصدهم وما يريدون.

وعلى كل حال فالوعظ المؤثر متروك لفطنة الزوج وحسن سياسته مع زوجته وعدم جرح شعورها بإظهار العنف والتسلط عليها.

وعلى هذا، فما ذكره المفسرون والفقهاء في المراد من ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ مراد كله من الوعظ المطلوب، وإن قال كل واحد منهم , ما رآه كافيًا للتنبيه إلى المعاني الأخرى المرادة من الوعظ».

***

المبحث الخامس

أسلوب العتاب الشديد عند الغضب

ومن الأساليب التي استعملها رسول الله ﷺ في معالجة الخلافات الزوجية أسلوب العتاب في موقف لا ينبغي أن يمر دونما حساب.

لقد أراد النبي ﷺ من وراء ذلك أن يضع حدًّا لمشكلة طالما كررت، والحيلولة دون وقوعها مرة ثانية في بيته الكريم، وإليك بيان ذلك:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها، فذكرها يومًا، فحملتني الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن!

قالت: فرأيته غضب غضبًا شديدًا، أُسْقطت في خلدي، وقلت في نفسي: اللهم إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء ما بقيت.

فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت، قال: «**كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كذبني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقت مني الولد إذ حرمتموه مني**».

قالت: فغدا وراح عليَّ بها شهرًا»[1].

(1) حديث حسن.

أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» 21/23. ورجاله ثقات سوى عبد الله البهي فقد قال عنه ابن سعد في «الطبقات» 299/6: كان ثقة معروفًا قليل الحديث، ووثقه ابن حبان، بينما قال عنه أبو حاتم: لا يحتج بالبهي، وهو مضطرب الحديث. وانظر «تهذيب

=

في هذا الحديث نجد أن النبي ﷺ غضب غضبًا شديدًا من زوجه السيدة عائشة لأنها تعرضت لامرأة لها منزلتها في الإسلام، ولها قدرها عند النبي عليه الصلاة والسلام.

إنها السيدة خديجة: سيدة نساء العالمين في زمانها، وهي أول من آمن به، وصدقه قبل كل أحد، وثبتت جأشه.

قال ابن الأثير: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين[1] لكن النبي ﷺ لم يكتف بموقفه الغاضب، بل شرع يبين لها أسباب حبه للسيدة خديجة، وثنائه عليها، فقال: «**والله لقد آمنت بي إذ كذبني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقت مني الولد إذ حرمتموه مني**».

وهي صفات عظيمة اتصفت بها هذه السيدة الجليلة.

ولهذا كان النبي ﷺ شديد الحب لها، عظيم الوفاء معها حتى بعد وفاتها، ومن مظاهر هذا الوفاء أنه «كان ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**..»[2].

= ______

الكمال» للمزي 342/16 وقد حسن هذا الحديث الهيثمي في «مجمع الزوائد» 224/9، والشامي في «سبل الهدى والرشاد» 158/11، والشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «سير أعلام النبلاء» 112/2، وقال: وفي «المسند» (24864) من طريق مجالد، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة خبر قريب من هذا. وحسنه كذلك في تعليقه على «المسند».

أصل الحديث مروي في صحيحي البخاري ومسلم، وقد تقدم تخريجه في «المبحث الثاني من القسم الأول» تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الإنساني».

(1) «أسد الغابة» (78/7).

(2) رواه مسلم (2435).

وهو ﷺ لم يكتف بهذا الموقف الغاضب مع بيان أسبابه، بل اتخذ أسلوب العتاب المتكرر، فقد ظل يعاتبها على ما بدر منها شهرًا كاملًا: «فغدا وراح عليَّ بها شهرًا».

حتى تعلم جيدًا بأن ما بدر منها ما ينبغي أن يمر دونما حساب ولا عتاب.

ولا شك أن النبي ﷺ أراد بأسلوبه المذكور أن يضع حدًّا لمشكلة طالما كررت، حتى لا تكرره مرة ثانية في بيته الكريم.

وقد حقق هذا الأسلوب أهدافه، يدل على ذلك قول السيدة عائشة: وقلت والذي بعثك بالحق لا أذكرها بعد هذا إلا بخير»[1].

قال الشاعر[2]:

إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ ويبقى الودُّ ما بقي العتابُ

****

(1) حديث حسن، فقد رواه الطبراني في «المعجم الكبير» 33/23 من طريق عبد الله بن أبي نجيح عن عائشة. ورجاله ثقات، وابن أبي نجيح لم يسمع من عائشة. لكن له متابعات يتقوى بها الحديث، منها ما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» 14/23 من طريق مبارك بن فضالة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: وفيه: «قلت: يا رسول الله اعف عني عفا الله عنك , والله لا تسمعني أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه» . ومنها : رواية مجالد، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة: وفيها قلت: والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم»، كما في «سير أعلام النبلاء» 117/2.

(2) ينسب هذا البيت لأبي تمام، ولم أجده في ديوانه المطبوع.

المبحث السادس

أسلوب التروي والتثبت والتحقيق قبل إصدار الأحكام

ومن الأساليب التي استعملها رسول الله ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية: أسلوب التروي والتثبت، والتحقيق في المشكلة، والتحقق منها قبل إصدار أي حكم فيها.

وإذا كان هذا الأسلوب نافعًا في كل الخلافات التي تعرض، والمشكلات التي تقع ضمن إطار الأسرة، فإنه لا شك يكون أنفع وأهم في تلك المشكلات التي لها مساس بالأعراض.

ولهذا فقد تناولت في هذا المبحث بالدرس والتحليل حادثة من أخطر الحوادث التي تعرض لها بيت النبوة، وكانت تمس الحياة الخاصة للنبي ﷺ من قِبَل المنافقين.

وهي: **حادثة الإفك**: تلك المحنة – محنة الإفك والبهتان – التي عرضت للسيدة الطاهرة عائشة رضي الله عنها.

وسلطت الضوء على أسلوبه ﷺ في معالجة هذه المشكلة، فقد عالجها ﷺ بأسلوب التروي والتثبت والتحقيق الهادئ فيها.

وتوضيح هذا الجانب غاية في الأهمية إذ إنه يعالج الأخطاء الشائعة في بعض الأوساط الإسلامية في تعاملهم مع هذا الموضوع الحساس في حياتهم الزوجية.

حادثة الإفك: نموذجًا

تمهيد:

قبل الكلام عن هذه الحادثة لابد لي من بيان أسباب هذا الإفك المفترى على السيدة الصديقة عائشة رضي الله عنها من قِبل المنافقين، وبعض من غفل من المسلمين.

ولعل الدارس لهذه الحادثة الأليمة لا يجد لها من سبب سوى الحقد على الإسلام، وليس لها من غاية سوى النيل من رسول الله ﷺ وتفريق الناس عنه وبيان ذلك:

أن النبي ﷺ خرج من معركة الأحزاب منتصرًا، وكان ذلك في نهاية السنة الخامسة من الهجرة، وانتقل بذلك من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم يدل على ذلك قوله ﷺ بعد هذه المعركة: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[1].

وواضح من هذه الكلمات أن النبي ﷺ اتخذ خُطَةً جديدة في معركته مع أعدائه.

قال علماء السيرة: بعد قريظة تفرغ رسولُ الله ﷺ لمعاقبة من أبدى حربه، واعتدى على المسلمين.

وكان من هذه المعارك التي خاضها النبي ﷺ، وخرج منها منتصرًا «غزوة

---

(1) رواه البخاري (4110).

المصطلق» التي كانت ردًّا على الاعتداء الذي وقع منهم يوم أحد؛ حيث ساندوا جيش مشركي قريش آنذاك.

فما إن رأى المنافقون هذا الانتصار الكبير - وقد خرج في هذه الغزوة جمع كبير منهم[1] - إلا وبدأوا يخططون، ويكيدون لينالوا من هذا الانتصار، وينتقموا من صاحبه عليه أفضل الصلاة والسلام.

فكان من مكايدهم ذلك الإفك الذي رموا به السيدة عائشة في طريق عودتهم من تلك الغزوة لهلال رمضان من سنة ست للهجرة.

وإذا كانت المعارك الحربية لها أثرها الواضح في حياة الأمم والشعوب ولها خطرها على حاضرهم ومستقبلهم، فإن المعارك الإعلامية والنفسية لا تقل خطورة عنها.. «ولعل حادثة الإفك كانت معركة من أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ ولكنه خرج منها منتصرًا، ولعل الآلام التي سببتها له تلك المحنة كانت من أعظم الآلام التي مرت به، ولعل الخطر على الإسلام من تلك الفرية كان من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه»[2]، ولكن بحسب ما كان فيها من آلام ومخاطر وجروح وشرور ,كان فيها خير «كثير» للمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم، وصدق الله عندما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ .وقد كشف البحث عن بعض وجوه الخيرية في هذه الحادثة، وذلك من خلال عشرين درسًا تم استنباطها من ثنايا هذا الحدث الجلل.

---

(1) «المغازي» للواقدي 405/1.

(2) «في ظلال القرآن» 2501/4 بتصرف.

ولهذا سوف أتناول هذه الحادثة بشيء من التفصيل، وسأجعل ذلك في أربع فقرات، وهي:

أولاً: الآيات الواردة في حادثة الإفك مع تفسيرها.

ثانيًا: حادثة الإفك في الحديث النبوي الشريف، مع التخريج والتحليل.

ثالثًا: تحديد زمن وقوعها.

رابعًا: الدروس المستفادة من حادثة الإفك.

***

أولاً :الآيات الواردة في حادثة الإفك، مع تفسير إجمالي لها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ * الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

التفسير الإجمالي لها:

1- إن الذين جاءوا بالإفك: «أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفاجأك»[2]، والإفك: حديث اختلقه المنافقون، وراج عند المنافقين، ونفرٍ من المسلمين.

- **عصبة**: جماعة، «وأصل العصبة: الفرقة المتعصبة قَلَّت أو كثرت، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين.

- **منكم**: من أهل ملَّتكم، وممن ينتمون إلى الإسلام سواء كان كذلك في نفس الأمر أم لا.

---

(1) سورة النور الآيات (11 - 26) ورد في حادثة الإفك ست عشرة آية، وهو المثبت في المصحف الشريف.

وجاء عن الحكم بن عتيبة: أنها خمس عشرة آية، وعن سعيد بن جبير أنها ثماني عشرة آية.

قال الآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» (170/20): وكأن الخلاف مبني على الخلاف في رءوس الآي.

(2) اعتمدت في تفسير هذه الآيات على كتاب «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» لأبي السعود العمادي (160/6)، فما قوسته فهو مأخوذ منه، وما أخذته من غيره أوضحت مصدري فيه.

فيشمل عبد الله بن أبيّ ممن ينتمون إلى الإسلام ظاهرًا وإن كان كافرًا في نفس الأمر لنفاقه»[1].

– **بل هو خير لكم**: «بل هو خير عظيم لكم لنيلكم بالصبر عليه الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله عز وجل بتنزيل ما فيه تعظيم شأنكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم بما أحزنكم».

– **لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم**: أي جزاء ما اكتسب، «وذلك بقدر ما خاض فيه».

– **والذي تولى كبره منهم**: «أي قام بعظمه وإشاعته بعد ابتدائه بالخوض فيه، وهو رأس المنافقين عبد الله بن أبي لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلًا إلى الغميزة»[2].

– **له عذاب عظيم**: وعذابه في الآخرة بعد جعله في الدرك الأسفل من النار لا يقدر قدره إلا الله عز وجل، وأما في الدنيا: فوسمه بميسم الذل وإظهار نفاقه على رؤوس الأشهاد.

2- ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾.

– **لولا**: بمعنى هلا، «ومعنى الآية: أي كان الواجب على المؤمنين والمؤمنات أن يظنوا – أول ما سمعوا ذلك الإفك ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم وتردد – بأهل ملتهم من آحاد المؤمنين والمؤمنات خيرًا»[3].

---

(1) «روح المعاني» 10/168، 169، 170.

(2) «الكشاف» للزمخشري 3/221.

(3) «روح المعاني» 10/174.

- «**وقالوا هذا إفك مبين**: أي ظاهر مكشوف كونه إفكًا، فكيف بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.- وفي هذه الآية: تلوين للخطاب، وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات، لتشديد ما في لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، لتأكيد التوبيخ والتشنيع..».

3- ﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾؛ أي: «هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا».

4- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

- **في الدنيا**: «أي بفنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة».- **والآخرة**: «بضروب الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة». - **لمسكم فيما أفضتم فيه**: «أي بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك».

5- ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾؛ «أي: لمسَّكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم ما خضتم فيه من الإفك، وأخذ بعضكم إياه من بعض، والسؤال عنه.

- والتلقي، والتلقف، والتلقن متقاربة المعاني إلا أن في التلقي: معنى الاستقبال»[1].- **وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم**: «أي: تقولون قولًا مختصًا بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب»، وقيل: يجوز أن

(1) «روح المعاني» 176/10.

يكون قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ توبيخًا كقولك: أتقول ذلك بملء فيك[1]!.

– **وتحسبوه هينًا**: أي سهلًا لا تبعة فيه.

6- ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾. – **بهتان**: أي كذب يبهت ويحير سامعه لفظاعته، عظيم: لا يقدر قدره لعظمة المبهوت عليه، والظاهر أن التوبيخ المذكور في هذه الآية هو للسامعين الخائضين لا للسامعين مطلقًا[2].وهذه الآية: سيقت للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب، وكان الشأن أن يقول القائل في نفسه: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، ويقول ذلك لمن يجالسه ويسمعه منه[3].

7- ﴿يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ يعظكم: «ينصحكم».

8- ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: «يبين الله لكم الآيات الدالة على الشرائع، ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها». 9- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(1) انظر «محاسن التأويل» للقاسمي 4463/12.
(2) «روح المعاني» للألوسي 178/10.
(3) «التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر بن عاشور 180/9.

﴿... فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

– **يحبون**: «أي يريدون ويقصدون.

– **أن تشيع الفاحشة**: أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهي الفرية والرمي بالزنا، أو الزنا نفسه.– **فالمراد بشيوعها**: شيوع خبرها أي يحبون شيوعها. هذا على تفسير أن يراد بالمحبة نفسها من غير أن يقارنها التصدي للإشاعة، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم، فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيهًا على أن عذاب من يباشر الإشاعة، ويتولاها أشد وأعظم».

10- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، «وفي هذه الآية تكرير للمنة بترك المعالجة بالعقاب، للدلالة على عظم الجريمة، وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة وهو: «لمسكم»[1].«ذلك لأن الحدث لعَظيم، وإن الخطأ لجَسيم، ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته ذلك ما وقاهم السوء، ومن ثم يذكر به المرة بعد المرة، وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين»[2].

11- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾:

– **لا تتبعوا خطوات الشيطان**: «أي لا تسلكوا مسالكه في كل ما تأتون، وما تذرون من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة وحبها.

(1) «محاسن التأويل» (149/12).

(2) «الظلال» (2504/4) بتصرف.

- **والفحشاء**: ما أفرط قبحه كالفاحشة.

- **والمنكر**: ما ينكره الشرع».

«وصور لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان، وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم، وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا منه، وأن يسلكوا طريقًا غير طريقة المشؤوم، ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية، وما حديث الإفك إلا نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه، وهو نموذج منفر شنيع»[1].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾:

- **ما زكا**: «أي: ما طهر».

«إن الإنسان لضَعيف، معرض للنزعات، عرضة للتلوث إلا أن يدركه فضل الله ورحمته حين يتجه إليه، ويسير على نهجه ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر، والله يسمع ويعلم فيزكي من يستحق التزكية، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾»[2].

12- ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى ﴾:

- **ولا يأتل**: «أي لا يحلف. أولو الفضل منكم: في الدين، وكفى بهذا

---

(1) المصدر السابق (2504/4) بتصرف.

(2) المصدر السابق (2405/4) بتصرف.

اللفظ دليلًا على فضل الصديق ﷺ».

نزلت هذه الآية في أبي بكر ﷺ بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة، وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاض فيه، وهو قريبة، ومن فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر ينفق عليه فآلى على نفسه ألا ينفق عليه حتى بعد توبته.

فلما قرأ الرسول ﷺ هذه الآية قال أبو بكر: بلى أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح وأهله ما كان ينفق عليهم[1].

«وفي هذا الموقف نطلع على أفقٍ عالٍ من آفاق النفوس الزكية التي تطهرت بنور الله فإن أبا بكر الصديق ﷺ الذي مسه الإفك في أعماق قلبه، واحتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه فما أن يسمع دعوة ربه إلى العفو إلا يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق..»[2].

13- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

14- ﴿يَومَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.- **المحصنات**: «أي العفائف مما رمين به، **الغافلات**: عن الفاحشة بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلًا.

- **المؤمنات**: أي المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها إيمانًا حقيقيًّا تفصيليًّا».

(1) سيأتي تخريجه عند الكلام عن حديث عائشة.

(2) «الظلال» (1505/4) بتصرف.

«إن الغفران الذي ذكر الله به المؤمنين في الآية السابقة إنما هو لمن تاب، فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث وإصرار كأمثال ابن أُبَيّ فلا سماحة ولا عفو، ولو أفلتوا من الحد في الدنيا؛ لأن الشهود لم يشهدوا، فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود، إذ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون...»[1].قال الألوسي رحمه الله:«إن الحكم عام؛ أي: في هذه الآية فيمن يرمي الموصوفات بالصفات المذكورة من نساء الأمة، ورميهن إن كان مع استحلال فهو كفر فيستحق الوعيد المذكور إن لم يتب على ما علم من القواعد، وإن كان بدون استحلال فهو كبيرة وليس بكفر، أما بالنسبة لأمهات المؤمنين فالذي ينبغي أن يعول الحكم عليه بكفر من رمى إحداهن بعد نزول الآيات، وتبين أنهن طيبات...»[2]. «وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر؛ لأن لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات فهم ينطقون بالقذف، ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف»[3]. 15- ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾:«أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم الثابت الذي يحقق أن يثبت لهم لا محالة وافيًا كاملًا..». – **ويعلمون**:«عند معاينتهم الأهوال والخطوب حسبما نطق به القرآن».– **أن الله هو الحق**:«الثابت الذي يحق أن يثبت لا محالة في ذاته وصفاته،

---

(1) المصدر السابق (2505/4) بتصرف.

(2) «روح المعاني» 188/10.

(3) «التحرير والتنوير» (191/19).

وأفعاله التي من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشؤون التي يشاهدونها منطبقة عليها».- **المبين**: «المظهر للأشياء كما هي في أنفسها».

16- ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.«بعد أن برأ الله عائشة رضي الله عنها مما قال عصبة الإفك ففضحهم بأنهم ما جاؤوا إلا بسيئ الظن، واختلاف القذف، وتوعدهم وهددهم، ثم تاب على الذين تابوا، أنحى عليهم ثانية ببراءة رسول الله ﷺ من أن تكون له أزواج خبيثات؛ لأن عصمته وكرامته على الله يأبى الله معها أن تكون أزواجه غير طيبات، فمكانة الرسول ﷺ كافية في الدلالة على براءة زوجه وطهارة أزواجه كلهن»[1].- «وفي هذه الآية إشارة إلى ما يؤكد التبرئة من شاهد العرف والعادة، في أنه لا يضم الشكل إلا إلى شكله، ولا يساق الأهل إلا إلى أهله»[2]، «وهذا من عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة، وحققه في واقع الناس»[3].قال أبو السعود العمادي رحمه الله: «وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين، وخيرة الأولين والآخرين تبين كون الصديقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح بطلان ما قيل في حقها من الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾»[4].

(1) «التحرير والتنوير» (194/19).
(2) «محاسن التأويل» (151/12).
(3) «الظلال» (2505/4).
(4) «إرشاد العقل السليم» (167/6).

ثانيًا: حادثة الإفك في الحديث النبوي الشريف مع التخريج والتحليل:

وردت حادثة الإفك في عدد كبير من كتب السنة النبوية: في المصنفات والمسانيد، والجوامع والصحاح، والمعاجم، والسنن، وكتب التفاسير، وكتب السيرة النبوية، وقد قمت بتخريجها من هذه الكتب متبعًا في ذلك طرائق المحدثين في تخريجهم للحديث، وسأذكر بعد إيراد الحديث طرقه ومواضعه من هذه الكتب. وكانت طريقتي في إيراد الحديث أنني اعتمدت رواية «مسند» الإمام أحمد ابن حنبل والبخاري ومسلم، وما كان من زيادات في المتون قمت بإثباتها في الحاشية، مع ذكر تخريج هذه الزيادة، ولم أثبت من هذه الزيادات إلا ما كان له فائدة في كشف ملامح هذه الحادثة.

وما كان من تعارض بين هذه الروايات حاولت الجمع ما أمكن، وإلا فالترجيح حسب طرائق العلماء في ذلك، كما فسرت المفردات الغريبة الواردة في المتن، معتمدًا في ذلك على شروح كتب الحديث، ومن أهمها في ذلك كتاب «فتح الباري» للحافظ ابن حجر رحمه الله.

وهذا نص الحديث:

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع

رسول الله ﷺ[1]، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل[2]، ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى الرحل فلمست صدري، فإذا عقد من جزع ظفار[3]، قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فاحتبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي[4]، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي أركب، وهم يحسبون أني فيه. قالت: وكانت النساء؛ إذ ذاك خفافًا، لم يُهَبِّلْهُنَّ[5]، ولم يَغْشَهُنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلْقَةَ – أي القليل – من الطعام، فلم يستنكر القوم ثِقَل[6] الهَوْدج حين رَحَلُوهُ ورفعوه، وكنت

(1) في رواية عباد بن عبد الله بن الزبير عند الواقدي (427/2): فخرجنا فغنمه الله أموالهم وأنفسهم ثم انصرفنا راجعين».

(2) أي رجع من غزوته.

(3) ظفار كذا في رواية معمر عند مسلم (2770)، والطبري في التفسير (119/10)، والطبراني في «معجم الكبير» (133/23)، وهي كذلك في رواية صالح بن كيسان عن الزهري عند البخاري في الصحيح رقم (4141)، وفي رواية الواقدي: فكان في عنقي عقد من جزع ظفار كانت أمي أدخلتني به على رسول الله ﷺ، وظفار مدينة كبيرة تقع في سلطنة عُمَان.

(4) وفي رواية ابن إسحاق: فرجعت عودي على بدئي إلى المكان الذي ذهبت إليه.

(5) أي لم يثقلهن اللحم، من هبله اللحم: إذا كنز عليه، وركب بعضه بعضًا. وجاء في رواية: لم يهبلن, المهبل: الكثير اللحم، الثقيل الحركة للسمن.

(6) كذا في الأصول: ثقل الهودج، وهي رواية معمر، ورواية البخاري عن يونس، عن الزهري: خفة الهودج، وهي أوضح، قال الحافظ: لأن مرادها إقامة عذرهم في تحميل هودجها، وهي ليست فيه، فكأنها تقول: كأنها لخفة جسمها بحيث إن الذين

=

جارية حديثةَ السن[1]، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب[2]، فيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعوا[3] إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعَطَّل السُّلَمي - ثم الذكواني[4] قد عَرَّسَ[5] من وراء الجيش فادَّلج[6]، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن

=

يحملون هودجها لا فرق عندهم بين وجودها فيه وعدمها... وانظر توجيه الرواية الأولى في «الفتح» (466/10).

والهودج: محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، يوضع على ظهر البعير، يركب عليه النساء ليكون أستر لهن كما في «فتح الباري» (463/10).

(1) أي لم تكمل خمس عشرة سنة لأنها أدخلت على النبي ﷺ بعد الهجرة في شوال، ولها تسع سنين، ووقعت غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست من الهجرة كما هو الراجح مما سيأتي بيانه.

(2) أي ليس بها أحد، لا من يدعو، ولا من يرد جوابًا.

(3) كذا الأصل بحذف النون والوجه إثباتها، وقد قال الحافظ في «الفتح» (468/10) تعليقًا على رواية البخاري فيرجعون إليَّ: وقع في رواية معمر فيرجعوا، بغير النون، وكأنه على لغة من يحذفها مطلقًا.

(4) من أصحاب الرسول ﷺ الأجلاء، شهد الخندق والمشاهد بعدها، وكان شجاعًا خيرًا فاضلًا قتل شهيدًا في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة من الهجرة، وانظر «أسد الغابة» لابن الأثير (412/2).

(5) قد عرس، من التعريس، أي: نزل آخر الليل.

(6) فادَّلج: أي مشى آخر الليل بعد أن نزل، ووقع في حديث أبي هريرة عند البزار كما في «الدر المنثور»: (146/6): وكان صفوان يتخلف عن الناس فيصيب القدح والجراب والإداوة». وفي رواية: فيحمله فيقدم به فيعرفه في أصحابه.

يُضْرَبَ علي الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخَمَّرتُ وجهي بجلبابي فوالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[1] في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول[2].

---

(1) وقع في رواية مسلم (2770) (57): قال عبد بن حميد: قلت لعبد الرزاق: ما قوله موغرين؟ قال: الوغرة: شدة الحر.

(2) زاد في رواية صالح بن كيسان عن الزهري في صحيح البخاري (4141): «قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه، ومعنى يستوشيه؛ أي: يستخرجه بالبحث عنه والتفتيش – قال عروة أيضًا: لم يسم من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى، وإن كبر ذلك يقال: عبد الله بن أبي ابن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منهم وقاء

أما ما جاء في رواية أخرى أخرجها البخاري (4756): ونصها: عن مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبب – أي أنشد شعرًا – وقال:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبِح غرثي من لحوم النوافل

قالت: لستَ كذلك، قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله «والذي تولى كبره منهم» فقالت: وأي عذاب أشد من العمى، وقالت: وقد كان يرد عن رسول الله ﷺ.

فقد قال الحافظ ابن حجر عن هذه الرواية في «الفتح» (505/10): وهذا مشكل، لأن ظاهره أن المراد بقوله: «والذي تولى كبره منهم» هو حسان بن ثابت، وقد تقدم قبل هذا – يعني الحديث الذي رواه البخاري رقم (4750) – أنه عبد الله بن أُبَيّ، وهو المعتمد.

شرح البيت: حصان: من التحصين يراد به الامتناع على الرجال، ومن نظرهم إليها،

=

فقدمت المدينة، فاشتكيت حين قدمنا شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك[1]، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ ثم يقول: «**كيف تيكم؟**»، فذاك يريبني، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نَقَهْتُ[2]، وخرجت معي أمُّ مِسْطَح قِبَلَ المناصع[3]، وهو متبرزنا[4]،ولا نخرج إلا ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُفَ[5] قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه[6]، وكنا نتأذى بالكُنُفِ أن نتخذها عند بيوتنا.وانطلقتُ أنا وأمُّ مِسْطَح - وهي بنت أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عبَّاد بن المطلب وأقبلت أنا وبنت أبي رُهْم قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا[7]، فعثرت أمُّ

= ________________

رزان: من الرزانة وهي قلة الحركة، ما تزن: أي ما ترمى، غرثي: أي خميصة البطن ويعني هنا: أنها لا تغتاب أحدًا من الغافلات العفيفات.

(1) وفي رواية ابن إسحاق: وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي ولا يذكرون لي شيئًا من ذلك.

(2) الناقه: هو من أفاق من مرضه، ولم تتكامل صحته.

(3) قبل المناصع، وهي: مواضع يخلى فيها لقضاء الحاجة خارج المدينة.

(4) أي: موضع التبرز، وهو الخروج إلى البراز، وهو القضاء، وكله كناية عن الخروج إلى قضاء الحاجة.

(5) الكنف جمع كنيف، وهو: الساتر. والمراد به هنا: المكان المتخذ لقضاء الحاجة.

(6) في التنزه عن الروائح الكريهة.

(7) ظاهر هذه العبارة تفيد: أن عائشة قضت حاجتها ثم أخبرتها الخبر بعد ذلك، وهي عندي أرجح من رواية هشام بن عروة من أنها عثرت قبل أن تقضي عائشة حاجتها، وأنها لما

=

مِسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، تسبِّين رجلًا قد شهد بدرًا! قالت: أي هنتاه[1]، أو لم تسعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك[2]، فازددت مرضًا إلى مرضي[3]، فلما رجعت إلى بيتي، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ ثم قال: «**كيف تيكم؟**» قلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلِهما فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: أي بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كَثَّرْنَ عليها.

قالت: قلت: سبحان الله، أوقد تحدث الناس بهذا؟![4]، قالت: فبكيت

=

أخبرتها الخبر رجعت كأن الذي خرجت له لم تجد منه لا قليلًا ولا كثيراً.

(1) معنى أي هنتاه: أي هذه، وقيل: أي امرأة، كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكايد الناس.

(2) في رواية أبي أويس: أن مسطحًا وفلانًا وفلانًا يجتمعون في بيت عبد الله بن أبي يتحدثون عنك، وعن صفوان يرمونك به. وفي رواية هشام بن عروة: «فنقرت لي الحديث»؛ أي: شرحته.

(3) وعند الطبراني بإسناد صحيح أنها قالت: «لما بلغني ما تكلموا به هممت أن آتي قليبًا فأطرح نفسي به». انظر: «فتح الباري» لابن حجر (477/10)، و«الدر المنثور» للسيوطي (155/6).

(4) في رواية الطبري: وبلغ رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، وزاد في رواية ابن إسحاق – كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (160/3) – وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا وزاد في رواية ابن حاطب عن علقمة عند الطبري في التفسير (126/10): فقلت: أما اتقيتما الله في، وما وصلتما رحمي؟

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه عند أحمد (24317)، وغيره: فاستعبرت فبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ، فقال لأمي ما شأنها؟ فقالت: بلغها الذي

=

تلك الليلة، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع[1] ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي[2] يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب، فقال: لم يُضيق الله عز وجل عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، قال: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟**» قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا قطُّ أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله[3]، فقام رسول الله ﷺ =

ذكر من شأنها ففاضت عيناه. فقال: أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك، فرجعت.

لكن الراجح أنها لم ترجع كما تدل على ذلك الروايات الكثيرة.

(1) ولا يرقأ: أي لا ينقطع. وجاء في رواية أم رومان عند البخاري (4143): «فخرت مغشيًّا عليها، فما استفاقت إلا وعليها حمى بنافض، فطرحت عليها ثيابها فغطيتها».

(2) استلبث الوحي: أي استبطأ النبي ﷺ نزوله، واستلبث الوحي: أي طال لبث نزوله.

(3) الداجن: أي الشاة التي تألف البيت، ولا تخرج إلى المرعى، وفي رواية أبي أويس: أن النبي ﷺ قال لعلي: «**شأنك بالجارية**»، فسألها علي وتوعدها فلم تخبره إلا بخير، ثم ضربها وسألها فقالت: والله ما علمت على عائشة سوءً.

وفي رواية ابن إسحاق: فقام إليها علي فضربها ضربًا شديداً يقول: اصدقي رسول الله ﷺ».

وقع في هاتين الروايتين أن عليًّا ضربها، وهذا عندي مرجوح؛ إذ إن الروايات الكثيرة في حديث الإفك لم تذكر ذلك، ولعله انتهرها ففسر ذلك بعض الرواة بالضرب، فقد جاء

=

فاستعذر[1] من عبد الله بن أُبيِّ ابن سلول، فقالت: قال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين من يعذرني[2] من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**».

فقام سعد بن معاذ الأنصاري[3]، فقال: أعذرك[4] منه يا رسول الله، إن كان من الأوس، ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا، ففعلنا أمرك.

= في رواية هشام بن عروة: فانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول الله ﷺ.

أما عن جواب الجارية، فقد جاء في رواية هشام بن عروة، قولها: «ما علمت منها إلا ما يعلم الصائغ على الذهب الأحمر», رواها أحمد (24317).

وفي رواية ابن حاطب عن علقمة عند الطبري في التفسير (126/10): فقالت الجارية الحبشية: والله لعائشة أطيب من الذهب، ولأن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله.

قالت – أي عائشة –: فعجب الناس من فقهها».

(1) فاستعذر من عبد الله: أي طلب العذر من عقوبته؛ أي: بيَّن أنه إن عاقبه فهو معذور.

(2) من يعذرني من رجال: أي من ينصرني عليه، والعذير الناصر.

(3) كذا هنا وفي رواية أكثر أصحاب الزهري من أن المتكلم هو سعد بن معاذ، لكن ذهب عدد من المحققين إلى أن هذا وهمٌ؛ لأن سعد بن معاذ قد مات بعد غزوة الخندق من رمية رميها. وممن قال بذلك ابن عبد البر، وابن حزم، والقاضي عياض، وابن العربي، والقرطبي وغيرهم، كما في «فتح الباري» (484/10)

وأن المتكلم هنا هو أسيد بن حضير، يدل على ذلك رواية ابن إسحاق كما في تفسير الطبري (126/18)، فقد جعل ابن إسحاق المراجعة أولاً وثانيًا بين أسيد بن حضير وبين سعد بن عبادة. وقد فصلت ذلك في بحثي المرسوم بـ «تاريخ بني المصطلق عند المحدثين وأهل السير»؛ يسر الله نشره.

(4) في رواية البخاري: أنا أعذرك.

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا، ولكن اجتهلته الحمية[1]، وقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله[2].

فقام أسيد بن خضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا[3] وسكت.

قالت: وبكيت يومي ذاك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحلُ بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحلُ بنوم[4]، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم، ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء.

(1) اجتلتهه الحمية: أي حملته على الجهل، أمَّا رواية البخاري (4141): ولكن احتملته الحمية: أي أغضبته.

(2) وفي رواية البخاري (4141): ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. وفي رواية ابن حاطب: فقال سعد بن عبادة: «يا ابن معاذ، والله ما بك نصرة رسول الله ﷺ، ولكنها قد كانت بيننا ضغائن في الجاهلية وإحن لم تحلل لنا من صدوركم».

(3) زاد في رواية محمد بن ثور عن معمر عند الطبري في التفسير (122/18): «ثم أتاني رسول الله ﷺ وأنا في بيت أبوي».

(4) وفي رواية البخاري (1414): وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا.

قالت[1]: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «**أما بعد، يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله عز وجل، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله، ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه**»، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي[2] حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، فقال: ما أدري والله ما أقول لرسول الله ﷺ[3]، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني والله قد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم، وصدَّقتم به[4]، ولئن قلت لكم إني بريئة والله عز وجل يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله عز وجل يعلم أني بريئة، تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾.

---

(1) وفي رواية هشام بن عروة: قام فينا خطيبًا فتشهد، وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**أما بعد**»، وزاد عطاء الخراساني عن الزهري هنا قبل قوله فقام: «وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم» كما في «فتح الباري» (482/10»).

(2) قلص دمعي؛ أي: استمسك نزوله فانقطع، قيل: هذه علامة بلوغ الحزن غايته.

(3) وفي رواية أبي أويس: فقلت لأبي: أجب، فقال: لا أفعل هو رسول الله والوحي يأتيه.

(4) وفي رواية محمد بن ثور عن معمر عند الطبري في التفسير (126/18): حتى كدتم أن تصدقوا به.

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأن الله عز وجل مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى[1]، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله عز وجل بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه[2] ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله عز وجل على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[3] عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان[4] من العراق في اليوم الشاتي من ثِقَل القول الذي أنزل عليه[5]، قالت: فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك[6].

فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «**أبشري يا عائشة، أما الله عز وجل، فقد برأك**» [7]، فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله

---

(1) في رواية ابن إسحاق: يقرأ به في المساجد، ويصلى به.

(2) في رواية: من مجلسه، ومعنى ما رام: ما فارق.

(3) قوله البرحاء: أي شدة الكرب.

(4) مثل الجمان، هو اللؤلؤ الصغار، والمراد: تشبيه ما يسقط من قطرات العرق به.

(5) زاد ابن جريج في روايته: «قال أبو بكر: فجعلت انظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن ينزل من السماء ما لا مرد له، وانظر إلى وجه عائشة فإذا هو منبق فيطمعني ذلك فيها».

(6) وفي رواية هشام «فرفع عنه، وإني لأتبين السرور في وجهه يمسح جبينه»، وفي رواية ابن حاطب: فوالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك حتى إني لانظر إلى نواجذه سرورًا ثم مسح وجهه.

(7) أي: بما أنزل من القرآن. وفي رواية فليح: يا عائشة، احمدي الله فقد برأك، وفي رواية أبي أويس: «نحمد الله ولا نحمدكم».

عز وجل، هو الذي أنزل براءتي(1)، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ عشر آيات، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات في براءتي(2).قالت: فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(3) [النور: 22]، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه(4)، وقال: لا أنزعها منه أبدًا.قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ عن أمري ما علمتِ أو ما رأيت أو ما بلغك؟ قالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيرًا. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني(5) من أزوج النبي ﷺ فعصمها الله عز وجل بالورع، وطفقت

---

(1) زاد في رواية الأسود عن عائشة: «وأخذ رسول الله ﷺ بيدي فانتزعت يدي منه، فنهرني أبو بكر».

(2) في رواية حميد الأعرج عن الزهري: جلس رسول الله ﷺ وكشف الثوب عن وجهه ثم قال: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**» ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾.

وفي رواية ابن إسحاق: «ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم» وفيها أيضًا: قالت عائشة: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ إلى المنبر وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم» ويشهد له حديث أبو هريرة، وسيأتي تخريجه.

(3) قال عبد الله بن المبارك: هذه، أرجى آية في كتاب الله.

(4) ووقع عند الطبري: أنه صار يعطيه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك.

(5) أي تعاليني، من السمو وهو: العلو الارتفاع، أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب.

أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمَن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط[1].

تخريج الحديث:

هذا الحديث أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في «مصنفه»[2]، ومن طريقه أحمد، واللفظ له[3]، ومسلم[4]، وابن حبان[5]، والطبري في تفسيره[6] من طريق:

1- معمر بن راشد:

وأخرجه البخاري[7] من طريق:2- صالح بن كيسان:

والبخاري ومسلم[8] من طريق: 3-يونس بن يزيد. 4- وفليح بن سليمان:

وابن هشام في «السيرة»[9]، والطبري[10] من طريق: 5- محمد بن

(1) وفي رواية صالح بن كيسان عن الزهري عن عروة قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: «سبحان الله والذي نفسي بيده ما كشفت كنف أنثى قطُّ، ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله».

(2) (9748).

(3) (25623).

(4) (2770)، (56).

(5) (4212).

(6) (126/18).

(7) (4141).

(8) البخاري (4750)، (2661)، ومسلم (2770)، (56).

(9) (158/3).

(10) (126/18).

إسحاق:

والطبراني في «المعجم الكبير»[1] من طريق: 6- ابن جريج. 7- وابن أبي عتيق. 8- وعطاء بن أبي مسلم.9- وإسحاق بن راشد. 10- ويحيى بن سعيد. 11- وعبيد الله بن عمر العمري.12- وعقيل بن خالد. 13- وأفلح بن عبد الله. 14- وإسماعيل بن رافع. 15- وصالح بن أبي الأخضر.

16- ويعقوب ابن عطاء. 17- وزياد بن سعد.وأخرجه أبو عوانة - كما في فتح الباري[2] - من طريق: 18- بكر بن وائل. 19- ومعاوية بن يحيى. 20- وحميد الأعرج:

جميعهم - وعدتهم عشرون راويًا - عن الزهري قال:

أخبرني :1- عروة بن الزبير، 2- وسعيد بن المسيب، 3- وعلقمة بن وقاص، 4- وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

وأخرجه الواقدي[3]، والطبراني[4] من طريق:

5- عباد بن عبد الله بن الزبير:

وأخرجه الطبراني[5] من طريق، 6- الأسود، 7- ومقسم، 8- وعمرة، 9- والقاسم بن محمد، 10- وأبي سلمة بن عبد الرحمن: جميعهم وعدتهم عشرة أنفس عن عائشة رضي الله عنها.

(1) (138/23، 139، 140، 141، 142، 144، 145، 147).
(2) (10/ 460).
(3) (427/2).
(4) (159/23، 160).
(5) «المعجم الكبير» (149/13، 151، 152، 153، 155).

وأخرجه أحمد[1]، والبخاري[2] معلقًا، ومسلم[3]، والترمذي[4] من طريق حماد بن سلمة.

وأخرجه البخاري[5] أيضًا من طريق يحيى بن أبي زكريا الغساني:

والطبراني في «المعجم الكبير»[6] من طريق أبي أويس، ثلاثتهم عن هشام بن عروة عن أبيه عروة عن عائشة، به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث هشام بن عروة.

وأما شواهده:

1- فقد أخرجه البخاري[7] وغيره عن أم رومان.

2- وأخرجه البزار في «مسنده» عن أبي هريرة، وقال السيوطي في «الدر المنثور»[8]: بسند حسن.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»[9]: وفيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات.

---

(1) (24317).

(2) (4757).

(3) (2770)، (58).

(4) (3180).

(5) (7370).

(6) (151/23).

(7) (4143).

(8) (146/6).

(9) (230/9).

3- وأخرجه الطبراني[1] من طريق الحسن بن العربي عن ابن عباس ﵁ لكن في سنده: إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل وهو متروك كما قال الهيثمي[2]، وابن حجر[3].

4- وأخرجه الطبراني عن ابن عمر، وعن أبي اليسر الأنصاري[4] مختصرًا، وفي سند الحديثين: إسماعيل بن يحيى التميمي، قال عنه الهيثمي[5]: كذاب.

***

(1) «المعجم الكبير» (162/23).
(2) (237/9).
(3) «التقريب» رقم الترجمة (493).
(4) (163/23).
(5) «مجمع الزوائد» (280/6، 240/9).

ثالثًا: تحديد زمن وقوع حادثة الإفك:

في أي غزوة وقعت حادثة الإفك؟ ومتى كان ذلك؟

– وقعت حادثة الإفك في غزوة بني المصطلق: وقد جاء التنصيص على ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها من رواية كل من:

1– النعمان بن راشد، ومعمر بن راشد، وأفلح بن عبد الله عن الزهري، قال البخاري في صحيحه[1]: وقال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع.

2– ورواية عباد بن عبد الله بن الزبير عن عائشة عند كل من ابن إسحاق والواقدي[2].

3– ورواية أبي أويس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة[3].

(1) كتاب «المغازي» باب غزوة بني المصطلق من خزاعة، وهي غزوة المريسيع، وقد وصله البيهقي في «دلائل النبوة» (63/4)، من طريق حماد بن سلمة عن النعمان بن راشد ومعمر، وأشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (422/9)، وأما رواية أفلح بن عبد الله، فقد أخرجها الطبراني في «المعجم الكبير» (145/23)، وهي ضعيفة؛ لأن في سندها – نجيح المدني– وهو ضعيف.

(2) قال ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (158): وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن عائشة. وعبد الله بن أبي بكر، عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة. وقال الواقدي في «المغازي» (427/2)، من طريق عيسى بن معمر عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «حديثنا يا أمة حديثك في غزوة المريسيع...».

(3) أخرجه الطبراني في «معجمه الكبير» (151/23)، وقال الهيثمي في «مجمع

=

4- كما جاء التنصيص على ذلك أيضًا في حديث أبي هريرة ﵁[1].

- أما متى وقعت حادثة الإفك؟

فقد ذهب جمهور علماء السيرة إلى أن حادثة الإفك قد وقعت بعد الانتهاء من غزوة بني المصطلق كما تقدم ذلك، فمتى يا ترى حدثت هذه الغزوة؟

الناظر في تاريخ هذه الغزوة يجد أن للعلماء في سنة حدوثها أقوالًا، سأقتصر على ذكر قولين؛ منها:

القول الأول: أنها وقعت في بداية شهر شعبان من سنة خمس من الهجرة قبل غزوة الأحزاب:

وممن قال بذلك: الواقدي وتابعه على ذلك ابن سعد، وابن قتيبة، وابن حبان، والذهبي، وابن قيم الجوزية، وعدد من الباحثين المعاصرين[2].

القول الثاني: أنها وقعت في بداية شهر شعبان من سنة ست من الهجرة بعد غزوة الأحزاب.

وممن قال بذلك: ابن إسحاق، وتابعه على ذلك الطبري، وابن حزم، وابن عبد البر، والقاضي عياض، وابن الأثير، والقرطبي، وابن كثير وعدد من

=

الزوائد» (236/9): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(1) تقدم تخريجه عند الكلام على تخريج حديث عائشة وهو حديث حسن.

(2) انظر «المغازي» للواقدي (404/1)، «والطبقات الكبرى» لابن سعد (63/2)، «والمعارف» لابن قتيبة ص 80، و«السيرة النبوية» لابن حبان ص 162، و«تاريخ الإسلام» للذهبي قسم «المغازي» ص 349، و«زاد المعاد» لابن القيم (233/3)، و«فقه السيرة» للبوطي ص 202.

الباحثين المعاصرين[1]، وهو الراجح كما بينت ذلك مع أدلته في بحثي الموسوم «تاريخ غزوة بني المصطلق عند المحدثين وأهل السير».

ومن الأدلة على ذلك:

1- ما جاء من نصوص عدد من أئمة السلف المختصين بتاريخ المغازي من أنها حدثت بعد غزوة الأحزاب.

2- ما ذكره البخاري والواقدي وابن سعد وغيرهم في قصة الإفك من أنه ﷺ سأل زينب بنت جحش عن عائشة، فقالت: «يا رسول الله، أحمي سمعي، وبصري والله ما علمت إلا خيرًا»[2].

ومن المعلوم أن زواجه ﷺ من زينب كان بعد غزوتي الأحزاب وبني قريظة، فتناقض الواقدي في ذلك، إذ إنه يرى أن غزوة بني المصطلق وقعت قبل غزوة الأحزاب، وممن نص على هذا التناقض الحافظ ابن حجر رحمه الله[3].

3- ما جاء في حديث الإفك: «وكان يراني قبل الحجاب»، ولا خلاف أن آية الحجاب نزلت حين دخوله ﷺ بزينب، فثبت أن الحجاب كان قبل قصة الإفك كما قال الحافظ ابن حجر[4].

***

(1) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (227/3)، وتاريخ الطبري (614/2)، و«جوامع السيرة النبوية» لابن حزم ص 185، و«الدرر في اختصار «المغازي والسير» ص 220، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير (192/1)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (156/4)، و«فتح الباري» (428/7)، و«الرحيق المختوم» للمباركفوري ص 430/2.

(2) انظر صحيح البخاري (4141)و«المغازي» للواقدي(430/2).

(3) انظر «فتح الباري» (470/10).

(4) المصدر السابق (471/10).

رابعًا: الدروس المستفادة من حادثة الإفك:

الـدرس الأول: في حادثـة الإفـك نطلـع علـى أسـلوب مـن أسـاليبه ﷺ في معالجـة الخلافـات الزوجيـة، والمشـكلات الأسـرية، لاسيما تلـك التـي لهـا مسـاس بالأعراض.

وهكذا من خلال ما تقدم رأينا حكمة النبي ﷺ في معالجة مشكلة ليس لها من سبب سوى الحقد على الإسلام، وليس لها من غاية سوى النيل من رسول الله ﷺ، وتفريق الناس عنه.

وقد اتبع عليه الصلاة والسلام في معالجتها أسلوب التروي، وعدم التعجل، والتحقيـق الهـادئ ليكـون قـراره في ذلـك عـادلًا، مـع المحافظـة التامـة علـى كرامـة زوجته من أن تخدش،وكرامة أهلها من أن تمس , وتلك حكمة بالغة من النبي ﷺ في تعامله مع مثل هذه الأمور.

الـدرس الثـاني: ونـتعلم مـن حادثـة الإفـك درسًـا تربـويًّا في الطريقـة المثلـى التـي يجب إتباعها في التعامل مع المشكلات الزوجية التي لها مساس بالأعراض.

فكيف تعامل النبي ﷺ مع هذا الحدث الجلل تربويًّا؟

الدارس لوقائع هذه الحادثة يجد أن النبي ﷺ قد غيَّر من أسلوبه في تعامله مع زوجه عائشة مما أشعرها بأن شيئًا ما قد حدث، لكنها لا تدري ما هو؟ فلم يعد يجلس عندها، ولم تعد ترى منه ذلك اللطف الذي كانت تراه منه لاسيما في حالة المرض.

تقول رضي الله عنها: «فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرًا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولم أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «**كيف تيكم؟**» فذاك يريبني ولا أشعر بالشر...».

وقد بقيتْ على هذا الحال شهرًا كاملًا ولم تدر ما حدث إلا في الأيام الأخيرة، وقد أخبرتها بذلك أم مسطح عندما خرجت معها قبل المناصع، فلما رجعت إلى بيتها قالت للنبي ﷺ: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ فأذِن لها فذهبت إلى أهلها لتستيقن من الخبر، وتخفف عن نفسها شيئًا من عظيم ما ألمَّ بها، ووقع عليها، ولكن متى حدث هذا الذهاب؟

أكثر الروايات على أن ذلك حدث في الأيام الأخيرة(1)، بل جاء تحديد ذلك بيومين وليلتين، وأن ذلك حدث في بيت أهلها(2)، قالت السيدة عائشة

---

(1) وخالف ابن إسحاق في روايته عن الزهري كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (158/3)، فجعل انتقالها إلى بيت أهلها في فترة مبكرة من مرضها، وهذا نصها: تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «إلا أنني أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه لي.. حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله – حين رأيت ما رأيت من جفائه لي –: لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك. فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة...» لكن الروايات الصحيحة تخالف ذلك ولا يحتمل تفرد ابن إسحاق في مثل هذا الأمر.

(2) وخالف هشام في روايته عن عروة كما في مسند أحمد (24317)، والبخاري (4757)، ومسلم (2770)، (58)، والترمذي (3180)، وغيرهم. حيث جاء فيها قول أبي بكر رضي الله عنه لعائشة: أقسمت عليك أي : بنية إلا رجعت إلى بيتك، فرجعت.

- وهي تصف ما حدث بعد أن تأكدت من الخبر من والدتها -: «وقد بكيت ليلتين ويومًا لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي».

وأما اليوم الأخير من البكاء، فهو يوم البراءة، تقول السيدة عائشة: وأصبح أبواي عندي، فبينما أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم فجلس، فقالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني بشيء..».

ومما يؤكد أن ذلك كان في بيت أهلها ما جاء في وراية معمر عند الطبري: ثم أتاني رسول الله ﷺ: وأنا في بيت أبوي...».

وهذا الموقف من النبي ﷺ يدل على حكمته البليغة في تعامله مع هذا الحادث الجلل فهو ﷺ لم يعتزلها اعتزالًا كليًّا؛ لأن الاعتزال عقوبة على مخالفة، ولم تثبت أية مخالفة تستحق عليها الاعتزال، والهجران...، وهو ﷺ لم يعاملها بالطريقة التي كان يعاملها بها قبل شيوع حادث الإفك، وقالة السوء، ليشعرها بأن شيئًا ما قد حدث، ويحتاج إلى تحقيق فيه للكشف عن الحقيقة.

وهذا الموقف - بحد ذاته - درس تربوي نتعلم منه كيف نتعامل مع الأشخاص الذين يشاع عنهم شائعات الافتراء، ويذاع عنهم كلمات الزور والبهتان...، فلابد من الحذر الشديد، وعدم التسرع في إطلاق الأحكام، واتخاذ المواقف المعادية من غير ما حجةٍ واضحة أو دليل صحيح.

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه - أي في حديث الإفك - من الفوائد:

ملاطفة الزوجة، وحسن معاشرتها، والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي وإن لم يتحقق.

وفائدة ذلك: أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف.

وفيه: - أي في حديث الإفك - من الفوائد: إشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة، فإذا كان السبب - أي سبب الهجران - محققًا فيترك - أي الكلام - أصلًا، وإن كان مظنونًا فيخفف، وإن كان مشكوكًا فيه أو محتملًا، فيحسن التقليل منه لا للعمل بما قيل بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه؛ لأن ذلك من خوارم المروءة»[1].

الدرس الثالث: ونتعلم من حادثة الإفك درسًا في التحقيق القضائي، ففي هذه الحادثة نجد أن النبي ﷺ تعامل معها تعاملًا دقيقًا، واتخذ خطوات مدروسة في سبيل الكشف عن الحقيقة فيما يشاع ويذاع في أخطر قضية يتعرض لها البيت النبوي.قال الحافظ ابن حجر: «وفي هذا الحديث من الفوائد: البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع، وتعرف صحته بالتنقيب على ما قيل فيه، هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه.

واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفًا بالخير إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك»[2].

فقد أخذ رسول الله ﷺ يتحرى عن حقيقة هذه الإشاعة، ويسأل في سرية تامة عن أخلاق عائشة وسلوكها، وهي رئي عليها شيء؟ فكانت

---

(1) «فتح الباري» (496/10).

(2) (497/10).

شهادات الجميع لها بالاستقامة والخلق والتقوى.

وسأذكر نصوص التحقيق الذي أجراه النبي ﷺ مع رجلين من أقرب المقربين إليه من أصحابه وثلاثة من النساء ممن لهن صلة بعائشة.

أما الرجلان؛ فهما: الإمام علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما.

جاء في حديث عائشة: «ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة ابن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: «فأما أسامة بن زيد، فأشار لهم على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلا خيرًا.

وأما علي بن أبي طالب، فقال: لم يضيق الله عز وجل عليك، والنساء سواها كثير»، ولكنه كان منصفًا عندما حول القضية إلى الجارية لعلمه بملازمتها لعائشة واطلاعها على شؤونها وأحوالها، فقال له: «وإن تسأل الجارية تصدقك؛ يعني بريرة».

قال ابن القيم رحمه الله: «ثم استشار أصحابه في فراقها فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها، ويأخذ غيرها تلويحًا لا تصريحًا، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء.

فعلي لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء.

وأسامة لما علم حب رسول الله ﷺ لها ولأبيها، وعلم من عفتها وبراءتها، وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك، وأعظم منه، وعرف من

كرامة رسول الله ﷺ على ربه ومنزلته عنده، ودفاعه عنه، أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء وبنت صدِّيقه بالمنزلة التي أنزلها به أرباب الإفك، وأن رسول الله ﷺ أكرم على ربه، وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيًّا، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة، وهي تحت رسوله»(1).

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: «لم يجزم عليّ بالإشارة بفراقها؛ لأنه عقب ذلك بقوله: «وسل الجارية تصدقك» ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت تعجيل الراحة ففارقها، وإن أردت خلاف ذلك، فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها؛ لأنه كان يعلم أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة»(2).

وهذا الذي قاله الشيخ ابن أبي جمرة هو التفسير السليم لموقف سيدنا علي رضي الله عنه من هذه الحادثة؛ إذ كان رضي الله عنه مسلِّمًا في شأنها لأمر رسول الله ﷺ، وموقفه هذا لا يختلف عن موقف الصديق والد السيدة عائشة كما سيأتي بيانه، يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه(3): أن

(1) «زاد المعاد» (233/3).

(2) «فتح الباري» (480/10).

(3) (4142)، لكن وقع في بعض روايات هذا الحديث بلفظ: كان عليٌّ مسيئًا في شأنها» نسبته للإساءة في حقها؛ لأنه قال للنبي ﷺ: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير».

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (432/9): بل هو الأقوى من حيث نقل الرواية». لكن الحافظ نفسه رحمه الله كان قد قال عن لفظة «مسلِّمًا» كذا في نسخ البخاري، ومن يدقق في موقف سيدنا علي، وما ذكره شراح الحديث في تفسير موقفه رضي الله عنه يجزم بصحة رواية «مسلِّمًا في شأنها».

الزهري قال: قال لي الوليد بن عبد الملك: أبلغك أن عليًّا كان فيمن قذف عائشة؟ قلت: لا، ولكن أخبرني رجلان من قومك - أبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث - أن عائشة رضي الله عنها قالت: كان علي مسلمًا في شأني».

وأما النساء اللاتي سألهن رسول الله ﷺ عن أمر عائشة، فهن:

الأولى: أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها:

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ عن أمري: ما علمتِ أو ما رأيت أو ما بلغك؟ قلت: يا رسول الله؟ أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله عز وجل بالورع»، ومعنى تساميني: أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب، أو تعتقد الذي لها عنده مثل الذي لي عنده.

وهي شهادة نفسية قيمة لكونها صدرت من امرأة تعد من أشد المنافسات لها عند النبي ﷺ.

الثانية: أم أيمن رضي الله عنها:

قالت عائشة: ثم سأل رسول الله ﷺ أم أيمن، فقالت: حاشى سمعي وبصري أن أكون علمت أو ظننت بها قطُّ إلا خيرًا»[1].

(1) من رواية الواقدي في «المغازي» (431).

وأم أيمن هذه هي مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، واسمها بركة بنت ثعلبة، وهي حبشية فأعتقها عبد الله أبو رسول الله ﷺ، وأسلمت قديمًا أول الإسلام، وهاجرت إلى الحبشة، وإلى المدينة، وبايعت رسول الله ﷺ، وتزوجها زيد بن حارثة الحبشي فولدت له أسامة، وكان ﷺ يقول: أم أيمن أمي بعد أمي، وكان يزورها في بيتها، وكان أبو بكر وعمر يزورانها في منزلها[1].

الثالثة: الخادمة بريرة:

قالت السيدة عائشة: فدعا رسول الله ﷺ بريرة قال: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء من عائشة يريبك؟**» قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمرًا قطُّ أغمصه - أي أعيبه - عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجينها، فتأتي الداجن - أي الشاة - فتأكله. وفي رواية[2] قال لها: «**أتشهدين أني رسول الله؟**»، قالت: نعم، قال: «**فإني سأسألك عن شيء، فلا تكتميه**»، قالت: نعم، قال: «**هل رأيت من عائشة ما تكرهينه؟**» قالت: لا.

وفي رواية[3] فقالت: لا والله ما علمت عليها عيبًا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل عجينها، وانتهرها بعض الصحابة فقال: اصدقي رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به - أي صرحوا لها بالأمر - قال عروة: فعيب

(1) انظر «أسد الغابة» لابن الأثير 303/6 «والإصابة» لابن حجر (357/4).
(2) من رواية مقسم عن عائشة كما في «معجم الطبراني الكبير» (152/23).
(3) من رواية هشام بن عروة عن أبيه عروة عن عائشة كما في صحيح البخاري (4757).

ذلك على من قاله[1]. فقالت: سبحان الله! والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر».

وفي رواية[2]: والله لعائشةُ أطيب من الذهب، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله به، قالت: فعجب الناس من فقهها.

وهي أيضًا شهادة قيمة من امرأة وثيقة الصلة بعائشة؛ لأنها كانت تخدمها[3].

وقد أجادت كل الإجادة في نفي العيب عن السيدة عائشة لاسيما عندما قالت: «لا والله ما عملت عليها عيبًا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل عجينها».

قال ابن المنير: «وهذا من الاستثناء البديع الذي يراد به المبالغة في نفي العيب، فغفلتها عن عجينها أبعد لها من مثل الذي رميت به وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات»[4].

وقد ظهر كمال فقهها عندما أحالت الموضوع إلى الوحي بعد أن شهدت لها بالبراءة، ولهذا عجب الناس من فقهها.

أما ما وقع في رواية ابن إسحاق من أن عليًّا ﵁ ضربها فهي

---

(1) كما في «فتح الباري» (482/10).

(2) من رواية ابن حاطب عن علقمة كما في تفسير الطبري (126/18).

(3) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (481/10): «... كانت تخدم عائشة بالأجرة، وهي في رق مواليها قبل وقوع قصتها في المكاتبة وهذا أولى من دعوى الإدراج، وتغليط الحفاظ». وقصة مكاتبتها كانت بعد فتح مكة.

(4) انظر «فتح الباري» (482/10).

رواية مرجوحة؛ إذ إن الروايات الكثيرة في حديث الإفك لم تذكر ذلك، ولعله انتهرها ففسر ذلك بعض الرواة بالضرب، يدل على ذلك ما جاء في رواية هشام بن عروة: «فانتهرها بعض أصحابه..».

ثم رأيت الإمام السهيلي رحمه الله قد استبعد الضرب أيضًا، وذلك عندما قال : «وأما ضرب علي للجارية , وهي حرة , ولم تستوجب ضرباً, ولا استأذن رسول الله ﷺ في ضربها فأرى معناه: أنه أغلظ لها بالقول، وتوعدها بالضرب...»[1]. هكذا أجرى رسول الله ﷺ تحقيقًا هادئًا مع خمسة من أصحابه فقد اختار عليه الصلاة والسلام رجلين من أصحابه الشباب، واختياره ﷺ لهذين الشابين لكون الأول قريبًا له، وكون الثاني مقربًا من الأسرة النبوية حفاظًا على السرية التامة وهو اختيار دقيق.

قال الحافظ ابن حجر: «والعلة في اختصاص علي وأسامة بالمشاورة: أن عليًّا كان عنده كالولد؛ لأنه رباه من صغره ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة، فلذلك كان مخصوصًا بالمشاورة فيما يتعلق بأهله لمزيد إطلاعه على أحواله أكثر من غيره.

وأما أسامة، فهو كعلي في طول الملازمة ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حِب رسول الله ﷺ وخصه دون أبيه وأمه لكونه كان شابًّا، وإن كان علي أسن منه؛ وذلك أن للشاب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جراءة على الجواب بما يظهر له من المسن؛ لأن المسن غالبًا يحسب العاقبة فربما أخفى بعض ما يظهر له رعاية للقائل مرة، والمسؤول

---

(1) «الروض الأنف» (20/4).

عنه أخرى»[1].

وكذا اختار من النساء امرأتين: الأولى: من داخل الأسرة النبوية وهي السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين، والثانية: من خارج الأسرة النبوية، لكنها مقربة منها جدًّا، وهي أم أيمن رضي الله عنها.

واختياره للجارية لكونها قريبة منها، ومطَّلعة على أمورها وشؤونها.

ولا شك أن هذا الاختيار يدل على حكمة النبي ﷺ، وكمال فطنته في تعامله مع القضايا التي لها مساس بالأعراض.

وبعد إجراء هذا التحقيق السري الهادئ أشار النبي ﷺ إلى النتائج، وأن الاتهام لا يعدو أمرًا مدبرًا يقف وراءه المنافقون وفي مقدمتهم رأس النفاق عبد الله بن أُبَيّ، وبعض من غفل من المسلمين.

وها هو رسول الله ﷺ يصعد المنبر ويقول: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**».

ولكن رسول الله ﷺ لم يصرح باسم المتهم حفاظًا على وحدة المجتمع الإسلامي من التمزق، يدل على ذلك اختلاف الأوس والخزرج حول معاقبة من قام بهذه الإشاعة.

بدليل ما جاء في الحديث فثار الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم

---

(1) «فتح الباري» (480/10).

حتى سكتوا وسكت.

ومما يَلفِت النظر هنا أن النبي ﷺ رغم توصله إلى براءة السيدة عائشة إلا أنه ظل ينتظر نزول الوحي ليكون قراره قاطعًا وما ذلك إلا لأن هذا الأمر يتعلق به ﷺ.

قال الشيخ ابن أبي جمرة رحمه الله: وفيه – أي في حديث الإفك من الفوائد – أن النبي ﷺ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي؛ لأنه ﷺ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي[1].

ومع ذلك فقد تأخر نزول الوحي، تقول السيدة عائشة: «وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء»، فما السر في تأخر نزول الوحي؟ هذا ما سنعلمه في الدرس الآتي.

الدرس الرابع: وفي تأخر نزول الوحي حكم بالغة لعل من أهمها أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلم الأمة من خلال هذه الحادثة كيف يتعاملون مع مثل هذه الحوادث الحساسة، حفاظًا على الأسرة المسلمة من التصدع والانهيار، ومن ثَمَّ حفاظًا على المجتمع الإسلامي من أن تفتك به مثلُ هذه الإشاعات المغرضة لاسيما إذا تعلقت بالأعراض.

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله: «واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهرًا في شأنها، وما ذاك إلا لأن الله سبحانه وتعالى أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد

(1) «فتح الباري» (497/10).

على أعدائه، وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك الثائر لرسوله وأهل بيته»[1].

وهكذا بعد التحقيق السري الهادئ، وبعد توصله ﷺ إلى أن هذا الاتهام لا يعدو أن يكون من الشائعات المغرضة، أتى رسول الله ﷺ أهله.تقول السيدة عائشة: «ثم أتاني رسول الله ﷺ وأنا في بيت أبوي»[2]. «فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت عليّ امرأةٌ من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «**أما بعد، يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب الله عليه**».

إن رسول الله ﷺ في هذا الموقف يريد من عائشة جوابًا قاطعًا فيما اتُّهِمَتْ به؛ فماذا كان جوابها؟

قالت: إني والله، قد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم، حتى كدتم أن تصدقوا به، ولئن قلت إني بريئة – والله عز وجل يعلم أني بريئة – لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله عز وجل يعلم أني بريئة – تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].

إن هذا الجواب يدل على مدى فهم السيدة عائشة، ومدى صدقها،

---

(1) «زاد المعاد» (235/3).

(2) كما في رواية الطبري في تفسيره (119/20).

ومدى إحساسها بالمسؤولية الملقاة عليها في مثل هذا الأمر الجلل.

تقول السيدة عائشة: «فوالله، ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه...».

فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «**أبشري يا عائشة، أما الله عز وجل قد برأك**».

ولكن كيف استقبلت السيدة عائشة هذا الخبر؟

لقد قالت لها أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي».

وهكذا تفعل الشدائد بأهلها، إن حمد رسول الله ﷺ من حمد الله، ولكن عائشة من فرحها بهذه النعمة أبت أن تحمد إلا الله فقط. إن حبها له ﷺ، وعلمها بحبه لها دفعها ألا تتوقع مثل هذا الإجراء الذي قام به رسول الله ﷺ، ولكن هنا يثار التساؤل الآتي: لماذا لم يجزم رسول الله ﷺ ببراءتها، ولما أجرى مثل هذا التحقيق؟ هذا ما سنعلمه في الدرس الآتي:

الدرس الخامس: إن رسول الله ﷺ كان يحبها، ومن حبه لها أجرى هذا التحقيق، وذلك من أجل حمايتها من الشائعات التي كانت تستهدف شخص النبي ﷺ متمثلًا بأهله، وتستهدف دعوة النبي ﷺ وهذا الدين الذي جاء به عن طريق استهداف أسرته، فالدفاع إذن عنها دفاع عن الإسلام ودفاع عن شخص النبي عليه الصلاة والسلام.

لقد أراد النبي ﷺ أن يظهر براءة الصديقة رضي الله عنها ظهور الشمس في رابعة النهار، ويحسم القيل والقال، بحيث لا يبقى فيه خفاء عند أحد من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

وحسن الظن هنا لا يحسم ما أشاعه المبطلون، وخاض فيه الخائضون، فتتبعه ﷺ لهذا الأمر، وتحقيقه فيه، وتحققه منه لهو غاية العدل والإنصاف، وهو دال على مزيد العلم ونهاية الحزم.

ومن هنا نفهم سبب توقف رسول الله ﷺ في هذه القضية، وسؤاله عنها، وبحثه واستشارته أصحابه بعد أن أشاعها المنافقون، وتكلم بها المرجفون.

وقد ألمح إلى ما قلته ابن القيم رحمه الله عندما قال: «فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى، والتي رميت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظن بها سوءً قطُّ، وحاشاه وحاشاها»، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «**من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي ولا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**».

فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبره، وثباته، ورفقه وحسن ظنه بربه، وثقته به وفي مقام الصبر والثبات وحسن الظن بالله حقه، حتى جاءه الوحي بما أقر عينه وسر قلبه وعظم قدره، وظهر لأمته احتفال ربه به واعتناؤه بشأنه»[1].

الدرس السادس: ومما ينبغي تسجيله هنا باعتباره درسًا تربويًّا يستفاد من حادثة الإفك، هو موقف سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه مما حدث لابنته الطاهرة السيدة عائشة رضي الله عنها، ويتمثل في عدة مظاهر:

(1) «زاد المعاد» (235/3).

أولاً:لم يخبرها بما حدث، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «ثم قدمنا فلم أنشب أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى ذلك إلى أبوي، وأبواي لا يذكران لي من ذلك شيئًا...»[1].

ثانيًا: تأثره الشديد وبكاؤه مع ابنته مما يدل على تعاطفه معها، وعدم إيذائها:

تقول السيدة عائشة لأمها - أمِّ رومان - بعد أن أكدت لها خبر الإفك: وقد علم به أبي؟ قالت: نعم، قلت: ورسول الله ﷺ؟ قالت: ورسول الله ﷺ فاستعبرت، فبكيت، فسمع أبو بكر صوتي، وهو فوق البيت يقرأ، فنزل، فقال لأمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من أمرها، ففاضت عيناه[2].

ثالثًا: اهتمامه بها، وجلوسه عندها لاسيما عند اشتداد الأزمة في أيامها الأخيرة: تقول رضي الله عنها: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويومًا لا يرقأ لي دمع، ولا أَكتحلُ بنوم حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي[3].

وفي رواية أخرى: وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي[4].

رابعًا: تسليمه المطلق لرسول الله ﷺ وإيمانه العميق بالوحي فعندما دخل النبي ﷺ على عائشة وقال لها: «**أما بعد: يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل، وإن كنت ألممت بذنب**

(1) «المغازي» للواقدي (426/2).
(2) أخرجه أحمد (24317)، وغيره.
(3) أخرجه البخاري (4141)، وغيره.
(4) من رواية أحمد (24317).

فاستغفري.

قالت: السيدة عائشة لأبيها: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال.

فقال: ما أدري والله ما أقول لرسول الله ﷺ[1]. وفي رواية قال: لا أفعل هو رسول الله ﷺ والوحي يأتيه.

ولقد كان ﷺ مقتنعًا ببراءة ابنته، يدل على ذلك تعبيره عن حزنه البالغ لما حدث لابنته من اتهام، ودفاعه عنها بقوله: فما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر، والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله، ولا ندع له شيئًا، فيقال لنا في الإسلام»[2]، ومع ذلك كان مسلمًا لرسول الله ﷺ لا يجيبه بشيء.

قال الحافظ ابن حجر: «وإنما أجابها أبو بكر بقوله: لا أدري لأنه كان كثير الاتباع لرسول الله ﷺ، ولأنه وإن كان يتحقق براءتها لكنه كره أن يزكي ولده»[3].

خامسًا: تثبته في الأمور؛ إذ إنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهرًا كلمة فما فوقها كما قال ابن حجر[4].

الدرس السابع: موقف أم رومان مما حدث لابنتها السيدة عائشة:

وأما موقف الصحابية الجليلة أم رومان والدة السيدة عائشة فقد كان موقفًا رائعًا غير متعجل ولا متسرع، بل يحمي في طياته موقف الأم التي عرفت منزلة

---

(1) من رواية أحمد (24317).

(2) انفرد الواقدي بهذه الزيادة. انظر: «المغازي» له (433/2).

(3) «فتح الباري» (490/10).

(4) المصدر السابق (498/10).

الصديقة وبراءتها، وطهارتها فقالت لها بلهجة ملؤها الاطمئنان والثقة: أي بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قطُّ وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها..».

قال الحافظ ابن حجر: «وفي هذا الكلام من فطنة أمها، وحسن تأتِّيها في تربيتها ما لا مزيد عليه، فإنها علمت أن ذلك يعظم عليها فهونت عليها الأمر بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك؛ لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له، وأدمجت في ذلك ما تطيب به خاطرها من أنها فائقة في الجمال والحظوة، وذلك مما يعجب المرأة أن توصف به...»[1].

وفي موقف الوالدين الكريمين مما حدث لابنتهما السيدة عائشة رضي الله عنها درس تربوي بالغ الأهمية في كيفية التعامل مع قالة السوء وإشاعة الزور والبهتان، فقد كان موقفًا يتسم بالحكمة، ولم يتسرعا في إصدار أي حكم قبل ظهور الحجة، واستكمال التحقيق، وهما في ذلك يقتديان برسول الله ﷺ في تعامله مع هذه الحادثة، وطريقته في معالجتها.

ولكن قد يقال هنا: ولماذا لم يقولوا: سبحانك! هذا بهتان عظيم، كما فعل أبو أيوب الأنصاري، فقد جاء في الحديث: وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك!! هذا بهتان عظيم»[2].

وإنما لم يقولوا: «سبحانك هذا بهتان عظيم»، كما قال أبو أيوب رغم

---

(1) «فتح الباري، (477/10).

(2) كما في رواية عطاء بن أبي مسلم الخرساني عن الزهري، وانظر: «المعجم الكبير» (140/23).

قناعتهم التامة ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها؛ لأن الأمر يتعلق بهم، فلابد من التحقيق العلني لرد التهمة التي أثارها المنافقون في المدينة، تجد ذلك واضحًا في تعاملهم مع هذا الحدث الجلل وصبرهم الجميل رغم تجرعهم مرارته، وتحملهم لهيب نيرانه.

الدرس الثامن: ونشهد في حادثة الإفك مظاهر عناية الله برسوله ﷺ وانتصاره له، وإظهار علو منزلته عنده، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم، وخير الأولين والآخرين.

قال الزمخشري – رحمه الله – في صدد حديثه عن حادثة الإفك: «ولو فليت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل – من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه – ما أنزل فيه على طرق مختلفة، وأساليب مفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه.

ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها؛ حيث جعل القَذَفَة معلونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذين هم أهله حتى يعلموا عند ذلك «أن الله تعالى هو الحق المبين».

فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك إلا لأمر..؟

– فما هذا الأمر؟

قال: وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة

محل سيد ولد آدم، وخير الأولين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه وإحرازه قصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه»(1).

وقال الإمام المفسر أبو السعود العمادي رحمه الله: «ولو تتبعت ما في القرآن المجيد من آيات الوعيد، الواردة في حق كل كَفَّار مريد، وجبار عنيد لا تجد شيئًا منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد، وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي ﷺ في علو الشأن والنباهة، وإبراز رتبة الصديقة رضي الله عنها في العفة والنزاهة»(2).

الدرس التاسع: ونشهد في حادثة الإفك فضل أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها زوجة سيد الخلق وأحب الناس إليه؛ «حيث أنزل وحيه على رسوله الأمين بما لم يكن لأحد في الحسبان، ولا وقع مثله قطُّ في حادثة من الحوادث التي تراها النظرة العابرة على أنها حادثة فردية كان يكفي في إبطالها أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا منامية في تبرئة أطهر الطاهرات أم المؤمنين، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من هذه الحادثة خصيصة، ليرفع من شأن أطهر الطاهرات الصديقة بنت الصديق زوج أحب خلق الله إلى الله إظهارًا لشرفها الذاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتها في أهل البيت طهرًا وفضلًا وشرفًا، وثقلًا في ميزان الفضائل الإنسانية والإيمانية لمكانها من قلب رسول الله ﷺ»(3).

(1) «الكشاف» (228/3).

(2) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (167/6).

(3) «محمد رسول الله ﷺ» لمحمد الصادق عرجون (224/4) بتصرف.

وعليه فمن تشكك في براءتها بعد ذلك، أو رماها بما رماها به بعد نزول الآيات في براءتها صار كافرًا مرتدًّا بإجماع المسلمين، وقد نقل الإجماع على هذا الحكم غير واحد من الأئمة؛ منهم: السهيلي والنووي وابن تيمية وابن القيم وابن كثير، والزركشي، والسيوطي(1).

الدرس العاشر: وقد كشفت هذه الحادثة في وقت مبكر من حياة هذه السيدة عن علم غزير، وفهم دقيق، واستشهاد بالآيات في موقع الاستشهاد.

تقول رضي الله عنها: «فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله قد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم، حتى كدتم أن تصدقوا به، ولئن قلت لكم إني بريئة، والله عز وجل يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله عز جل يعلم أني بريئة تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

وعُذر زوجها المصطفى ﷺ أنه كان ينتظر الوحي ليبت في هذا الحدث الجلل كونه يتعلق به، وعُذر أبويها تسليمهم المطلق لرسول الله ﷺ كما تقدم بيان ذلك، يدل على هذا ما جاء في بعض روايات الحديث، فقلت لأبي: أجب فقال: لا أفعل، هو رسول الله ﷺ، والوحي يأتيه(2).

(1) انظر «الروض الأنف» للسهيلي (24/4)، وشرح صحيح مسلم للنووي (643/5)، «والصارم المسلول على شاتم الرسول» لابن تيمية ص 565 - 567، و«زاد المعاد» (103/1)، وتفسير ابن كثير (276/3)، و«الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» للزركشي ص 52، و«الإكليل في استنباط التنزيل» ص160.

(2) رواية أبي أويس عن هشام بن عروة أخرجها الطبراني في «معجمه الكبير» (351/23).

قال الحافظ ابن حجر: «وفي هذا الحديث من الفوائد:

جواز الاستشهاد بآي القرآن في النوازل، والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم.

وفيه: فضائل جمة لعائشة ولأبويها رضي الله عنهم»[1].

الدرس الحادي عشر: ونشهد في حادثة الإفك جانبًا من جوانب حكمة النبي ﷺ في تعامله مع الأمور وتدرجه في إيصال المعلومات: وذلك من خلال إبلاغ عائشة خبر براءتها، وتدرجه في ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه - أي في حديث الإفك من الفوائد -: تدريج من وقع في مصيبة فزالت عنه، لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهلة فيهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ - بعد نزول الوحي ببراءة عائشة - بالضحك ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجملة، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من اشتد عليه العطش لا يُمَكَّن من المبالغة في الري في الماء لئلا يفضي به إلى الهلكة بل يجرع قليلًا قليلًا»[2].

الدرس الثاني عشر: ونتعلم من هذه الحادثة درسًا تربويًّا بليغًا، ومنهجًا في مواجهة مثل هذه الأمور، وهذا المنهج الذي يفرضه القرآن يتمثل في ثلاث خُطُوات:

«**الخطوة الأولى**: خُطوة الدليل الباطني الوجداني وذلك بعرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير:

---

(1) «فتح الباري» (10/498).

(2) «فتح الباري» (10/498).

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾. **والخُطوة الثانية**: هي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي: قال تعالى: ﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. ذلك لأن مثل هذه الافتراءات ما ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة، وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة، وأن تتقاذفها الألسنةُ، وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل»(1).

الخُطوة الثالثة: الصدع بالحق، والجهر به، وعدم السكوت على المنكر، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾. هذه الخطوات الثلاث هي التي يجب اتباعها في التعامل مع مثل هذه الأمور التي تعرض للفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع الإسلامي.

الدرس الثالث عشر: وفي حادثة الإفك نشهد تطبيقًا عمليًّا لحد من حدود الله ألا وهو حد القذف؛ إذ فيه نزل قوله تعالى في مطلع سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. يدل على ذلك ما جاء عن عائشة قالت: «لما نزل عذري قام رسول الله

---

(1) «الظلال» (2502/4) بتصرف وزيادة.

ﷺ على المنبر فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدَّهم»[1].

وحديث أبي هريرة: وفيه فحدَّ رسول الله ﷺ مسطحًا وحمنة وحسان»[2].

فهذان الحديثان صريحان في إقامة الحد على هؤلاء المذكورين تطهرًا لما علق بهم من درن مقالة أهل الإفك، وممن قال بذلك ابن إسحاق ورجحه ابن القيم[3]، وقال الحافظ ابن حجر: هو الصحيح المعتمد[4].

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (9749)، من طريق محمد بن أبي يحيى الأسلمي. وأحمد (24066)، وأبو داود (4450)، والترمذي (3181)، والنسائي في «الكبرى» (7311)، وابن ماجه (2567)، والطبراني في «المعجم الكبير» (263/23)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (158/2)، من طريق محمد بن إسحاق: كلاهما عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة.

وفي عنعنة ابن إسحاق، ولكن قد جاء التصريح بالسماع في رواية البيهقي (250/8) فزالت شبهة تدليسه.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.

قلت: بل قد جاء من طريق محمد بن أبي يحيى الأسلمي في مصنف عبد الرزاق، وقد تقدم ذكره. وأخرجه أيضًا الواقدي في «المغازي» (434/2)، من طريق عباد بن عبد الله ابن الزبير عن عائشة. ويشهد له حديث أبي هريرة.

(2) قال السيوطي في «الدر المنثور» (146/6) بسند حسن.

(3) «زاد المعاد» (236/3).

(4) «فتح الباري» (495/10): وخالف في ذلك الواقدي: قال: «ويقال: إن رسول الله ﷺ لم يضربهم، وهذا أثبت عندنا» كما في «المغازي» (434/1)، وتابعه من المعاصرين محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» (177/18)، وقال: وهو الأصح من الروايات». والأستاذ محمد الصادق عرجون في كتابه «محمد رسول الله» =

وقد عد الإسلامُ قذف المحصنات من الكبائر الموجبة لسخط الله وعذابه لأنها تولد أخطارًا جسيمة في المجتمع، فكم من فتاةٍ عفيفةٍ شريفةٍ لاقت حتفها لكلمة قالها فاسقٌ، فصدقها فاجر ولاكتها الألسنةُ في المجتمع.

لذلك وصيانة للأعراض، وحماية لأصحابها من إهدار الكرامة قطع الإسلامُ ألسنةَ السوءِ بأن شدد في عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنا:

ثمانين جلدة، وهي **عقوبة جسدية**.

مع إسقاط الشهادة، وهي عقوبة معنوية تهدر كرامة القاذف.

وتسقط اعتباره، مع وصفه بالفاسق، وهي عقوبة دينية.

وغرض الإسلام من هذه العقوبة: صيانة الأعراض وحفظ كرامة أفراد الأمة، وتطهير المجتمع مع مقالة السوءِ لتظل الأسرةُ المسلمةُ موفورةَ الكرامة، مصونة الجناب، بعيدة عن ألسنة السفهاء، وبهتان المغرضين[1].

وهل أقيم الحدُ على زعيم المنافقين ابن أبي؟

الأحاديث الصحيحة لم تتعرض لذكره فيمن أقيم عليهم الحدُ، وقد جزم

=

(235/4). قال رحمه الله: «لم يثبت عندنا أن أحدًا من خلص المؤمنين صرح بالإفك تصريحًا يوجب حد القذف، وإنما الذي كان إنما هو إرجاف من المنافقين ومرضى القلوب أفصحوا في إرجافهم عن الافتراء والبهتان والإفك: ليحزنوا الذين آمنوا، ويدخلوا عليهم من الفتنة والشك ما يشغلهم عن نشر دعوتهم وتبليغ رسالتهم وليسيئوا إلى رسول الله ﷺ في أحب الناس إليه، بألأم ما عرف من لؤم الطبائع البشرية، وأخبث ما تلوث به سيرة أطهر الطاهرات، وأفضل الفضليات».

(1) انظر في ذلك «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» للشيخ محمد علي الصابوني (76/2).

عددٌ من العلماء بأنه لم يقم عليه الحد، ومنهم القرطبي وابن القيم وحجتهم في ذلك: أن الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار، وهو لم يقر بالكذب، ولا شهد به عليه أحد، بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه[1]، وقيل: أقيم عليه الحد، ومستند هذا القول: روايات ضعيفة لا تخلو كل منها من مقال[2].

الدرس الرابع عشر: ونشهد في حادثة الإفك أثر النفاق السيئ في حياة المسلمين، ودور المنافقين في زعزعة المجتمع الإسلامي عن طريق بث الأراجيف، وإشاعة الأكاذيب واتهام البرآء وزرع الشكوك.

إن معارك النفاق النفسية والإعلامية لا تقل خطورة عن المعارك العسكرية، بل تفوقها أحيانًا في أثرها وخطرها.

«ولعل حادثة الإفك كانت معركة من أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ لكنه خرج منها منتصرًا، كاظمًا لآلامه الكبار، محتفظًا بوقار نفسه، وعظمة قلبه وجميل صبره فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره، وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها من أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تَعْرض له في تاريخه..»[3].

«ولكن الله تعالى أراد أن يجعل منها نكالًا للنفاق والمنافقين، وللذين في قلوبهم مرض لا يشفيه إلا الإرجاف بالسوء وإشاعة الأكاذيب والبهتان في

(1) انظر «الجامع لأحكام القرآن» 201/12، و«زاد المعاد» لابن القيم (236/3).
(2) انظرها في كتاب «مرويات غزوة بني المصطلق» لإبراهيم قريبي ص 242 - 243.
(3) انظر «الظلال» (2501/4) بتصرف.

مجتمع المؤمنين»[1].

الدرس الخامس عشر: كما نتعلم من حادثة الإفك درسًا أخلاقيًّا بليغًا في أدب اللسان وصونه من أن يتكلم بما لا يعينه أو أن يخوض فيما لا يعلمه.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: «وفي هذا من الأدب الأخلاقي: أن المرء لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه، وإلا فهو أحد رجلين: أفن الرأي يقول الشيء قبل أن يتبين له الأمر فيوشك أن يقول الكذب فيحسبه الناس كذابًا... أو رجل مموه مراء يقول ما يعتقد خلافه، وقد قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[2].

الدرس السادس عشر: كما نتعلم من حادثة الإفك درسًا عمليًّا في الإيمان واليقين، وذلك من خلال موقفين من مواقف السيدة عائشة.

الموقف الأول: قبل نزول براءتها عندما قالت: «والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، وذلك بعد أن فاتحها رسول الله ﷺ بالأمر، وأمرها بالاعتراف، وأجابته بما أجابته به ثم استشهدت بهذه الآية التي تدل على عمق إيمانها بالله واستعانتها به.

والموقف الثاني: بعد نزول براءتها وقول النبي ﷺ: أبشري يا عائشة أما الله

(1) «محمد رسول الله ﷺ» (224/4).
(2) «التحرير والتنوير» (178/19).

عز وجل فقد برأك، تقول، قالت أمي: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله.

إن حمد رسول الله ﷺ من حمد الله، ولكن عائشة من فرط تعلقها بالله، ومن ثم فرحها بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليها أبت أن تحمد إلا الله.

قال ابن القيم: «ومن تأمل قول الصديقة: «ولا أحمد إلا الله»، علم معرفتها، وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالًا للحبيب على حبيبه، ولاسيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال فوضعته موضعه..»[1].

وقال الحافظ ابن حجر: «وفيه - أي في الحديث الإفك من الفوائد - أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج.

وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خف عنه الهمُ والغمُ، كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها: والله المستعان»[2].

وقال الآلوسي رحمه الله: «ثم إن الذي أراه: أن إنزال هذه الآيات في أمرها لمزيد انقطاعها رضي الله عنها إلى الله عز وجل مع فضلها وطهارتها في نفسها»[3].

(1) «زاد المعاد» (236/3).
(2) «فتح الباري» (498/10).
(3) «روح المعاني» (195/10).

الدرس الرابع: ونتعلم من حادثة الإفك درسًا في الورع والتقوى، هذا الدرس سطرته أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

فعندما سألها رسول الله ﷺ عن أمر عائشة أجابته بجواب ملؤه الطهر والورع والعفة والنزاهة، قالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا، رغم ما بينهما من منافسة في طلب الحظوة عند رسول الله ﷺ، تقول السيدة عائشة: فعصمها الله عز وجل بالورع، «والورع في الأصل: الكف عن الحرام، والتحرج منه، ثم استعير للكف عن المباح والحلال، وقد قيل: مِلاك الدين الورع»(1).

وكم كان لهذا الموقف النبيل من أثر طيب في نفس السيد عائشة مما جعلها تثني عليها الثناء العطر في حياتها وبعد مماتها.

ومن ذلك قولها: «ما رأيت قطُّ خيرًا في الدين من زينب وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم وأعظم أمانة وصدقًا»(2). ولا شك أن ذلك كله أثر من آثار الورع والتقوى في حياة الإنسان، وتصور لو أنها لم تقف هذا الموقف، ووقفت موقف أختها حمنة التي هلكت فيمن هلك في حادثة الإفك؟

لا شك أنها كانت ستهلك مثل أختها وسينالها العتابُ والعقابُ، وما عصمها من ذلك كله إلا الورع والتقوى..

وكم بنا من حاجة إلى تلِي هذا الدرس من أم المؤمنين وتطبيقه عمليًّا في حياتنا وسلوكنا فنكف عن الحرام ونتحرج عن فعله، ونسعى لنكف عن كثير من المباحات التي تفضي بنا إلى أبواب الحرام.

---

(1) «النهاية» مادة: ورع.

(2) «أسد الغابة» لابن الأثير (126/6).

الدرس الثامن عشر: كما يستفاد من حادثة الإفك مشروعية التوبة، وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص.

ففي هذه الحادثة رغم خطورتها وبشاعتها نجد أن الله سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة أمام مَنْ بدر منه شيء من معصية الله، وذلك عندما قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وفي حديث الإفك نجد رسول الله ﷺ يخاطب السيدة عائشة قائلًا: «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**».قال القاضي عياض: «إنما أمرها أن تستغفر الله وتتوب إليه أي: فيما بينها وبين ربها فليس صريحًا في الأمر لها بأن تعترف عند الناس بذلك»(1). وقال الحافظ ابن حجر: «وفيه: أي في هذا الحديث من الفوائد: أن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز، ولو عرف أنه يصدق في ذلك ولا يؤاخذ على ما يترتب على اعترافه، بل عليه أن يقول الحق، أو يسكت، وأن الصبر تحمد عاقبته، ويغبط صاحبه»(2).

وها هو أبو بكر الصديق ﷺ كان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره، فلما شارك في الإفك قال أبو بكر: «والله لا أنفق على

(1) «فتح الباري» (490/10).

(2) المصدر السابق (498/10).

مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب الله يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح النفقة، وعفا عنه وصفح بعد توبته، وإقلاعه وندمه على ما بدر منه.

الدرس التاسع عشر: كما نتعلم من حادثة الإفك عدة أحكام شرعية تتعلق بالمرأة المسلمة، وهي بحد ذاتها تمثل جانبًا تطبيقيًّا لما كانت عليه المرأة من كرامة في عهد الرسالة.

والجميل في هذه الأحكام أنها جاءت عرضًا لترسم لنا صورة واضحة ودقيقة عن هذه الأحكام التي تعد بمثابة التطبيق العملي للقرآن.

وهي من الأهمية بمكان لأنها صدرت عن سيدة من سيدات بيت النبوة، وتحت نظر المصطفى عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وهذه الأحكام هي:

1- مشروعية القرعة بين النساء[1]، يدل على ذلك قول السيدة عائشة: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه...»

2- مشروعية السفر بالنساء حتى في الغزو، يدل على ذلك قولها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج بها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد

(1) لمزيد من البيان راجع الفقرة الخامسة من المبحث الخامس: تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الترفيهي.

ما أنزل الحجاب..» تعني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53].

وقول السيدة عائشة: وذلك بعدما أنزل الحجاب إلى إشارة إلى أن السفر بالنساء مشروع حتى لا يظن ظان بأن آية الحجاب نسخت حكم السفر بهن.

والمراد بالحجاب: حجاب النساء عن رؤية الرجال لهن، وهل المقصود بحجابهن في هذه الآية أشخاصهن أم أبدانهن؟

ذهب القاضي عياض إلى أن المقصود بالحجاب أشخاصهن.

لكن الحافظ ابن حجر خالفه في ذلك وذهب إلى أن المقصود بالحجاب أبدانهن، قال رحمه الله: «وقد كن بعد النبي ﷺ يحججن، ويطفن، وكان الصحابة , ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث، وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص، وقد قال ابن جريج لعطاء لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال: قد أدركت ذلك بعد الحجاب»(1).

مشروعية خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب، يدل على ذلك قولها: «وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون بأني فيه...»، ومن هؤلاء الذين يخدمون بعير عائشة: الصحابي الجليل أبو مويهبة مولى رسول الله ﷺ، قال البلاذري: شهد أبو مويهبة غزوة المريسيع، وكان يخدم بعير عائشة سماه

(1) «فتح الباري» (573/10).

الواقدي: أبو موهوبة.

ثم قال الحافظ ابن حجر: وكأنه في الأصل أبو موهوبة، ويصغر فيقال: أبو مويهبة[1].

4- جواز تستر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن بدليل ركوبها في الهودج.

5- توجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها، وبغير إذنٍ خاص من زوجها بل اعتمادًا على الإذن الأعم المستند إلى العرف العام، بدليل قولها: فقمت حين آذنوا بالرحيل، ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى الرحل...»، ويدل على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إنه قد أُذِن لكنّ أن تخرجن لحاجتكن**»[2].

6- جواز تحلي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها، يدل على ذلك قولها: «فلمست صدري، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع».

7- كما يؤخذ من الحديث صيانة المال ولو قل، للنهي عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر، ومع ذلك رجعت إلى المكان الذي كانت فيه أولًا، وقد حبسها ابتغاؤه فتأخرت عن الجيش وحصل لها ما حصل.

ولكن مع ملاحظة ألا تؤدي هذه الصيانة إلى الحرص الشديد على المال، فإن لذلك آفات.

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه - أي في الحديث من الفوائد -: شؤم الحرص على المال؛ لأنها لو لم تطل في التفتيش لرجعت بسرعة، فلما زاد على قدر

(1) «فتح الباري» (465/10).

(2) رواه البخاري (4795)، ومسلم (2170).

الحاجة أثر ما جرى»[1].وعُذر السيدة عائشة في التأخير: حرصها على عقد كانت أمها قد أدخلتها به على رسول الله ﷺ ولذلك تأخرت بسبب البحث عنه؛ لأنها تعتز به، تقول: «فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب».

8- مشروعية تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي، يدل على ذلك قولها: «فخمرت وجهي بجلبابي»؛ أي: غطيت وجهي بجلبابي عن نظر الأجنبي وهو هنا الصحابي الجليل صفوان بن المعطَّل، وموقف السيدة عائشة هنا هو تفسير عملي، وتطبيق واقعي لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ** ﴾ [الأحزاب: 59].ويدخل في مسمى إدناء الجلابيب: تغطية الوجوه، وممن فسره بذلك الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وعائشة، وهو رواية عن ابن عباس، وممن قال بذلك من المفسرين: الطبري[2]، والبغوي[3]، وابن الجوزي[4]، والرازي[5]،والقرطبي[6]، والشوكاني[7]، وغيرهم، وعن الحسن البصري: تغطي نصف وجهها.

---

(1) «فتح الباري» (496/10).
(2) «جامع البيان» (46/22).
(3) «معالم التنزيل» (376/6).
(4) «زاد المسير» (6/ 422).
(5) «التفسير الكبير» (231/25).
(6) «الجامع لأحكام القرآن» (243/14).
(7) «فتح القدير» (304/4).

«وإذا كان وجوه نساء النبي ﷺ عورة بالنسبة للأجانب من الرجال ومن أمهاتهم، فلأن يكون ذلك من بقية النساء عورة - أيضًا - من باب أولى»[1].

وقال الحافظ ابن حجر: «وقد قالت عائشة لما نزلت: «وليضربن بخمرهن على جيوبهن»، أخذن أزرهن من قبل الحواشي فشققنهن فاختمرن بها.

ولم تزل عادة النساء قديمًا وحديثًا يسترن وجوههن عن الأجانب، والذي ذكر عياض: أن الذي اختص به أمهات المؤمنين ستر شخوصهن زيادة على ستر أجسامهن»[2].

9. ويؤخذ من الحديث: حسن الأدب مع الأجانب خصوصًا النساء، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرها، وتأمن مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي: يدل على ذلك قول السيدة عائشة وهي تتحدث عن الصحابي الجليل صفوان: «فوالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها - أي ليكون سهلًا لركوبها، ولا يحتاج إلى مسها عند ركوبها - فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة.

وفي حديث أبي هريرة: فغطى وجهه عنها ثم أدنى بعيره منها.

---

(1) انظر كتاب «إلى كل فتاة تؤمن بالله» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص 46، بتصرف، وانظر في تفصيل ذلك كتاب «لباس التقوى والتحديات المعاصرة للمرأة المسلمة» للدكتور عيادة أيوب الكبيسي.

(2) «فتح الباري» (471/10)

قال شراح الحديث: «استعمل معها الصمت اكتفاءً بقرائن الحال مبالغة منه في الأدب، وإعظامًا لها وإجلالًا»[1].

10- ويؤخذ من الحديث: أن المرأة إذا خرجت لحاجة، فالأفضل أن تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها.

يدل على ذلك قولها: حتى خرجت بعدما نقهت - أي أفقت من مرضي، ولم تتكامل صحتي - وخرجت معي أم مسطح...»، وأم مسطح هي ابنة خال أبيها.

قال الحافظ ابن حجر: «فإن قيل: لِمَ لَمْ تستصحب عائشة معها غيرها - أي في حادثة الإفك - فكان أدعى لأمنها مما يقع للمنفرد، ولكانت لما تأخرت للبحث عن العقد ترسل من رافقها لينتظروها إن أرادوا الرحيل؟

والجواب: إن هذا من جملة ما يستفاد من قولها: وكنت جارية حديثة السن؛ لأنها لم يقع لها تجربة مثل ذلك»[2].

وفي حادثة الإفك ما جرى للسيدة عائشة درس أيما درس للزوجة المسلمة في هذا العصر.

11- ويؤخذ من الحديث: توقف خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها، ولو كان الخروج إلى بيت أبيها، يدل على ذلك قولها: فلما رجعت إلى بيتي، فدخل عليّ رسول الله ﷺ ثم قال: «**كيف تيكم؟**»، قلت: أتأذن لي

(1) «فتح الباري» (471/10).
(2) المصدر السابق (467/10).

أن آتي أبوي؟ فأذن لي رسول الله ﷺ.

وفي رواية: «قلت: أرسلني إلى بيت أبي؟ فأرسل معي الغلام»[1].

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: ينبغي للمرأة أن تحذر من الخروج مهما أمكنها، فإنها إن سلمت في نفسها لم يسلم الناس منها، فإذا اضطرت إلى الخروج بإذن زوجها..»[2].

12- ومن فوائد الحديث: فضيلة الاقتصار في الأكل وعدم الإسراف فيه للنساء وغيرهن، وأن لا يكثر منه بحيث يهبله اللحم؛ لأن هذا كان حالهن في زمن النبي ﷺ، وما كان في زمانه ﷺ فهو الفاضل[3].

الدرس العشرون: ونتعلم من حادثة الإفك درسًا تطبيقيًّا في معنى الإيمان بالقدرة خيره وشره، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن نهاية ما يمكن الوصول إليه في أمر القدر، ومطمح أنظار العلماء الراسخين في شأنه قد توقف عند قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].وقد جاءت هذه الحادثة نموذجًا تطبيقيًّا لهذا المبدأ المهم من أمر القدر؛ ذلك لأن الله تعالى قد حدثنا عن هذه الحادثة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ أجل، إن من يطلع على مبادي

(1) كما في رواية هشام بن عروة.

(2) «أحكام النساء» ص209 - 220.

(3) شرح صحيح مسلم للنووي (117/17).

هذه الحادثة يحسبها شرًا، وذلك «لما يرى في هذا الحادث الخطير من شدة البلاء لرسول الله ﷺ ولأم المؤمنين عائشة، ولأبويها وأمها، وخاصة المسلمين وعامتهم ما أقضَّ مضاجعهم حتى كشف الله الغمة وفرج الكربة...»[1].

لكن من يطلع على ما انتهت إليه هذه الحادثة، ويرى بأم عينيه ما غيبته الأقدار في طيات هذا البلاء من حكم وأحكام ربانية تمثل جوانب منهج الرسالة - وقد ذكرنا كثيرًا منها في هذا البحث - لعلم حقًّا بأنها كانت خيرًا لنا ما بقي في الحياة من يتلو آيات الله التي أنزلت في هذا الحدث الخطير[2].

ولعلماء التفسير كلام حول هذه الخيرية لا بأس من ذكره:

قال الزمخشري:

«ومعنى كونه خيرًا لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاءً مبينًا، ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها...»[3].

وقال أبو بكر بن العربي:

---

(1) انظر «محمد رسول الله ﷺ» (224/4) بتصرف.

(2) راجع المصدر السابق (224/4).

(3) الكشاف (222/3).

«حقيقة الخير ما زاد نفعه على ضره، وحقيقة الشر ما زاد ضره على نفعه، وأن خيرًا لا شر فيه هو الجنة، وشرًا لا خير فيه هو جهنم. ولهذا صار البلاء النازل على الأولياء خيرًا لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره - وهو الثواب - كثير في الآخرة، فنبه الله عائشة ومن ماثلها ممن ناله هَمٌّ من هذا الحديث: أنه ما أصابهم منه شر بل هو خير على ما وضع الله الخير والشر عليه في هذه الدنيا من المقابلة بين الضر والنفع ورجحان النفع في جانب الخير ورجحان الضر في جانب الشر»[1].

«وبعد إزالة خاطر أن يكون ذلك شرًّا للمؤمنين أثبت أنه خير لهم فأتى بالإضراب لإبطال أن يحسبوه شرًّا، وإثبات أنه خير لهم لأن فيه منافع كثيرة, إذ يميز به المؤمنون الخلص من المنافقين، وتشرع لهم بسببه أحكام تردع أهل الفسق عن فسقهم، وتتبين منه براءة فضلائهم، ويزداد المنافقون غيظًا، ويصبحون محقرين مذمومين، ولا يفرحون بظنهم حزن المسلمين فإنهم لما اختلقوا هذا الخبر ما أرادوا إلا أذى المسلمين، وتجيء منه معجزات بنزول هذه الآيات بالإنباء بالغيب»[2].

****

(1) «أحكام القرآن» (363/3).
(2) «التحرير والتنوير» (172/18).

المبحث السابع

أُسلوب القضاء العادل

حادثة كسر الإناء نموذجًا

ومن الأساليب التي كان يستعملها رسول الله ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية أسلوب القضاء العادل، وذلك بقوله للسيدة عائشة عندما كسرت إناء أم سلمة: «**إناء كإناء، وطعام كطعام**»، ما دام أن هذه المشكلة لها تعلق بحق الغير، وإليك بيان ذلك:

نص الحديث:

عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ عند إحدى أمهات المؤمنين، فأرسلت أخرى بقصعة فيها طعام، فضربت يد الرسول - أي الخادم - فسقطت القصعة فانكسرت، فأخذ النبي ﷺ الكسرتين فضم إحداهما إلى الأخرى، فجعل يجمع فيها الطعام، ويقول: «**غارت أمكم، كلوا**»، فأكلوا فأمسك حتى جاءت بقصعتها التي في بيتها، فدفعت القصعة الصحيحة إلى الرسول، وترك المكسورة في بيت التي كسرتها»[1].

(1) أخرجه أحمد (12027) (13772)، والدارمي في المسند الجامع (2761)، كتاب البيوع، باب: من كسر شيئًا فعليه مثله، والبخاري (2481، 5225)، كتاب النكاح، باب الغيرة، وابن أبي شيبة «المصنف» (215/14) برقم (18131)، وأخرجه أبو داود (3567) في كتاب البيوع والإجارات، باب فيمن أخذ شيئًا يغرم مثله،

=

وفي رواية الترمذي: فقال النبي ﷺ: «**طعام بطعام، وإناء بإناء**»[1].

وفي رواية عن عائشة: يا رسول الله، ما كفارته؟ قال: «**إناء كإناء، وطعام كطعام**»[2].

أولًا: تحديد اسم صاحبة القضية:

جاء في رواية الحديث قوله: (عند إحدى أمهات المؤمنين)، فمن هي؟

هي عائشة كما في رواية الترمذي، وأحمد بن حنبل، قال الطيبي: إنما أبهمت عائشة تفخيمًا لشأنها، وأنه مما لا يخفى ولا يلتبس أنها هي؛ لأن الهدايا إنما كانت تهدى إلى النبي ﷺ في بيتها[3].

ثانيًا: تحديد اسم مرسلة الطعام:

قوله: (فأرسلت أخرى)، وفي رواية البخاري: (فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين)، فمن هي المرسلة؟

هي أم سلمة: بدليل ما جاء في سنن النسائي عن أم سلمة: أنها يعني أتت بطعام في قصعة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء ومعها فهر، فقلقت به القصعة فجمع النبي ﷺ بين فلقتي القصعة، ويقول: «**كلوا، غارت أمكم**» مرتين، ثم أخذ رسول الله ﷺ قصعة عائشة

= والنسائي (3955) في كتاب عشرة النساء، باب الغيرة، واللفظ له، وابن ماجه (2334) في كتاب الأحكام، باب الحكم فيمن كسر شيئًا.

(1) (1359)، وقال: حديث حسن صحيح.

(2) أبو داود (3563)، والنسائي (3957).

(3) «فتح الباري» (602/6).

فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى قصعة أم سلمة عائشة[1].

وفي رواية: فصارت قضية: من كسر شيئًا فهو له، وعليه مثله[2].

وهناك أقوال أخرى في تبيين اسم المرسلة لا بأس من ذكرها، ومناقشتها:

1- قيل هي: زينب بنت جحش[3]، وذلك لما رواه ابن حزم في المحلى من حديث الليث بن سعد، عن جرير بن حازم عن حميد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: إن زينب بنت جحش أهدت إلى النبي ﷺ وهو في بيت عائشة ويومها جفنة...».

وهذا ضعيف من وجهين:

الوجه الأول: انفرد جرير بن حازم من بين جمع من الثقات في حديث أنس بذكر زينب علمًا بأنه قد جاء في حديث صحيح عن أم سلمة: أنها هي التي أهدت..، وصاحب القصة أضبط لها من غيره، لاسيما وأن هذه الحادثة وقعت في بيت النبي ﷺ، فهو شأن داخلي، فيؤخذ بقول من وقعت له، لا بقول من سمعها، ويزيد هذا تأكيدًا أن أكثر الرواة في حديث أنس لم يذكروا زينب، بل جاء الاسم مبهمًا فيه.

الوجه الثاني: جاء في بعض روايات الحديث، تحديد زمن وقوع هذه الحادثة، قال: (وذلك قبل أن يحتجبن)؛ كما في سنن الدارقطني[4]؛ أي: قبل نزول الحجاب، ومن المعلوم في أحداث السيرة النبوية أن الحجاب قد فرض في يوم

---

(1) رواه النسائي (3956)، كتاب عشرة النساء، باب الغيرة.

(2) سنن الدارقطني (153/4).

(3) انظر «فتح الباري» (602/6).

(4) (153/4).

زواجه ﷺ بزينب بنت جحش، قال ابن كثير في البداية والنهاية[1]: وهو الأشهر وهو الذي سلكه ابن جرير وغير واحد من أهل التاريخ، وعليه فهذه الحادثة وقعت في بيت رسول الله ﷺ ولم يكن قد تزوج بزينب أصلًا.

2- وقيل: هي صفية بنت حيي:

بدليل ما جاء عن جسرة بنت دجاجة، قالت عائشة: ما رأيت صانع طعام مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعامًا فبعثت به، فأخذني أَفْكَلٌ فكسرت الإناء، فقلت يا رسول الله: ما كفارة ما صنعت؟ قال: «**إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام**» رواه أبو داود[2]، والنسائي[3].

ويجاب عن هذا بجوابين أيضًا:

الجواب الأول: في سند هذا الحديث جسرة بنت دجاجة، جاء في تهذيب الكمال للمزي عن العجلي قوله - هي -: تابعية ثقة.

وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: مقبولة.

لكن عندها عجائب كما ذكر ذلك البخاري في (التاريخ الكبير)[4]، فأخشى أن يكون ذكر صفية في هذا الحديث من عجائبها.

الجواب الثاني: سياق الروايات في هذه الحادثة عمومًا تفيد أن ذلك كان قبل الحجاب، بل قد جاء التصريح بذلك في أحدها كما تقدم، وزواجه ﷺ من صفية كان بعد غزوة خيبر في السنة السابعة من الهجرة، وذلك بعد نزول

---

(1) (154/4).

(2) (3563).

(3) (3957). ومعنى «أفكل»، أي: رعدة كما في «النهاية» مادة: أفكل.

(4) (67/2).

الحجاب قطعًا.

ويبدو لي أنه لهذا السبب قال الحافظ ابن حجر عن هذه الرواية: إنها قصة أخرى، وهو احتمال وارد، لكنني لا أرجحه؛ لأنه قد جاء في إحدى روايات حديث أنس في جامع الترمذي[1]: أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الكفارة، وقد أجابها النبي ﷺ بالجواب نفسه، مما يدل على أن الحادثة واحدة.

ثم كيف يظن بالسيدة عائشة – وهي العالمة الذكية التي لا تعدل برضا رسول الله ﷺ أي أمر في هذه الحياة – أن تقع في هذه المخالفة مرة أخرى.

ثالثًا: تحديد زمن وقوع الحادثة:

وإذا ثبت ما رجحناه من أن صاحبة الطعام هي أم سلمة، فإننا نكون بذلك قد حددنا زمن وقوع هذه الحادثة، وهي ما بين السنة الرابعة والخامسة من الهجرة. ذلك لأن زواجه من أم سلمة كان في شوال من السنة الرابعة، وقبل هذا التاريخ لم تكن أم سلمة في بيت النبي ﷺ.

ولم تقع بعد السنة الخامسة؛ لأنه قد جاء في إحدى روايات الحديث: (وذلك قبل أن يحتجبن) وقد فرض الحجاب في يوم زواجه ﷺ من زينب، وكان ذلك بعد غزوتي الأحزاب وقريظة في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة على القول الراجح عند العلماء.

(1) (1359).

رابعًا: تحديد نوع الإناء، ونوع الطعام:

أما عن نوع الإناء، فقد جاء تحديد ذلك بقوله: (بقصعة فيها طعام) والقصعة بفتح القاف: إناء من خشب وجاء في رواية أخرى: صحفة، وهي: قصعة مبسوطة، وتكون من غير الخشب[1]، وهذا هو الراجح عندي بدليل انكسارها.

وأما نوع الطعام: فقد جاء التصريح به في رواية الدارمي[2] أنه الثريد.

بل جاء تعيينه في رواية الطبراني بأنه: خبز ولحم[3]، وجاء في رواية جرير ابن حازم عن حميد عن أنس: أهدت إلى النبي ﷺ جفنة من حيس[4].

خامسًا: تحديد صورة الحادثة:

قوله: «فضربت يد الرسول فسقطت القصعة وانكسرت».

وقولها: الرسول؛ أي: الخادم؛ كما في رواية البخاري[5].

---

(1) «فتح الباري» (603/6).

(2) في «المسند الجامع» برقم (2768)

(3) في «المعجم الأوسط» من طريق عبيد الله العمري عن ثابت عن أنس كما في «فتح الباري» (602/6)، وعبيد الله العمري ثقة ثبت كما في «التقريب» (4324).

(4) «فتح الباري» (206/6). والحيس هو: تمر ينزع نواه، ويدق مع أقط. - وهو لبن مجفف يابس مستحجر، يطبخ به - ويعجنان بالسمن، ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد، وربما جعل من سويق. انظر «النهاية» مادة: حسا، وأقط.

(5) (5225).

وفي رواية: فضربت بيدها، كما في رواية البخاري[1] أيضًا.

وفي رواية: فجاءت عائشة ومعها فهر ففلقت به القصعة وهي رواية أم سلمة عند أبي داود والنسائي.

فتحصل صورتان لفعل السيدة عائشة:

الصورة الأولى: أنها ضربت يد الرسول - أي الخادم - فسقطت القصعة فانكسرت.

والصورة الثانية: أنها ضربت بيدها الصحفة وكانت تحمل حجرًا فانشقت، ثم سقطت فانكسرت نصفين.

وهذا هو الراجح إذ ليس من المعقول أن تضرب يد الخادم، ولو فعلت لاقتص رسول الله منها، ولم يرد في روايات الحديث شيء من ذلك.

سادسًا: الأحكام المستنبطة من هذا الحديث:

1- الجانب التربوي:

نشهد في هذا الحديث أسلوبا تربويًّا رائعًا من أساليبه ﷺ في معالجة الخلافات الزوجية.

فالنبي ﷺ لم يعاقبها بادئ ذي بدء، ولم يعنفها بكلمة جارحة، بل ذهب ليعتذر لها، ويبين أن الذي حملها على ما قامت به هو غيرتها، فقال: «**غارت أمكم**...».

إنها كلمة رائعة يعلمنا رسول الله ﷺ من خلالها منهجًا في التعامل مع

(1) (2481).

الأحداث، وذلك في البحث عن الدوافع والأسباب، فإن الدافع له أثر كبير في تفسير الفعل.

والدافع هنا لكلا المتخاصمتين، هو: حب سول الله ﷺ ولا ينبغي أن يكون الحب سببًا للإساءة إلى المحبوب ولا يجزى الإحسان بالسيئة.

قال الحافظ ابن حجر: قوله «**غارت أمكم**...» اعتذار منه ﷺ لئلا يحمل صنيعها على ما يذم، بل يجري على عادة الضرائر من الغيرة، فإنها مركبة في النفس بحيث لا يقدر على دفعها[1].

وقال أيضًا: فيه إشارة إلى عدم مؤاخذة الغيراء بما يصدر منها لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة[2].

وفي هذا الحديث بيان لحسن خلقه، وإنصافه وحلمه ﷺ وهو نموذج من النماذج التطبيقية لخيرية رسول الله ﷺ في تعامله مع أهله، أليس قد قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[3]، فلم يستعمل رسول الله ﷺ أسلوب الضرب، ولم يزجر ولم يعنف.

إن أسلوبه ﷺ في معالجة هذا الخلاف المتمثل بالهدوء والتفهم لطبيعة المشكلة، بل وتبرير موقفها هو الذي دفع عائشة رضي الله عنها للتراجع والندم على ما بدر منها بعد شعورها بالذنب..

ثم بعد ذلك بادرت بالسؤال عما يكفر ذنبها، ويُرضي عنها رسول الله ﷺ تمام الرضا.

---

(1) «فتح الباري» (604/6).

(2) المصدر السابق (678/11).

(3) أخرجه الترمذي (3895)، عن عائشة، وقال: حديث حسن صحيح.

لكن ما دام أن هذه المشكلة لها تعلق بحق الغير – وهو هنا إتلافها لإناء أم سلمة – فقد قضى لها بالتعويض بإناء مماثل من بيت عائشة.

وقد شاءت إرادة الله أن تصبح هذه الحادثة موضع عناية القضاة والفقهاء والمحدثين، فتناولوها بالبحث والدراسة واستنباط الأحكام بل وأصبحت أصلًا من الأصول في باب ضمان المتلفات، ولا بأس أن ندرس هذه القضية بشيء من التفصيل:

2– القضاء النبوي:

جاء في هذا الحديث: أنه ﷺ قال لعائشة عندما سألت عن كفارة ما صنعت: إناء كإناء، وطعام كطعام.

وهو حكم قضائي صدر من النبي ﷺ في قضية مالية تتعلق بضمان المتلفات يدل على ذلك ما جاء في رواية الدارقطني:

فصارت قضية: من كسر شيئًا فهو له وعليه مثله[1]، ولهذا أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغضب، بل أخرجه الترمذي وابن ماجه في كتاب : الأحكام.

وإذا كان منهج المحدثين أن يستنبطوا الأحكام الفقهية من الحديث ويذكروها في الأبواب فإننا نلاحظ هنا في هذا الحديث أن أغلب المحدثين ممن أخرجه قد عنون الباب بما يفيد ذلك، ومن الأمثلة ما قاله الدارمي: باب من كسر شيئًا فعليه مثله، ثم قال: نقول بهذا. وقال البخاري: باب إذا كسر قصعة أو شيئًا، قال الحافظ ابن حجر: أي هل يضمن المثل أو القيمة؟

(1) سنن الدارقطني (153/4).

وقال أبو داود: باب من أفسد شيئًا يضمن مثله.

وقال ابن ماجه: باب الحكم فيمن كسر شيئًا.

وعليه فإن الحكم القضائي هو: أن من كسر قصعة أو شيئًا لغيره ضمن ما أتلفه، وهذا محل اتفاق بين الفقهاء بدلالة ظاهر الحديث، ولكن وقع الخلاف بينهم في طبيعة هذا الضمان هل هو بالمثل أو بالقيمة؟

ذهب الجمهور[1]: إلى أنه يقضى بدفع المثل، ولا يقضى بالقيمة إلا عند عدم المثل، ودليلهم عموم الحديث لكل من وقع له ذلك.

وذهب مالك: إلى أنه يقضى بدفع القيمة مطلقًا.

واعتذر بعض المالكية عن الأخذ بسبب ورود الحديث: بأنه واقعة عين لا عموم فيها، ولكن مما ينبغي ذكره هنا: أن الإمام مالك لم يترك العمل بالحديث مطلقًا، وإنما أوله، بينما حمله الجمهور على حقيقته ولم يأولوه.

قال ابن بطال: «وقيمة العدل في الحقيقة مثل»[2].

دليل هذا التأويل: حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**من أعتق شركًا له في عبد، فكان له مال يبلغ ثمن العبد، قوم العبد عليه قيمة عدل**...»[3]

قال القاضي عبدالوهاب المالكي: «فألزمه القيمة دون المثل. ولهذا قالوا: إن حكم النبي في ذلك هو من باب المعونة والإصلاح دون بت الحكم بوجوب المثل فيه؛ لأن ليس

(1) انظر «فتح الباري» (604/6).

(2) شرح صحيح البخاري لابن بطال (609/6).

(3) أخرجه البخاري (2524)، ومسلم (1501).

له مثل معلوم»[1].

ولكن يجاب: بأن القصعتين كانتا متماثلتين في القيمة بحيث كان كل منهما صالحة أن تكون بدلًا للأخرى»[2].

قلت: والراجح عندي هو قول الجمهور؛ لأنه موافق لمنطق العدالة، إضافة إلى أن يجمع بين القولين. هذا كله إذا أفسد المكسور، ولم يمكن إصلاحه، أما إذا كان الكسر خفيفًا يمكن إصلاحه فعلى الجاني أرشه - أي: التعويض-.

«وقد اتفق مالك والكوفيون والشافعي وأبو ثور فيمن استهلك ذهبًا أو ورقًا أو طعامًا مكيلًا أو موزونًا أن عليه مثل ما استهلك في صفته ووزنه وكَيله، قال مالك: وفرق بين الذهب والفضة والطعام، وبين الحيوان والعروض، العمل المعمول به، قال ابن المنذر: ولا أعلم في هذه خلافًا»[3].

أما من الناحية القانونية:

فقد جاء في القانون المدني الأردني مادة رقم (256): كل إضرار بالغير يلزم فاعله ولو غير مميز بضمان الضرر.

وفي المادة رقم (355) من القانون المذكور:

1- يجبر المدين بعد إعذاره على تنفيذ ما التزمه تنفيذًا عينيًّا متى كان ذلك ممكنًا.

---

(1) «الإشراف على مسائل الخلاف» ضمن: «الاتحاف بتخريج أحاديث الإشراف» للدكتور/ بدوي عبد الصمد الطاهر (1244/3).

(2) حاشية السندي على شرح السيوطي لسنن النسائي 70/7.

(3) شرح صحيح البخاري لابن بطال (610/6).

2- على إنه إذا كان في التنفيذ العيني إرهاق للمدين جاز للمحكمة بناءً على طلب المدين أن تقصر حق الدائن على اقتضاء عوض نقدي إذا كان ذلك لا يلحق به ضررًا جسيمًا.

***

المبحث الثامن

أسلوب التأديب بالدافع

ومن الأساليب التي استعملها رسول الله ﷺ في معالجة الخلافات الزوجية أسلوب التأديب بالدفع، يدل على ذلك ماجاء:

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ألا أحدثكم عن رسول الله ﷺ وعني؟

قلنا: بلى.

قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب، فوضع نعليه عند رجليه، ووضع رداءه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فلم يلبث إلا ريثما ظن أني قد رقدت.

ثم انتقل رويدًا، وأخذ رداءه رويدًا، ثم فتح الباب رويدًا، وخرج فأجافه[1] رويدًا.

قالت: وجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنَّعتُ إزاري، وانطلقت في أثره.

فجاء - ﷺ - البقيع، فرفع يديه ثلاث مرات، وأطال القيام ثم انحرف، فانحرفت، فأسرعت، وهرول، فهرولت، فأحضر، فأحضرت، وسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل

(1) فأجافه: أي فأغلقه.

فقال: «**مالك يا عائشة، حشيا رابية؟**»(1).

قلت: لا شيء يا رسول الله.

قال: «**لتخُبريني، أو ليُخبرِنّي اللطيف الخبير**».

قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فأخبرته الخبر.

قال: «**فأنت السواد الذي رأيتُ أمامي؟**».

قلت: نعم.

قالت: فلهدني لهدة في صدري أوجعتني(2).

ثم قال: «**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟!**»(3).

قالت: مهما يكتم الناس، فقد علمه الله.

قال: «**نعم، فإن جبريل أتاني حين رأيت، ولم يكن يدخل عليك، وقد وضعت ثيابك، فناداني فأخفى منك، فأجبته، فأخفيتُ منك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي. فقال: إن ربك يأمرك**

---

(1) قوله: حشيا: بوزن فعلى؛ أي: مالك قد وقع عليك الحشا: وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه، وللمحتد في كلامه. من ارتفاع النفس، وتواتره»؛ «النهاية»، مادة: حشا.

(2) قولها لهدني: اللهد هو: الدفع الشديد في الصدر كما في «النهاية» مادة: لهد، وجاء في رواية «مسند» أحمد (25855): فلهزني في صدري لهزةً أوجعتني» واللهز: هو الضرب بجمع الكف في الصدر، كما في «النهاية» مادة: لهز. وقيل اللهز: الدفع والضرب وانظر «لسان العرب» لابن منظور، مادة: لهد: ولهز.

(3) قال السندي: أن يحيف: من الحيف، بمعنى الجور، أي أن يدخل الرسول في نوبتك على غيرك.

أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم...»[1].

والشاهد في هذا الحديث قول السيدة عائشة: «فلهدني لهدة في صدري أوجعتني».

واللهد كما قال علماء اللغة هو: الدفع الشديد في الصدر.

قال العلامة السندي رحمه الله: وهذا كان تأديبًا لها من سوء الظن[2].

وهذا الأسلوب يقصد منه التعبير عن الغضب الشديد، وعدم الرضا عن تصرف سيء بدر من الزوجة، فهو نوع من الجدية في معالجة موقف ينبغي ألا يتكرر.

إن هذه الحركة تعبير مادي محسوس ينبه الزوجة إلى خطأ تصرفها، وهو عكس المس باليد الذي يعني عادة التعبير عن المحبة والرضا.

إن الحياة الزوجية ينبغي أن تقوم على الثقة المتبادلة، وأما سوء الظن فلا ينبغي أن يكون له موقع محترم في حياة الزوجين، وإلا تعرضت الحياة الزوجية للتصدع والانهيار.

وما هذا الدفع في صدر الزوجة إلا لتنبيهها على خطورة تصرفها الذي قد يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها.

ويبدو لي أن هذا الأسلوب هو البيان النبوي لمعنى الضرب في القرآن الكريم، وفي هذا الإطار نفهم قول الله تعالى: ﴿وَالَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ

(1) أخرجه أحمد (25885)، ومسلم (974) (103)، والنسائي في المجتبى (91/4)، (73/7)، وفي الكبرى (2175)، (8861)، وابن حبان (7110).

(2) انظر حاشية «مسند» أحمد (47/43).

﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: 34][1].

«فليس المراد من «الضرب» الإيلام والأذى الجسدي والإهانة لكي تخضع المرأة للرجل، وتنقاد على كره منها لرغباته».

وهل مثل هذا القهر والإخضاع بوسائل الألم والمهانة يعين نفسيًّا على توليد مشاعر المحبة والرحمة بين الأزواج، ويحكم صلات الولاء والانتماء بينهما، ويقوي دوافع العفة وحفظ الغيب, ويحمي كيان الأسرة من الانهيار والتفكك؟!

وإذا كان الإسلام قد أعطى للمرأة حق «الخلع»، فلا شك أن الضرب بمعنى الأذى الجسدي لا مجال له في الحياة الزوجية»[2].

(1) وللتوسع في الاطلاع على موضوع «الضرب» كوسيلة من وسائل التأديب يرجع إلى كتاب «المفصل في أحكام المرأة والأسرة في الشريعة الإسلامية» للدكتور عبد الكريم زيدان (315/7)، فما بعدها.

(2) انظر بحث «ضرب المرأة كوسيلة لحل الخلافات الزوجية» للدكتور عبد الحميد أبو سليمان المنشور في مجلة المسار الصادرة عن مركز التراث والبحوث اليمني، العدد الرابع سنة 2001، وهو معنى جيد.
لكنه لم يرتضِه بحجة أنه يترك ظلالًا، وإشارات وتعللات وثغرات سمحت في الماضي – ولن يتورع كثير من الناس مستقبلًا كما في الماضي – من استغلالها وإساءة فهمها، واتخاذها ذريعة إلى الأذى والضرر مستدلًّا على قوله هذا بأن معاني الضرب في السياق القرآني هي بمعنى العزل والمفارقة والإبعاد والدفع؛ أي: بالمعنى المجازي.
وهو تأويل بعيد جدًّا، لا نوافقه عليه؛ إذ العدول عن الحقيقة إلى المجاز يحتاج إلى قرائن تؤيده، ولم يأتنا بقرينة تؤيد دعواه بصرف الآية عن معناها الحقيقي إلى المجاز الذي ذهب إليه.

ومن هنا نفهم تأويل ابن عباس رضي الله عنهما عندما فسر الضرب بمعني المس بالسواك[1]، فهذا المعنى ليس من باب الضرب بمعنى الأذى الجسدي، وإنما تعبير مادي بالحركة كناية عن الجدية وعدم الرضا.

***

(1) قال السيوطي في «الدر المنثور» (523/2): وأخرج ابن جرير - أي الطبري - عن عطاء قال: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال: بالسواك ونحوه.

وقد جاء تقييد «الضرب» بكونه غير مبرح في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه (3087).

المبحث التاسع

قصة التحريم نموذجًا

أسلوب الهجر

من الأساليب التي استعملها رسول الله ﷺ في حل المشكلات الزوجية بعد العظة والعتاب الجميل: «أسلوب الهجر».

«والهجر – ولاسيما الهجر في المضاجع – عقوبة نفسية بالغة، وليست عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة، فإن فوات السرور والمتعة أيامًا لا يؤلم المرأة هذا الإيلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق.

فأبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره، وتشككه في صميم كيانه: في المزية التي يعتز بها، ويحسبها مناط وجوده وتكوينه.

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له، وأنها غالبته بفتنتها، وقادرة على تعويض ضعفها بما تبثه فيه من شوق إليها، ورغبته فيها.

فليكن له ما شاء من قوة، فلها ما تشاء من سحر وفتنة، وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم، وحسبها أنها لا تقاوم بديلًا في القوة والضلاعة في الأجساد والعقول.

فإذا قاربت الرجل مضاجعةً له، وهي في أشد حالاتها إغراء بالفتنة ثم لم يبالها، ولم يؤخذ بسحرها فما الذي يقع في وقرها وهي تهجس بما تهجس به في صدرها؟

يقع في وقرها أن تشك في صميم أنوثتها، وأن ترى الرجل في أقدر حالاته جديرًا بهيبتها وإذعانها، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة، ولا بغلبة الرغبة.

فهو مالك أمره إلى جانبها، وهي إلى جانبه لا تملك شيئًا إلا أن تثوب إلى التسليم، وتفر من هوان سحرها في نظرها، قبل فرارها من هوان سحرها في نظر مضاجعها.

فهذا تأديب نفس، وليس بتأديب جسد، بل هذا هو الصراع الذي تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح؛ لأنها جربت أمضى سلاح في يديها فارتدت بعده إلى الهزيمة التي لا تكابر نفسها فيها.

فإنما تكابر ضعفها حين تلوذ بفتنتها فإذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذاك.

وهنا حكمة العقوبة البالغة التي لا تقاس بفوات متعة، ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة، إنما العقوبة إبطال العصيان، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه، وغاية قوة من يعصيه.

والهجر في المضاجع هو مثابة الرجوع إلى هذا الإحساس»[1].

والهجر: إما أن يكون في المضاجع وهو أشد، وإما أن يكون خارج البيت

---

(1) «عبقرية محمد» ﷺ للأستاذ عباس محمود العقاد ص 124.

وهو أخف، ومن رحمة النبي ﷺ بأزواجه أنه هجرهن خارج البيت، وقد عنون البخاري رحمه الله لبعض الأحاديث الواردة في قصة الهجر بقوله: «باب هجرة النبي ﷺ نساءه في غير بيوتهن».

قال المهلب – أحد شراح الحديث –: هذا الذي أشار إليه البخاري كأنه أراد أن يَسْتَّن الناس بما فعله النبي ﷺ من الهجر في غير البيوت رفقًا بالنساء؛ لأن هجرانهن مع الإقامة معهن في البيوت آلم لأنفسهن، وأوجع لقلوبهن بما يقع من الأعراض في تلك الحال، ولما في الغيبة عن الأعين من التسلية عن الرجال».

لكن الحافظ ابن حجر له رأي آخر في الموضوع، قال رحمه الله: «والحق أن ذلك – أي الهجر – يختلف باختلاف الأحوال، فربما كان الهجران في البيوت أشد من الهجران في غيرها، وبالعكس.

بل الغالب أن الهجران في غير البيوت آلم للنفوس وخصوصًا النساء لضعف نفوسهن»(1).

ما المراد من الهجران:

قال ابن حجر رحمه الله: «اختلف أهل التفسير في المراد من الهجران، فالجمهور على أنه ترك الدخول عليهن، والإقامة عندهن على ظاهر الآية، وهو

---

(1) انظر «فتح الباري» (212/9). وأما ما ذهب إليه الدكتور عبد الحميد أبو سليمان من تفسير «الضرب» بمعنى المفارقة والترك والاعتزال فرأيٌ لم يقل به أحد من علماء الأمة، مع مخالفته لقواعد اللغة، وضوابط التفسير. والغريب أنه استدل على رأيه المذكور بهجر النبي ﷺ نساءه شهرًا!!.

انظر بحثه «ضرب المرأة: كوسيلة لحل الخلافات الزوجية» المنشور في مجلة «المسار» الصادرة عن مركز التراث والبحوث اليمني، العدد الرابع سنة 2001م.

من الهجران، وهو البعد.

وظاهره: أنه لا يضاجعها، وقيل: المعنى يضاجعها ويوليها ظهره...»، وقد استعمل النبي ﷺ أسلوب الهجر في قصة التحريم، ولهذا لابد من ذكر هذه القصة كنموذج على هذا الأسلوب، وسيرى القارئ الكريم أني توسعت في بحث هذه القصة؛ وذلك لأنها من أهم المشكلات التي أثيرت في البيت النبوي.

وقد اتخذ النبي ﷺ هذا القرار بعد خلافات متعددة سببتها الغيرة، وكان آخر هذه الخلافات إفشاء سره من قبل حفصة رضي الله عنها، مما أغضب النبي ﷺ من هذا التصرف الخطير الذي يؤدي إلى تدمير الأسرة عن طريق الكشف عن أسرارها، وإظهار خصوصياتها، فلابد من التأديب إذًا.

***

قصة التحريم نموذجًا

التمهيد:

قصة التحريم من أهم الحوادث التي حدثت في بيت النبوة، وتبرز أهميتها في كونها تبين بجلاء حكمة النبي ﷺ في إدارة الأزمات، وحل المشكلات الزوجية، ولهذا كان من الضروري بمكان أن نقف عندها طويلًا محللين ودارسين لنستفيد منها في معالجة مشكلاتنا الزوجية، وخلافاتنا الأسرية.

ولابد لي قبل أن أبدأ بالحديث عن هذه القصة من تمهيد أبين فيه الظروف المحيطة بالمدينة قبيل وقوع هذه الحادثة، ثم أتناول الحديث عن أوضاع بيت النبوة من الداخل، وأصف الأجواء التي سادت ذلك البيت الكريم في الفترة التي سبقت قصة التحريم.

أولًا: الظروف المحيطة بالمدينة قبيل حادثة التحريم:

في أواخر سنة ثمان من الهجرة عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن فتح الله عليه مكة، وبعد انتصاره في حنين، وحصاره الطائف، عاد إلى المدينة والأنصار والمهاجرون معه ليطمئنوا إلى شيء من الراحة بعد صراع مرير مع مشركي قريش دام أكثر من عشرين عامًا.

وقد صور لنا سيدنا عمر رضي الله عنه في حديثه عن قصة التحريم هذا الوضع أتم تصوير عندما قال:

«وكان من حول رسول الله ﷺ قد استقام له إلا ملك غسان بالشام كنا

نخاف أن يأتينا»[1].

ولكن ما إن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة إلا وبدأ الصراع الجديد يشتد مع النصرانية متمثلة بالروم، والقبائل العربية الموالية لها كغسان.

وكانت أول مواجهة مع الروم قد وقعت في منتصف السنة الثامنة من الهجرة واليت سميت بغزوة مؤتة، لكنها كانت مواجهة محدودة أراد النبي ﷺ منها أن يفهم الروم وقبيلة غسان الموالية لها عدم رضاه عن تصرفهم الأحمق عندما أقدموا على قتل أحد سفرائه إليهم ألا وهو الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي، وليس له من سبب سوى الغرور الذي أصابهم بعد انتصارهم على دولة فارس.

ولكن هل ستقف دولة الروم وعملاؤها مكتوفي الأيدي أمام هذا التهديد القادم من المدينة؟ ولذلك بدأت تعد العدة للهجوم على المدينة.

إذًا كانت المدينة في تلك الفترة تعيش هذه الأجواء، وتسود في حالة من الترقب والحذر الشديدين.

وقد صور لنا هذا الوضع أتم تصوير سيدنا عمر في حديثه عن قصة التحريم عندما قال: «وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته، فرجع إلينا عشاء، فضرب بابي ضربًا شديدًا، ففزعت، فخرجت إليه، فقال: قد حدث اليوم أمر عظيم!

قلت: ما هو؟ أجاء غسان؟

(1) رواه البخاري (5843).

قال: لا، بل أعظم من ذلك وأهول؛ اعتزل النبي ﷺ أزواجه..».

وفي رواية: «ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسان، ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه»[1].

وإذا كان هجوم غسان - وهي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة - أمرًا خطيرًا - فإن اضطراب بيت رسول الله ﷺ أشد خطرًا، وأكبر هولًا في نظر أصحاب رسول الله ﷺ.

مما يوحي بأهمية استقرار الأسرة بشكل عام، بحيث لا تقل عن أهمية استقرار الدول.

ثانيًا: قضية «الغيرة» وآثارها في بيت رسول الله ﷺ قبيل قصة التحريم:

ولابد لنا ونحن نتحدث عن بيت النبوة أن نشير إلى أمر كان له الأثر البالغ في كثير من الخلافات التي حدثت في هذا البيت الكريم..

ألا وهو أمر الغيرة الذي ظهر في صورة حزبين يكيد كل حزب للآخر، وليس لهن من دافع سوى حبهنَّ لهذا النبي عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم.

وكيف لا يغرن على زوج مثل رسول الله ﷺ، هاهي السيدة عائشة تحدثنا عن ذلك - وقد خرج رسول الله ﷺ من عندها ليلًا - قالت: فغرت، فجاء فرأى ما أصنع.

فقال: «**يا عائشة: أغرت؟**».

(1) جزء من حديث رواه البخاري (4913).

فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟!»[1].

إنه زوج كريم لم يجدن فيه سوى الحب والعطف، والرحمة والحنان.

ولقد كان يعيش في بيت النبوة تسع زوجات تزوجهن بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وهن:

سودة بنت زمعة القرشية السيدة النبيلة.

ثم عائشة بنت أبي بكر أحب نسائه إليه، وأفقه نساء الأمة على الإطلاق ثم حفصة بنت عمر الذي أعز الله به الإسلام.

ثم أم سلمة بنت أبي أمية زاد الركب السيدة المحجبة الطاهرة.

ثم زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ.

ثم جويرية بنت الحارث المصطلقية وكانت من العابدات.

ثم أم حبيب بنت أبي سفيان السيدة المحجبة بنت عم رسول الله ﷺ ثم صفية بنت حيي بن أخطب: الشريفة العاقلة ذات حسب وجمال ودين.

ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكانت من سادات النساء.

ومن سرارية: مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام[2].

إن بيت النبوة هو خير البيوت، وأطهرها، وأفضلها وإن أمهات المؤمنين هن خير النساء، لكن قد يقع لإحداهن ما يقع لسائر البشر، وقد يعتري إحداهن ما يعتري النساء من غيرة، أليس قد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب الغيرة**

---

(1) رواه مسلم (2815).

(2) انظر تراجمهن في «أسد الغابة» (158/6، 192، 340، 126، 56، 116، 169، 261)، والجزء الثاني من «سير أعلام النبلاء»، و«الإصابة» لابن حجر رحمه الله.

على النساء»[1].

ويخطئ من يجردهن من بشريتهن، ومن يدقق في حياتهن مما جاء في مصادرنا المعتمدة يجد ضروبًا من المغاضبة والمنافسة، وألوانًا من الغيرة التي تحتدم حتى تجاوز المدى، وتجمع بهن حتى تكلفه ﷺ من أمرهن شططًا[2].

ونعود إلى قصة التحزب كيف تشكلت؟ وما هي آثاره في بيت النبوة عليه الصلاة والسلام.

عن عائشة أن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة فإذا كانت عند أحدهم هديةٌ، يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة، بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة؛ فكلم حزب أمِّ سلمة فقلن لها: كلمي رسول الله ﷺ يُكَلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هدية فليُهدهِ إليه حيث كان من بيوت نسائه؛ فكلمتهُ أمُّ سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئًا، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها: كلميهِ حتى يكلمك، فدار إليها فكلمته، فقال لها: «**لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأةٍ إلا عائشة**» قالت: فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

(1) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (679/11): أخرجه البزار وأشار إلى صحته، ورجاله ثقات.

(2) انظر «سيدات بيت النبوة» ص 400 د. عائشة عبد الرحمن.

ثم إنهن دعونَ فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تقول: إن نساءك ينشُدْنَكَ الله العدل في بنت أبي بكر، فكلمته، فقال: «**يا بنيَّةُ، ألا تحبين ما أُحِبُّ؟**» قالت: بلى.

فرجعت إليهنَّ فأخبرتهنَّ. فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع.

ثم أرسلن زينب بنت جحش، فأتته فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنَكَ الله العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظرُ إلى عائشة هل تكلمُ، قال: فتكلمت عائشة ترُدُّ على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة، وقال: «**إنها بنتُ أبي بكرٍ**»[1]، وفي رواية مسلم: فقال رسول الله ﷺ وتبسم: «**إنها ابنة أبي بكر**»، وفي رواية أحمد: قالت: فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه»[2].

ولا تحسبن أن هذا الخلاف بين السيدتين عائشة وزينب سوف يؤثر على علاقتهما سلبًا، وإن أردت الدليل على ذلك فاستمع إلى شهادة السيدة عائشة في زينب، وماذا تقول فيها: ولم أر امرأة قطُّ خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في

---

(1) رواه البخاري (2581)، كتاب الهبة، باب من أهدى إلى صاحبه، وتحرى بعض نسائي دون بعض.

وبرقم (3775)، كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها.

(2) رواه أحمد (24620)، وابن ماجه (1981)، والنسائي في السنن الكبرى (8865)، وحسن الحافظ ابن حجر إسناده كما في «فتح الباري» (99/5).

العمل، الذي تصَّدقُ به، وتَقَّربُ به إلى الله تعالى ماعدا سَوْرةً من حدٍّ كانت فيها، تسرع منها الفيئة[1].

منزلة عائشة عند رسول الله ﷺ

من هذا النص يتبين لنا منزلة عائشة، وأنها حائزة فضل السبق عند النبي ﷺ، ولها المنزلة الرفيعة في قلبه، ولها الحظوة التامة عنده لمواصفات عالية اتصفت بها، وخصال رفيعة تحلت بها.

وهو أمر عرَفه أصحاب النبي ﷺ «ولهذا كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ»[2].

وكان الحزب الآخر يرقب الوضع باهتمام، ويرى ما لعائشة من منزلة في قلب رسول الله ﷺ، أما أن تستأثر بتلك الهدايا دونهم فهو أمر لابد من تغييره، ولكن أنى لهن أن يغيروه وهو خارج عن إرادة عائشة، وعن إرادة النبي ﷺ، ولكن بذلك محاولات جادة في تغيير ذلك ولكنها لم تكن ناجحة.

وإذا كانت عائشة هي الزوجة المفضلة أحظاهن عند رسول الله ﷺ، فإنها كانت من بينهن أشدهن غيرة عليه، ونضالًا في سبيل الاستئثار بحبه.

واتخذت من حفص بنت عمر موضع سرها، ومحل ثقتها متخذة من تقارب أبويهما سبيلًا إلى هذا التودد، ومن يومها بدأت ملامح تشكيل ذلك الحزب المذكور.

(1) رواه مسلم (2441).
(2) رواه البخاري (2574).

ولا بأس أن أذكر أمثلة على ذلك:

موقف عائشة وحفصة من أم سلمة رضي الله عنهن:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما تزوج النبي ﷺ أم سلمة، حزنت حزنًا شديدًا، لما ذكروا لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيتها أضعاف ما وصفت لي في الحسن، فذكرت ذلك لحفصة.

وكانتا يدًا واحدة - فقالت: لا والله، إن هذه إلا الغيرة، ما هي كما تقولين، وإنها لجميلة، فرأيتها بعد، فكانت كما قالت حفصة، ولكني كنت غَيْرَى»[1].

موقفهما من زينب بنت جحش رضي الله عنهن:

ومن القصص التي ظهرت فيها آثار الغيرة: قصة شرب العسل.

فما هي يا ترى أخبار هذه القصة؟

جاء في الحديث الذي رواه البخاري في «صحيحه»، من طريق عبيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلًا عند زينب ابنة جحش، ويمكث عندها، فواطيت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له:

أَكَلْتَ مغافير؟ والمغافير ثمر حلو كريه الرائحة، وكان عليه الصلاة والسلام لا يطيق الرائحة الكريهة.

---

(1) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (94/8)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (209/2).

إني أجد منك ريح مغافير.

قال: «**لا، ولكني كنت أشرب عسلًا عند زينب ابنة جحش فلن أعود، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحدًا**»[1].

وقد جاءت هذه القصة بصورة أوضح في رواية ثانية من طريق عروة بن الزبير عن خالته عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر، فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فغرت، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأةٌ من قومها عُكة من عسل، فسقت النبي ﷺ، منه شربة، فقلت: أما والله، لنحتالن له[2]، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد منك؟ [وكان رسول الله يشتد عليه أن يوجد منه الريح]، فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له: جرست نحله العرفط[3]، وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية ذاك.

---

(1) أخرج البخاري (4912)، من طريق هشام بن يوسف عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد ابن عمير عن عائشة، وليس فيه ذكر لسبب النزول.

بينما انفرد أحد الرواة - وهو حجاج بن محمد - بذكر سبب النزول:

كما في رواية البخاري (6691)، عن حجاج بن محمد قال: قال ابن جريج: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يخبر عن عائشة رضي الله عنها الحديث...».

وفي آخره: فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ لعائشة وحفصة.

(2) أي لنطلبنّ له الحيلة، وهي: الحذق في تدبير الأمور، وتقلب الفكر حتى يهتدي إلى المطلوب.

(3) جرست: أي أكلت، والعرفط: هو شجر ينضح الصمغ المعروف بالمغافير، والمعنى:

=

قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أباديه بما أمرتني به فرقًا منك. فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: لا، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «**سقتني حفصة شربة عسل**» فقالت: جرست نحله العرفط.

فلما دار إليّ قلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: «**لا حاجة لي فيه**».قالت: تقول سودة: والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي[1].

هذه هي إذن قصة تحريمه ﷺ شرب العسل، وقد اشترك في تدبيرها السيدة عائشة وحزبها، وأن ساقية العسل هي زينب بنت جحش رضي الله عنها[2]، فإنها كانت معروفة باليسار والغنى؛ لأنها كانت تعمل، وغارت منها عائشة لكونها من غير حزبها فكيف تستأثر بجلوس النبي ﷺ عندها. وهي التي كانت تساميها في المنزلة عند رسول الله ﷺ.

= ___

رعت نحل هذا العسل الذي شربته من ذلك الشجر، وأخذت منه، فحصلت هذه الرائحة الكريهة، وانظر شرح صحيح مسلم (65/10).

(1) أخرجه أحمد (34316)، والبخاري (5268) باب الطلاق، باب «لم تحرم ما أحل الله لك»، ومسلم (1474) باب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق، من طريق علي بن مسهر عن هشام بن عروة عنه، به.

ورواه البخاري أيضًا (6972)، في كتاب الحيل، باب ما يكره من احتيال المرأة مع الزوج والضرائر، وما نزل على النبي ﷺ في ذلك، ومسلم (1471).

(2) وممن ذهب إلى ذلك ابن العربي في «أحكام القرآن» (293/4)، وتابعه القرطبي في «تفسيره»، والحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (289/9).

ولابد من الإشارة إلى أن الاختلاف بين الروايتين المذكورتين في الأسماء قد سبب إشكالًا مما دفع بعض العلماء إلى القول بأنهما قصتان[1].

فهو يرى أن قصة حفصة سابقة، وأنه ﷺ لما شرب العسل في بيت زينب تظاهرت عائشة وحفصة، فحرم ﷺ حينئذ شرب العسل عندها بقوله: «فلن أعود»، وقد حلفت...»، **ونزلت الآيات الخمس من مطلع سورة التحريم**.

والذي أراه: أن القصة واحدة؛ إذ غير لائق بزوجات النبي ﷺ الطاهرات أن يكررن الحيلة مرتين.

كما تأبى فطنة النبي ﷺ أن تكرر الحيلة مرة ثانية من نسائه ولا يشعر بذلك.

ولقد قال أهل العلم: إن الاشتباه بالاسم لا يضر بعد ثبوت أصل القصة».

وهذا هو جواب وجيه لاسيما وأنه يتعلق بنساء النبي ﷺ، وهو حدث داخلي قد يصعب الحصول على المعلومات الدقيقة فيه.

ولكن هل حقًّا أن مطلع سورة التحريم نزل بسبب تحريم العسل أم بسبب تحريمه ﷺ مارية؟ خلاف بين العلماء.

وسيأتي أن الراجح هو تحريمه ﷺ مارية عند بحث قصة التحريم، لكن لا بأس من إطلاع القارئ الكريم هنا على خلاصة موجزة عن السبب الأول:

---

(1) ممن ذهب إلى ذلك الإمام القرطبي، وانظر «فتح الباري» (289/9).

وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (458/4): وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بعد في ذلك إلا أن كونهما سببًا لنزول الآية فيه نظر».

هل سبب نزول الآيات الأولى من سورة التحريم هو تحريمه ﷺ شرب العسل؟

ذهب جماعة من العلماء إلى أن سبب نزول آية التحريم هو: تحريمه ﷺ شرب العسل، ولذا سأتناول بحث هذه القضية من خلال المسائل الآتية:

المسألة الأولى: ذكر من قال به من العلماء:

وقد قال بهذا القول عدد من العلماء وهم: عبد الله بن شداد بن الهاد، وابن أبي مليكة، وجوَّزه الطبري، ورجحه عدد من المفسرين منهم: الإمام أبو بكر بن العربي[1]، وتابعه القرطبي[2]، والحافظ ابن كثير[3]، والقاضي عياض، ونقله عن النووي مقرًّا له[4]، والشوكاني وقد رجح أن السببين صحيحان[5].

(1) «أحكام القرآن» (294/4)، وقال: «وأما من روى أنه حرم مارية، فهو أمثل في السند وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يدون في الصحيح ولا عدل ناقله، أما إنه روي مرسلًا...إنما الصحيح أنه كان في العسل وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة، وجرى ما جرى فحلف ألا يشربه، وأسر ذلك، ونزلت الآية في الجميع».

(2) في «أحكام القرآن» (118/9).

(3) «الجامعة لأحكام القرآن» (458/4)، وقال: والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، كما قال البخاري عند هذه الآية.

(4) انظر شرح صحيح مسلم له (66/10).

(5) «فتح القدير» (213/8 - 217)، فقد روي حديث شرب العسل عن السيدة عائشة، وحديثها في البخاري كما تقدم.

المسألة الثانية: دليلهم مع مناقشته:

وقد استدلوا على قولهم بأن سبب التحريم كان شربه ﷺ العسل، بإحدى روايات حديث عائشة، وهي رواية حجاج بن محمد وقد تقدم ذكرها.

وعليه فإن حادثة شرب العسل قد جاءت من طريقين عن عائشة؛ وهما:

أ- طريق حجاج بن محمد عن ابن جريج قال: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول: سمعت عائشة.

بينما رواية هشام بن يوسف عن ابن جريج نفسه عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة ليس فيها ذكر سبب النزول.

ب- وطريق علي بن مسهر، وحماد بن أسامة، عن هشام بن عروة عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة، وليس فيه ذكر سبب النزول أيضًا.

وعند الترجيح يترجح ما رواه عروة بن الزبير على ما رواه غيره، لكونه يوري عن خالته، وصاحب البيت أدرى بما فيه.

قال ابن القيم: «وعروة أخص بعائشة وألزم لها من عبيد بن عمير»[1].

وهو - أدي عروة - لم يذكر أصلًا أن نزول الآيات كان بسبب الحادثة المذكورة، وعليه فالذي أراه راجحًا أن بعض الرواة في طريق عبيد بن عمير عندما روى حديث شرب العسل أراد أن يستدل عليه بآية قرآنية، فاستدل بآية من سورة التحريم، فظن السامع أنها سبب نزول الآيات فعبر بقوله: فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾، والمقام مقام استدلال وتفسير، وليس حديثًا عن أسباب النزول، وهذا هو الذي ذكرته له أمثلة كثيرة في كتب أسباب النزول، وهو

(1) «زاد المعاد» (437/1)، قال ذلك في معرض كلامه عن حديث صلاة الكسوف.

أسلوب معروف عند المتقدمين.

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله:

«وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا: يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب، كما تقول: عُني بهذه الآية كذا»[1].

وقال الزركشي: «قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها، وجماعة من المحدثين يجعلون هذا المرفوع المسند..»[2].

لذلك فالراجح في سبب نزول آيات التحريم هو قصة مارية وقد ذهب إلى ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله[3]، وسيأتي بحث هذا الموضوع لاحقًا.

ولكن مع كل ما تقدم فإني أرى: أنه لا يمنع من وقوع حادثة شرب العسل قبل قصة تحريم مارية بمدة قصيرة، ولكن جاءت قصة تحريم مارية لتكون سببًا مباشرًا للنزول باعتبارها أكبر المشكلات التي تحتاج إلى حل حاسم من قبل النبي ﷺ، ويؤيد ذلك: أن النبي ﷺ اعتزلهن جميعهن شهرًا، ليكون ذلك

---

(1) «مجموع الفتاوى» (339/13).

(2)انظر كتابه 31/1 «البرهان» وينظر في تحقيق هذه القضية ما كتبه شقيقي الدكتور عبد الحكيم في مقدمة تحقيقه كتاب «العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر تحت عنوان: قواعد علم أسباب النزول (93/1 - 103).

(3)«فتح الباري» (201/9).

الاعتزال تأديبًا لكل الزوجات على ما وقع منهن قبل هذه الحادثة[1]، وهو الذي سرت عليه في تسلسل الحوادث عند كتابة هذا المبحث.

ودليل ذلك: ما جاء عن أنس ﵁ قال: قال عمر ﵁: «اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت هذه الآية»[2].

دخول مارية بيت رسول الله ﷺ:

وبداية تفاقم المشكلة بسبب الغيرة:

لكن حديثًا غير متوقع طرأ في بيت النبي ﷺ مما جعل جميع نسائه ينشغلن به، ويتابعن أخباره، ذاك هو دخول مارية تلك الفتاة المصرية الجميلة بيت النبي ﷺ.

فمن هي مارية؟ وما هي قصتها؟

كان لرسول الله ﷺ أمةٌ، هي مارية القبطية، أم ولده إبراهيم، ومارية هذه كان قد أهداها للنبي ﷺ المقوقسُ صاحب الإسكندرية بمصر، في سنة

(1) وكان الحافظ ابن حجر قد تساءل بقوله: إذا كانت عائشة وحفصة هما السبب في هذه الحادثة؛ فلماذا اعتزلهن جميعهن؟

وكانت إجابته قريبة مما ذكرته آنفًا، لكنه لم يجزم، قال رحمه الله كما في «فتح الباري» (201/9): «ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها، ويؤيده شمول الحلف للجميع».

(2) رواه البخاري (4916).

سبع للهجرة[1]، وأرسلها مع هدايا أخرى بواسطة سفيره الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة[2].

وقد أسلمت عندما عرض عليها حاطبُ الإسلام، ورغبها فيه.

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل سفيره المذكور إلى المقوقس في خطة عامة، ابتدأها النبي ﷺ بعد صلح الحديبية، وكان يهدف من ورائها الاتصال بملوك وأمراء عصره، ودعوتهم إلى الإسلام.

وكانت ماري امرأة جميلة، تقول السيدة عائشة: ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة، فأُعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أولَّ ما قُدم بها في بيت لحارثة بن النعمان[3]، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها، حتى فزعنا لها[4]، فجزعت، فحولها

(1) انظر طبقات ابن سعد (212/8)، و«الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (405/4).

(2) هو من مشاهير المهاجرين، شهد بدرًا والمشاهد، وكان رسول النبي ﷺ إلى المقوقس صاحب مصر، مات سنة ثلاثين من الهجرة، انظر «سير أعلام النبلاء، (45/2).

(3) من أصحاب رسول الله الأجلاء، شهد بدرًا والمشاهد، وكان دينًا خيرًا، وبرًّا بأمه، وكانت له منازل قرب منازل النبي الكريم ﷺ، فكان كلما أحدث رسول الله أهلًا تحول له حارثة عن منزل، حتى قال: لقد استحييت من حارثة، مما يتحول لنا عن منازله. انظر طبقات ابن سعد (3/ 488)، و«سير أعلام النبلاء» (380/2).

(4) يبدو لي أن مكثه ﷺ عند مارية – المعبر عنه بقول عائشة رضي الله عنها: فكان عامة الليل والنهار عندها: هو بداية تسرية بمارية – ضمن السنة، كما جاء عن أنس: «أنه إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعًا، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثًا، ثم قسم» رواه البخاري (5214). والأمة والحرة في هذا سواء. انظر «المغني» لابن قدامة (36/7) فما بعدها، و«فتح الباري» (316/9).

إلى العالية[1]، فكان ذلك أشد علينا.

ويبدو من هذا النص أنَّ هناك تدبيرًا من قبل أزواج النبي ﷺ قد حصل تجاه هذه الأمة التي دخلت بيت النبي ﷺ حديثًا، يدل على ذلك قول السيدة عائشة: «حتى فزعنا لها»[2] ولا شك أن ذلك كان بدافع الغيرة على رسول الله ﷺ وحبهن له.

«ولكن مارية لم تكد تلبث فترة ليست بالكثيرة من الزمن في بيت النبي ﷺ إلا وأحست بوادر حمل، وسرعان ما سرت البشرة في أنحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر مولودًا من مارية.

وما بقارئ حاجة إلى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبي ﷺ.

أتحمل هذه الأمة الطارئة، وإن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل؟ أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى، وأمهات المؤمنين وفيهن بنتا أبي بكر وعمر، وبنت زاد الركب، وحفيدة أبي طالب محرومات لا يلدن؟!

وحانت الساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، ودعا رسول الله ﷺ قابلتها سلمى زوج أبي رافع»[3].

فلما جاءته أم رافع بالبشرى أكرمها كل الإكرام، ثم حمل وليده بين

---

(1) انظر طبقات ابن سعد (212/8)، من طريق عمرة عن عائشة و«الإصابة» لابن حجر (405/4).

(2) في «المعجم الوسيط»: فزع فلان: تقبض ونفر من شيء مخيف. وفزع: خاف وذعر، وفزع إليه: لجأ واستغاث. وعليه فمعنى قولها: «حتى فزعنا لها» أي لجأ بعضنا إلى بعض، واستغاث خائفات من هذا الأمر المخيف الذي نزل بنا.

(3) انظر كتاب «سيدات بيت النبوة» د/ عائشة عبد الرحمن ص 404.

يديه، وسماه إبراهيم تيمنًا باسم جد الأنبياء.

«لقد رزق بـ«إبراهيم» وهو ﷺ في الستين من العمر، ففاضت نفسه بالمسرة، وامتلأ قلبه أنسًا وغبطة».

وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادتها إلى ذلك عند حظوة، ومنه قربًا.

كان طبيعيًّا أن يحدث ذلك في نفوس سائر أزواجه غيرة تزايدت أضعافًا بأنها أم إبراهيم، وبأنهن جميعًا لا ولد لهن.

ولم تكن نظرة النبي ﷺ إلى هذا الطفل إلا تزيد هذه الغيرة كل يوم في نفوسهن اشتعالًا.

فو أكرم القابلة أيما إكرام، وهو قد تصدق يوم ولدن بوزن شعره ورقًا – أي فضة – على مساكين المدينة، وهو قد دفعه لترضعه أمُّ سيف بعد أن تنافست الأنصار فيمن يرضعه، وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبي ﷺ لما يعلمون من هواه فيها.

فاختار مرضع ولده، وجعل في حيازتها من الشياه ما يكفي لإرضاعه.

وهو كان يمر كل يوم ليراه، وليزداد أنسًا بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة..

أي شيء أشد من هذا كله إثارة للغيرة في نفوس أزواج لم يلدن؟

وإلى أي حد تدفع الغيرة أولئك الأزواج؟

– قال عبد الله بن أبي صعصعة: «وغار نساء رسول الله ﷺ، واشتد عليهن حين رزق منها الولد»[1].

---

(1) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (134/1).

وكذلك كان مولد إبراهيم سببًا أثار في زوجات النبي ﷺ غيرة لم تقف أثرها عند هذه الإجابات الجافية بل تعداها إلى أكثر منها، وترك في تاريخ النبي ﷺ، وفي تاريخ الإسلام من الأثر ما نزل به آيات تتلى على مرّ الدهور[1].

تلك هي الآيات الخمس من سورة التحريم، وعرف هذا الحدث الجلل بـ«قصة التحريم».

قصة التحريم والدروس المستفادة منها

بعد هذا العرض الذي بينت فيه الظروف المحيطة بقصة التحريم والأسباب الأخرى التي سبقتها في البيت النبوي لابد لي من سرد أحداث قصة التحريم، وسوف أتناولها بشيء من التفصيل لأهميتها في بيان ملامح الحياة الزوجية للنبي ﷺ، وأسلوبه في إدارة الأزمات، وحل المشكلات، وسيكون ذلك في سبع فقرات؛ وهي:

أولًا: الآيات الواردة في قصة التحريم مع تفسيرها على جهة الإجمال.

ثانيًا: سبب قصة التحريم.

ثالثًا: من قال بذلك من العلماء.

(1) انظر في كل ما تقدم كتاب «حياة محمد» ﷺ للأستاذ حسين هيكل ص 446، بتصرف وزيادة، مع الإشارة إلى أن المؤلف رحمه الله كثيرًا ما يستشهد بالأخبار الواهية من غير بيان لها، ومنها مثلًا: استشهاده بما جاء عن عائشة أنها قالت: «ما أرى بينك وبينه شبهًا» وذلك عندما سألها رسول الله ﷺ عن وجه الشبه بينه وبين ولده الحبيب إبراهيم وهي قصة منكرة، رواها الحاكم في «مستدركه» 39/4، وفي سندها: سليمان بن أرقم قال عنه البخاري: تركوه، وانظر في بيان حاله «تهذيب الكمال» للمزي 353/11.

رابعًا: الأحاديث النبوية الواردة في قصة التحريم.

خامسًا: نتائج دراسة حديث ابن عباس عن عمر، وإثبات: أن اعتزاله نساءه كان بعد قصة التحريم.

سادسًا: الراجح في سبب نزول آيات التحريم، هو: تحريمه مارية.

سابعًا: الدروس المستفادة من قصة التحريم.

***

أولًا: الآيات الواردة في قصة التحريم:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم].

- **التفسير الإجمالي لها:** 1- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾:

اختلف في سبب التحريم هل هو تحريمه ﷺ مارية كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين ورجحه الحافظ ابن حجر، أم هو تحريمه شرب العسل على خلاف بين العلماء في ذلك، والراجح عندي هو تحريمه مارية كما سيأتي بيانه ومعنى التحريم هنا: الامتناع.2- ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾: أي شرع لكم تحليل أيمانكم، وقد بين لكم ذلك في سورة المائدة، وتحلة: أصلها تحللة فأدغمت اللام في اللام. فكأن اليمين عقد، والكفارة حل؛ لأنها تحل للحالف ما حرمه على نفسه.

3- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾: قال أكثر المفسرين: هي حفصة، والحديث هو: تحريم مارية وهو الراجح، أو شرب العسل.

- ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾: أي أخبرت به غيرها.

- ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: أي أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها.

4- ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾: الخطاب لعائشة وحفصة.- ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: «صغت»، بمعنى عدلت ومالت عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ وهو إفشاء السر، وقيل: المعنى إن تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما إلى التوبة.- ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾: أي: تتظاهرا، والمراد بالتظاهر: التعاضد والتعاون.

والمعنى: فإن تتعاونا عليه صلى الله عليه وآله وسلم بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره، فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير.

5- ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾: عسى في كلامه تعالى للوجوب، لكن الوجوب هنا إنما هو بعد تحقق الشرط، وتقدير ذلك: إن طلقكن فعسى ربه أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيرًا منهن تخويفًا لهن[1].

(1) «فتح القدير» للشوكاني (249/5). و«روح المعاني» للآلوسي (157/28). وما ذكرته تفسير إجمالي لهذه الآيات، وأما التفصيل فإن البحث قد تكفل بذلك، لاسيما الدروس المستفادة من قصة التحريم.

ثانيًا: سبب قصة التحريم:

حدث أن ذهبت حفصة يومًا إلى بيت أبيها، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، فلما رجعت ووجدت عنده مارية قالت: يا نبي الله لقد جئت إليَّ شيئًا إلى أحد من أزواجك بمثله في يومي[1]، وفي دوري، وعلى فراشي، قال: ألا ترضين أن أُحرمها فلا أقربها؟ قالت: بلى: فحرمها وقال: لا تذكري ذلك لأحد. فذكرته لعائشة...»[2]، وكانت عائشة وحفصة متظاهرتين على نساء النبي ﷺ، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فقالت لها: أبشري إن النبي ﷺ حرّم عليه وليدته، فأظهره الله عليه، وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[3].

«فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث، حين أفشته حفصة إلى عائشة، تسعًا وعشرين ليلة، وكان قد قال: «ما أنا بداخل عليهن شهرًا، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله...».

---

(1) أي يوم حفصة، وهي هكذا في الروايات التي جاءت عن عروة بن الزبير، ومحمد بن جبير بن مطعم، والقاسم بن محمد، كما في طبقات ابن سعد (187/8).

وجاء في رواية شعبة عن ابن عباس: أنها جاءها في يوم عائشة، كما في الطبقات أيضًا، وهي رواية ضعيفة لضعف شعبة مولى ابن عباس، كما في «تحرير التقريب» (115/2)، واعتمدها ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» (303/8).

(2) أخرجه الطبري في «تفسيره» (149/12)، من رواية محمد ابن إسحاق عن الزهري عن عبيدالله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر.

(3) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (187/8)، عن عروة بن الزبير، وستأتي الروايات الصحيحة التي تؤيد ذلك.

وفي رواية أخرى: «وكان أقسم أن لا يدخلن عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل» فهل يا ترى كان اعتزال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول آيات العتاب في سورة التحريم أم بعده؟

يفهم من قوله: «... حين عاتبه الله»[1]، في الرواية الأولى: أن اعتزاله كان بعد نزول آيات العتاب.

ويفهم من قوله: «.. حتى عاتبه الله عز وجل»[2]، في الرواية الثانية: أن اعتزاله كان قبل نزول آيات العتاب.

والراجح عندي: أن اعتزاله صلى الله عليه وآله وسلم كان بعد أن أطلعه الله على إفشاء الحديث من حفصة، وأن نزول الآيات كان بعد اعتزاله ﷺ، تعليقًا على الحادثة كلها، يدل على ذلك الآيات التي وردت في سورة التحريم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فالآية تحكي قصة إطلاع الله له على الحديث، فلابد أن يكون نزولها متأخرًا.

وقد يقال هنا: هل خرج النبي ﷺ في تصرفه المذكور مع جاريته مارية عن العدل في القسم بين أزواجه، حتى اضطر إلى تحريم مارية إرضاءً لزوجه الكريمة حفصة بنت عمر رضي الله عنها ؟

والجواب: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تصرفه المذكور لم يخرج عن العدل في القسم بين أزواجه، ودخوله على نسائه، وطوافه عليهن في النهار

(1) أخرجه البخاري (5191).

(2) رواه أحمد (222)، ومسلم من طريق معمر (1479) (34).

أمر معروف من سيرته في حياته الزوجية، يدل عليه ما جاء عن عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها...»[1]، وإنما تصرفه المذكور من كريم أخلاقه في تعامله مع زوجاته، أما فيما يتعلق بالأمة فإنه لا قسم على الرجل في ملك يمينه، فمن كان له نساء وإماء، فله الدخول على الإماء كيف يشاء، والاستمتاع بهن إن شاء كالنساء، وإن شاء أقل، وإن شاء أكثر. قال ابن قدامة رحمه الله: «وقد كان للنبي ﷺ مارية القبطية، وريحانة فلم يكن يقسم لهما»[2].

***

(1) رواه أبو داود (2135)، كتاب النكاح، باب القسم بين النساء.

(2) انظر «المغني» (36/7) فما بعدها.

ثالثًا: من قال بذلك من العلماء:

وممن قال بهذا القول بصورة عامة من العلماء: عائشة، وأم سلمة، وعمر، وابن عمر، وابن عباس، وأنس، وأبو هريرة، وزيد بن أسلم، وقتادة، والشعبي، والحسن البصري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والضحاك بن مزاحم، وسعيد ابن جبير، ومجاهد، وعطاء، ومسروق، ومقاتل، ومحمد ابن جبير بن مطعم، والأكثرون، وذكره عامة المفسرين، وهو قول أكثرهم[1].

---

(1) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (182/8 - 188)، ولم يذكر غيره، وتفسير الطبري (147/12 - 150)، وهو وإن جوز أن يكون كل من تحريمه ﷺ مارية، وشربه العسل سببًا للنزول، لكن توسعه في إيراد الروايات الكثيرة عن الصحابة والتابعين مشعر بأنه يرجح هذا القول.

و«أحكام القرآن» لأبي بكر أحمد الرازي الجصاص (694/3)، وقالك وجائز أن يكون الأمران جميعًا قد كانا من تحريم مارية، وتحريم العسل، إلا أن الأظهر: أنه حرم مارية، وأن الآية فيها نزلت، لأنه قال: تبتغي مرضات أزواجك، وليس في ترك شرب العسل رضا أزواجه، وفي ترك قرب مارية رضاهن.

و«معالم التنزيل» للبغوي (362/4)، وفيه، وقال المفسرون...». و«المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي (513/4)، وقال: والقول الأول – أن الآية نزلت بسبب مارية – أصح وأوضح، وعليه تفقه الناس في الآية.

و«أحكام القرآن» لابن العربي (293/4)، وقال: وأما من روى أنه حرم مارية فهو أمثل في السند، وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يدون في صحيح، ولا عدل ناقله، أما إنه روي مرسلًا، ورجح شرب العسل. وتابعه على ذلك – ناقلًا قوله – الإمام القرطبي في تفسيره (118/9) مصرحًا بنقله، ولكنه قال أيضًا: قلت: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة لما خلا النبي ﷺ في بيتها بجاريته.

=

ورجحه من المحدثين الحافظ ابن حجر[1].

***

=

و«زاد المسير» لابن الجوزي (203/8)، وقال: وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي.

و«التفسير الكبير» لفخر الدين الرازي (41/15)، وقد ذكره من غير ترجيح، ولكن توسعه في نقل الأقوال، وذكر الأحكام المستنبطة منه مشعر بترجيحه.

وابن كثير في تفسيره (455/4)، ورجح القول الثاني على الرغم من أنه توسع في الاستدلال للقول الأول.

و«الدر المنثور» للسيوطي وقد ذكر جميع الأحاديث والآثار الواردة في كل الأقوال.

و«فتح القدير» للشوكاني (300/5) ورجح القولين قال: فهذان سببان صحيحان لنزول الآية.

و«روح المعاني» للآلوسي (146/28)، وقال: «المشهور أنها مارية....» ثم قال: «إن تفسير الآية على هذه الأخبار أظهر من تفسيرها على حديث العسل، لكن حديثه أصح، والجمع بين الأخبار مما لا يكاد يتأتى...»، و«الظلال» لسيد قطب (3614/6)، وقال: «وكلا الروايتين يمكن أن يكون، وربما كانت هذه الثانية – أي تحريم مارية – أقرب إلى جو النصوص...».

(1) كما في «فتح الباري» (201/9)، وقال: «الراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل فإنه اجتمع في جماعة منهن...».

رابعًا: الأحاديث النبوية الواردة في قصة التحريم:

1- حديث عائشة قالت: آلى رسول الله ﷺ من نسائه وحرم، فجعل الحرام حلالًا وجعل في اليمين كفارة»[1].2- حديث أنس: أن النبي ﷺ: كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حرامًا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ إلى آخر الآية[2].

3- حديث ابن عمر، عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «**لا تخبري أحدًا، وإن أم إبراهيم علي حرام**» فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها، قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله: ﴿ **قَدْ**

(1) أخرجه الترمذي (1201) الطلاق، باب ما جاء في الإيلاء متصلًا مرسلًا، وقال عن الرواية المرسلة: أصح. وابن ماجه (2072) في الطلاق، باب الحرام، واللفظ لهما.

والطبري في تفسيره (148/12)، ولفظه: آلى رسول الله ﷺ وحرم، فأمر بالإيلاء بكفارة، وقيل له في التحريم: «لم تحرم ما أحل الله لك». ورجاله ثقات، كما قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (285/9).

(2) أخرجه النسائي (3959)، والحاكم (493/2)، وصححه ووافقه الذهبي. وابن مردويه وانظر تفسير ابن كثير (455/4)، و«الدر المنثور» للسيوطي (214/8). وصحح الحافظ ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (288/9) ثم قال: «وهذا أصح طرق هذا السبب، وله شاهد مرسل أخرجه الطبري - (147/12) - بسند صحيح، عن زيد بن أسلم التابعي الشهير، قال: أصاب رسول الله ﷺ أم إبراهيم في بيت بعض نسائه.

فقالت: يا رسول الله في بيتي، وعلى فراشي! فجعلها عليه حرامًا، فأنزل الله الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾».

فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾[1].

4- حديث ابن عباس ﷺ : قال: نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ الآية في سريته[2].

5- حديث أبي هريرة[3]:

ونصه طويل، وفيه تصريح بأن سبب النزول في آية التحريم هو: تحريمه ﷺ مارية.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وهذه طرق يقوي بعضها بعضًا[4].

6- حديث ابن عباس عن عمر[5]:

(1) أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده قال: حدثنا أبو قلابة عبد الملك الرقاشي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم، عن أيوب عن نافع عن ابن عمر عن عمر...» قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (456/4): وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج، وذكر أيضًا السيوطي في «الدر المنثور» (216/8).

(2) قال السيوطي في «الدر المنثور» (214/8): أخرجه الترمذي والطبراني بسند حسن صحيح.

(3) أخرجه الطبراني في «معجمه الأوسط» برقم (2316) (13/3) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (216/8)، وفي «لباب النقول في أسباب النزول» ص 199، وقال: سنده ضعيف.

(4) «فتح الباري» (54/11) عند شرح الحديث رقم (4912).

(5) أخرجه أحمد (222)، ومسلم (1479) (34)، والترمذي (2318)، وقال: حديث حسن صحيح، وقد روي عن غير وجه عن ابن عباس. وابن حبان (4268)، والبيهقي في سننه (35/7) من طريق معمر بن راشد.

وأخرجه البخاري (2468)، في كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة من طريق

=

=

عُقيل بن خالد، وشعيب بن أبي حمزة، ومحمد بن إسحاق) عن الزهري عن **عبيد الله ابن عبد الله بن أبي ثور**: مع ملاحظة: أن رواية محمد ابن إسحاق صرحت بأن سبب التحريم، هو تحريمه ﷺ مارية.

وأخرجه البخاري (4913)، في تفسير باب: تبتغي مرضاة أزواجك، ومسلم (1479) (31) في الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن من طريق سليمان بن بلال،لكنه جاء مختصرًا إلى قوله: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» ولم تذكر فيه قصة اعتزاله ﷺ نساءه شهرًا، ولا حادثة التخيير عن عائشة.

وأخرجه البخاري أيضًا (4914)، (4915)، في التفسير، باب: «وإذ أسر النبي» وباب: «قوله: إن تتوبا...».

ومسلم (1479) (33) في الطلاق من طريق سفيان بن عيينة: لكنه جاء مختصرًا جدًّا إلى قوله: هما عائشة وحفصة.

ومسلم (1479) (32) من طريق حماد بن سلمة:

وأخرجه البخاري (5843) في اللباس من طريق حماد بن زيد: لكنه مختصر على محل الشاهد منه، وزاد فيه: فلبث تسعًا وعشرين ليلة ثم نزل.

أربعتهم (سليمان بن بلال، وسفيان بن عيينة، حماد بن سلمة، وحماد بن زيد) عن **عبيد ابن حنين**.

وأخرجه مسلم (1479) (30)، في كتاب الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، والطبري في تفسيره سورة التحريم (152/12) مختصرًا، وأبو يعلى في مسنده (149/1) برقم (164)، مطولًا من طريق **سماك بن الوليد**:

وأخرجه الطبراني في «معجمه الأوسط» (8764) من طريق مطلب بن شعيب قال: ثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن **يزيد**: وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن يزيد بن رومان إلا سعيد بن أبي هلال، ولا عن سعيد إلا خالد بن يزيد، تفرد به الليث.

وقال السيوطي في «لباب النقول» ص200: «وسنده صحيح وله شاهد في الصحيحين».

=

وهو حديث طويل، وفيه تفصيلات مهمة عن حادثة التحريم، وقد قمت بتخريجه من كتب الحديث النبوي، إذ قد ورد فيها مطولًا تارة، ومختصرًا تارة أخرى، ونظرًا للتشابه الكبير بين رواياته فقد اخترت منها بعض الروايات التي تصور حادثة التحريم أتم تصوير، مع التأكيد على الروايات التي فيها تصريح بسبب نزول آية التحريم وهو: تحريمه صلى الله عليه وآله وسلم جاريته مارية، وأما باقي الروايات فستجد الحديث عن مواضعها في الحاشية:

أ- رواية أحمد والبخاري ومسلم:

عن ابن عباس، قال: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**﴾ [التحريم: 4]، حتى حج عمر وحججت معه، فلما كنا ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرَّز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان، قال

=

ويلاحظ على هذه الرواية: أنها جمعت في سياق واحد بين ثلاث حوادث، أعني قصة تحريمة شرب العسل، وقصة تحريمه ﷺ مارية، وقصة التخيير، وليس فيها تصريح بأن سورة التحريم نزلت بسبب شرب العسل، كل ما في الأمر: أنه بعد أن ذكر فيها قصة تحريمه شرب العسل ابتدأ الحديث عن قصة تحريم مارية بقوله: «... حتى إذا كان يوم حفصة قالت: يا رسول الله إن لي حاجة إلى أبي...» إلى آخر ما ورد من قصة تحريمه مارية، مع التصريح بأنها كانت سبب النزول.

وأخرجه الدارقطني في «سننه» (40/4) والطبري في تفسيره (162/14) مختصرًا من طريق **علي بن الحسين**: خمستهم (عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، وعبيد بن حنين، وسماك بن الوليد الحنفي، ويزيد بن رومان، وعلي بن الحسين) عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم. مع ملاحظة: أن روايتي يزيد بن رومان وعلي بن الحسين فيهما تصريح بسبب النزول، وأنه تحريم مارية.

الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال عمر: واعجبًا لك يا ابن عباس! - قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه عنه - قال: هي حفصة وعائشة.

قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفِق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي، قال: فتغضبت يومًا على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تُنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت، فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ، ولا تسأليه شيئًا، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسمَ وأحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك؛ يريد عائشة. قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يومًا، وأنزل يومًا فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسان تُنْعِلُ الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يومًا، ثم أتاني عشاءً فضرب بابي، ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم. فقلت: وماذا، أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك، وأطول[1]، طلق الرسول نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائنًا.

---

(1) في رواية البخاري (5191): وأهول.

حتى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المِشْرَبة، فأتيت غلامًا له أسود فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رَهْط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلًا ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر.

فدخل ثم خرج عليّ، فقال: قد ذكرتك له فصمت.

فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر.

فدخل ثم خرج إلي، فقال: قد ذكرتك له فصمت، فوليت مدبرًا، فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، فقد أَذن لك. فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئ على رمل حصير - وحدثناه يعقوب في حديث صالح قال: رُمَال حصير[1] - قد أثَّر في جنبه، فقلت: أطلّقت يا رسول اله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: «**لا**» فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضبتُ على امرأتي يومًا فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل.

فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب

(1) الرُّمال: جمع رمل، والمراد منه: السرير الذي نسج وجهه بالسعف، ولم يكن على السرير وطاءً سوى الحصير. وانظر «النهاية» لابن الأثير مادة «رمل».

الله عليها لغضب رسول الله ﷺ، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسَّم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، فدخلت على حفصة، فقلت: لا يغرُّكِ أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك. فتبسَّم أخرى، فقلت: أَستأنِسُ يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، فجلست، فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر إلا أَهَبة[1] ثلاثة.

فقلت: ادع يا رسول الله أن يوسِّع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسًا، ثم قال: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»، فقلت: استغفر لي يا رسول الله.

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهنّ، حتى عاتبه الله عز وجل[2].

في رواية البخاري: فاعتزل النبي ﷺ من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة، وكان قد قال: «**ما أنا بداخل عليهنّ شهرًا**»، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله[3].

وأخرجه أيضًا مسلم[4]، والترمذي[1]، وابن حبان[2]، والبيقهي[3]، لكنهم

(1) والأَهَبة: الجلود قبل الدباغ. «النهاية» مادة: أهب.

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» 620/11 من طبعة دار أبي حيان: «والذي يظهر أن المراد به هنا جلد شرع في دبغه، ولم يكمل لقوله في رواية سماك بن الوليد – في صحيح مسلم – «فإذا أفيق معلق» والأفيق: بوزن عظيم، الجلد الذي لم يتم دباغه».

(2) أخرجه أحمد (222).

(3) أخرجه البخاري (2468).

(4) (1479) (34).

زادوا على رواية أحمد المتقدمة الآتي:

قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة، قالت: فلمَّا مضى تسع وعشرون، دخل عليّ رسول الله ﷺ بدأ بي، فقلت: يا رسول الله إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنك دخلت تسعًا وعشرين، أعدهنّ، فقال ﷺ: «**إن الشهر تسع وعشرون**»[4].

=

(1) (2318) وقال: حديث حسن صحيح.

(2) (4268).

(3) (35/7).

(4) وفيه أيضًا قصة التخيير، وجاء التعبير عنها بقوله: «ثم قال: يا عائشة إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، ثم قرأ علي الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ** ﴾ حتى بلغ: ﴿ **أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: 28 - 29] قالت عائشة: قد علم والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه. قالت: فقلت: أو في هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»، وفيه إيهام بأن قصة التخيير وقعت بعد قصة التحريم مباشرة. والجواب على ذلك: بأن التخيير لم يكن بعد حادثة التحريم، وإنما كان بعد حادثة طلب النفقة، وقد نزلت آيات من سورة الأحزاب تفصل ذلك، وهي: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾، وسبب ذلك: إدراج حديث عائشة عن التخيير في حديث ابن عباس عن عمر، ومما يؤكد ذلك: أن أربعة من رواة الحديث قد رووه مطولًا، وقد انفرد بعض الرواة في رواية عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور فألحق حديث التخيير التي روته السيدة عائشة في آخر حديث ابن عباس عن عمر. وسيأتي في رواية سماك بن الوليد عن ابن عباس في صحيح مسلم: أن آية التخيير هي: ﴿ **عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ** ﴾ وليست الآيتين من سورة الأحزاب، ويؤيد ذلك أن آية التخيير في سورة التحريم آية واحدة، فيصح قول عائشة: وأنزل الله آية التخيير عليها، بينما التخيير في سورة الأحزاب آيتان، وليست آية واحدة.

=

ب- رواية مسلم في صحيحه:

وهذا نصها: قال سماك: حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتز نبي الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب[1]، فقال عمر: فقلت: لأعلمن ذلك اليوم. قال: فدخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر، قد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله؟ فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب؟ عليك بعيبتك[2]، قال فدخلت على

حفصة بنت عمر، فقلت لها: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟

=

ويبدو لي أن الذي وقع منه ذلك هو الإمام الزهري، ولعله يرى أن حادثة التخيير وقعت بعد حادثة التحريم، وعليه يكون سبب حادثة التخيير هو سبب حادثة التحريم نفسه، لكن فيه إشكال، إذ إن سبب حادثة التخيير معروف، وهو طلب النفقة، والآيات والأحاديث الواردة فيه تدل على ذلك.

كما أن سبب حادثة التحريم أيضًا معروف عند العلماء، وهو تحريم مارية أو تحريم العسل. وللخروج من هذا الإشكال لابد من القول بأن الإمام الزهري، رحمه الله جمع في روايته بين الحادثتين معًا، لتشابه موضعيهما، ولم يقصد أن حادثة التخيير وقعت بعد حادثة التحريم مباشرة، وهذا أسلم التفاسير، ولي في «حادثة التخيير» بحث قد نشر في مجلة الأحمدية، العدد (12) سنة 1423هـ.

(1) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (196/9): «وهو غلط بين، فإن نزول الحجاب كان في أول أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش....». قلت: وقصة التحريم حدثت بعد ذلك.

(2) أي عليك بوعظ بنتك حفصة.

والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله؟ قالت: هو في خزانته في المشربة.

فدخلت فإنا أنا برباح، غلام رسول الله ﷺ قاعدًا على أسكفة المشربة مدلٍّ رجليه على نقير[1] من خشب وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر، فناديت، يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئًا. ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظن أن رسول الله ظن أني جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إليّ: أن ارقه، فدخلت على رسول الله ﷺ ، وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قَرَظًا[2] في ناحية الغرفة، وإذا أَفِيْقٌ[3] معلق.

قال: فابتدرت عيناي، قال: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**».

قلت: يا نبي الله وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثَّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: «**يا ابن الخطاب ألا ترضى**

(1) وذكر القاضي أنه: «فقير» بمعنى مفقور، مأخوذ من فقار الظهر، وهو جذع فيه درج.

(2) القَرَظ: هو ورق السَّلم يتم به دبغ الجلود. انظر «النهاية» مادة: قرظ.

(3) وهو الجلد الذي لم يتم دباغه، وقيل: ما دبغ بغير القرظ. «النهاية» مادة: أفق.

أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟» قلت: بلى، قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى الغضب في وجهه، فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن، فإن الله تعالى معك وملائكته، وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية، آية التخيير:

﴿ **عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ** ﴾، ﴿ **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ .وكانت عائشة بنت أبي بكر، وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أطلقتهن؟ قال: «**لا**» قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلَّق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: «**نعم إن شئت**» فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى كشر فضحك، وكان من أحسن الناس ثغرًا.

ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، ونزلت أتشبث بالجذع، ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده، فقلت: يا رسول الله إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين، قال: «**إن الشهر يكون تسعًا وعشرين**» فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أو الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ فكنت أنا

استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله عز وجل آية التخيير[1].

جـ- رواية الطبري في تفسيره[2]:

(1) وقد رواها مسلم (1479) (30) كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾، والطبري في تفسير سورة التحريم (152/12) مختصرًا. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (196/9): «وقد وقع في هذه الرواية - أي: رواية عكرمة بن عمار - موضع آخر مشكل، وهو قوله في آخر الحديث: «فنزل رسول الله ونزلت...» فإن ظاهره أن النبي ﷺ نزل عقب ما خاطبه عمر، فيلزم منه أن يكون عمر، تأخر كلامه معه تسعة وعشرين يومًا، وسياق غيره ظاهر في أنه تكلم معه في ذلك اليوم، وكيف يمهل عمر تسعة وعشرين يومًا لا يتكلم في ذلك وهو مصرح بأنه لم يصبر ساعة في المسجد حتى يقوم ويرجع إلى الغرفة ويستأذن».
ولكن رغم أنه استشكل هذا الموضع إلا أنه ذهب ليجد تأويلًا لهذا الإشكال فقال: «ولكن تأويل هذا سهل، وهو أن يحمل قوله «فنزل» أي: بعد أن مضت المدة، ويستفاد منه أنه كان يتردد إلى - النبي ﷺ في تلك المدة التي حلف عليها، فاتفق أنه كان عنده حين إرادته النزول فنزل معه، ثم خشي أن يكون نسي فذكره كما ذكرته السيدة عائشة».

(2) (149/12) قال رحمه الله: حدثنا سعيد بن يحيى، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، به.
قلت: رجاله ثقات، رجال الصحيحين، سعيد بن يحيى: هو الأموي، وأبوه: يحيى بن سعيد، سوى محمد بن إسحاق، فقد قال عنه الحافظ الذهبي في «ميزان الاعتدال» (469/3): «... فالذي يظهر لي أن ابن إسحاق حسن الحديث، صالح الحال، صدوق، وما انفرد به ففيه نكارة...».
وقال عنه الحافظ ابن حجر في «التقريب» ص 546: «إمام المغازي، صدوق يدلس...».
قلت: ففي هذه الرواية عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس.
لكن مع وجود المتابعات والشواهد يرتقي الحديث إلى درجة الصحيح فلا تضر العنعنة إن شاء الله، وهو لم ينفرد بهذه الرواية، وكذلك تنتفي علة الإدراج التي أشار إليها الحافظ

=

ابن حجر رحمه الله.

أما الشواهد فقد تقدمت عن كل من: عائشة وأنس، وابن عمر عن عمر، وأبي هريرة. وأما المتابعات؛ فهي:

1- ما أخرجه الطبراني في «معجمه الأوسط» برقم (8764) من طريق يزيد بن رومان عن ابن عباس عن عمر بمثل هذه الرواية.

قال السيوطي في «لباب النقول في أسباب النزول» ص 200: وسنده صحيح، وله شاهد في الصحيحين. وأقره الشوكاني في «فتح القدير» (251/5).

قلت: لعله يعني: صحيح لغيره، وإلا فهو لا يرتقي إلى درجة الصحيح، لأن رجاله ثقات، سوى عبد الله بن صالح المصري كاتب الليث فقد وثقه جماعة، وضعفه آخرون، وقال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: «صدوق، كثير الغلط....».

وعليه فحديثه حسن في المتابعات، وانظر «تحرير التقريب» (222/2).

2- ما أخرجه الدارقطني في «سننه» (40/4) من طريق إسحاق بن محمد الفروي قال: أخبرنا عبد الله ابن عمر - وهو العمري - حدثني أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن عمر، بمثل رواية ابن إسحاق، وفيه زيادة، وهي: «....فآلى لا يدخل على نسائه شهرًا، فاعتزلهن تسعًا وعشرين ليلة، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ الآية».

قال: والحديث بطوله طويل.

وفي سنده: عبد الله بن عمر العمري: هو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» ص 372. لكن يعتبر به في المتابعات والشواهد، فقد وثقه يعقوب بن شيبة، وأحمد بن يونس، والخليلي، وقال العجلي: لا بأس به، وقال ابن عدي: لا بأس به في رواياته، صدوق، واختلف فيه قول ابن معين.

وضعفه غير واحد، منهم: البخاري، وابن المديني، ويحيى القطان، والنسائي، وابن سعد، والترمذي، وابن حبان، والدارقطني. انظر «تحرير التقريب» (242/2).

3- ما أخرجه الدارقطني أيضًا في سننه (42/4) من طريق أحمد بن محمد بن عبد العزيز

وهذا نصها:

«عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب ﷺ : مَنْ المرأتان ؟ قال : عئشة وحفصة , وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية , أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إلي شيئًا ما جئت إلى أحد من أزواجك بمثله، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «**ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها؟**»، قالت: بلى فحرمها، وقال: لا تذكري ذلك لأحد، فذكرته لعائشة، فأظهره الله عز وجل عليه، فأنزل الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ الآيات كلها، فبلغنا أن نبي الله ﷺ كفر يمينه، وأصاب جاريته.

ملحوظات:

1- نصوص الرواة الأربعة عن ابن عباس كانت عن حادثة التحريم، وأن اعتزال النبي ﷺ نساءه شهرًا كان بعد هذه الحادثة.

2- رواية محمد بن إسحاق عن الزهري نصت على أن سبب التحريم هو تحريمه ﷺ مارية. وقد صحح الباحث هذه الرواية بالمتابعات والشواهد، فانتفى القول بإدراجها[1] ما دام أنها وصلت في هذه المتابعات والشواهد.

3- انفرد بعض الرواة عن الزهري فأورد حادثة التخيير التي جاء الحديث

= ___

قال: وجدت في كتاب أبي، عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس به. بمثل رواية ابن إسحاق.

(1) أشار إلى الإدراج الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (56/11) عند شرح الحديث رقم (4912).

عنها في آيات من سورة الأحزاب عقب رواية حادثة التحريم مما أشعر بأنها وقعت بعدها مباشرة، وهو خلاف التحقيق.

4- وضحت رواية سماك بن الوليد عن ابن عباس في صحيح مسلم، ونصت على أن التخيير المقصود في حادثة التحريم هو الآية التي نزلت في سورة التحريم ونصها: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾.

خامسًا: نتائج دراسة حديث ابن عباس عن عمر، وإثبات أن اعتزاله ﷺ نساءه شهرًا كان بعد حادثة التحريم:

1- الدارس لحديث ابن عباس عن عمر يجد أنه قد ذكر تفصيلات مهمة عن حادثة التحريم، وحدد بما لا يدع مجادلًا للشك بأن المتظاهرتين هما: عائشة وحفصة.

2- ثبت بالحديث الصحيح أن سبب نزول آية التحريم، هو: تحريمه ﷺ مارية.

3- إن حادثة التخيير حادثة منفصلة عن حادثة التحريم، وتختلف عنها من حيث السبب والزمان والمكان والأسلوب وطريقة التعامل في معالجة الخلاف، مما دعا إلى إفراد ذلك ببحث خاص.

4- إن اعتزال رسول الله ﷺ نساءه شهرًا كان بعد حادثة التحريم، يدل على ذلك رواية البخاري «فاعتزل النبي ﷺ حين أفشته حفصة إلى عائشة، وكان قد قال: ما أنا بداخل عليهن شهرًا، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله»، وقد جاء النص على ذلك في كل روايات حديث ابن عباس عن عمر، ويؤيد ذلك:

أ- حديث ابن عباس عن تلك الحادثة، وهذا نصه:

قال: «أصبحنا يومًا ونساء النبي ﷺ يبكين، عند كل امرأة منهن أهلها، فخرجت إلى المسجد، فإذا هو ملآن من الناس، فجاء عمر بن الخطاب، فصعد إلى النبي ﷺ وهو في غرفة له، فسلم فلم يجبه أحد، ثم سلم فلم يجبه أحد، ثم سلم فلم يجبه أحد، فناداه، فدخل على النبي فقال: أطلقت نساءك؟ فقال: «**لا، ولكن آليت منهن شهرًا**» فمكث تسعة وعشرين ثم دخل على نسائه»[1].

ب- وحديث أبي هريرة: قال: هجر النبي عليه الصلاة والسلام نساءه - قال شعبة: وأحسبه قال: شهرًا - فأتاه عمر بن الخطاب، وهو في غرفة على حصير، وقد أثر الحصير بظهره، فقال: يا رسول الله كسرى يشربون في الذهب والفضة، وأنت هكذا!! فقال النبي ﷺ: «**إنهم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»، ثم قال النبي ﷺ: «**الشهر تسعة وعشرون، هكذا وهكذا، وكسر في الثالثة الإبهام**»[2].

هذا وقد جاء خبر اعتزاله ﷺ نساءه عن عدد من الصحابة أيضًا لكنهم لم يحددوا سبب الاعتزال، فإذا أضيف إلى ما سبق من أحاديث فإنه يترجح أن

(1) أخرجه البخاري (5203) في كتاب النكاح: باب هجرة النبي ﷺ نساءه في غير بيوتهن. وقوله: «فخرجت إلى المسجد فإذا هو ملآن من الناس»، دليل على أن ابن عباس حضر هذه القصة. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (213/9): هذا ظاهر في حضور ابن عباس هذه القصة، وحديثه الطويل - أي الذي رواه عن عمر - يشعر بأنه ما عرف القصة إلا من عمر، لكن يحتمل أن يكون عرفها مجملة ففصلها عمر له لما سأله عن المتظاهرتين.

(2) أخرجه أحمد (7963)، وأخرجه البزار (3676) كما في كشف الأستار.

الاعتزال المذكور كان بعد حادثة التحريم، وهي:

1- حديث عائشة رضي الله عنها:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه[1] من طريق عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن الزهري: أن النبي ﷺ أقسم ألا يدخل على أزواجه شهرًا. قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها قال: لما مضت تسع وعشرون ليلة أعدهنّ، دخل عليَّ رسول الله ﷺ قالت: بدأ بي، فقلت: يا رسول الله، إنك أقسمت ألا تدخل علينا شهرًا، وإنك دخلت من تسع وعشرين، أعدهن. فقال: «**إن الشهر تسع وعشرون**».

2- حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

أنه قال: كان رسول الله ﷺ اعتزل نساءه شهرًا، فخرج إلينا في تسع وعشرين، فقال: «**إنما الشهر**» وصفق بيديه ثلاث مرات، وحبس أصبعًا واحدة في الآخرة[2].

3- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: آلى رسول الله ﷺ من نسائه شهرًا، وكانت انفكت قدمه فجلس في علية له، فجاء عمر فقال: أطلقت نساءك؟

(1) برقم (1083) (22)، في الصيام باب الشهر يكون تسعًا وعشرين، والنسائي (2131) من طريق عبد الأعلى قال: حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «أقسم رسول الله ﷺ أن لا يدخل على نسائه شهرًا....» وجعل قوله: «أقسم رسول الله ﷺ» من كلام عائشة لا من كلام الزهري.

(2) أخرجه مسلم (1084) (23) الصيام: باب الشهر يكون تسعًا وعشرين.

قال: «**لا، ولكني آليت منهن شهرًا**»[1].

---

(1) أخرجه البخاري (2469) في المظالم: باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها.

وقد رواه في مواضع متعددة في صحيحه من طرق، عن حميد الطويل عن أنس.

ومن هذه المواضع: (378) في كتاب الصلاة: باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب، وزاد فيه: أن رسول الله ﷺ سقط عن فرسه، فجحشت ساقه أو كتفه، فجلس في مشربة له، درجتها من جذوع، فأتاه أصحابه يعودونه فصلى بهم جالسًا وهم قيام، فلما سلم قال: «**إنما جعل الإمام ليؤتم به...**».

ونزل لتسع وعشرين فقالوا: يا رسول الله إنك آليت شهرًا؟ فقال: «**إن الشهر تسع وعشرون**».

وكذلك رواه برقم (1911)، في الصوم: باب قول النبي ﷺ: «**إذا رأيتم الهلال فصوموا**».

وبرقم (5289) في الطلاق: باب قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾.

وبرقم (6684) في باب الأيمان والنذور.

وكل الروايات التي رواها البخاري في صحيحه من طريق حميد الطويل عن أنس جمعت بين حلفه ﷺ أن يعتزل شهرًا، وبين حادثة سقوطه عن الفرس على شقه الأيمن، أو أنها ذكرت قصة الاعتزال فقط. أو حادثة السقوط عن الفرس فقط. بينما كل الروايات التي رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق الزهري عن أنس ذكرت حادثة سقوطه ﷺ عن الفرس فقط. ولم تذكر قصة الاعتزال، وقد رواها عن الزهري كل من:

1- مالك: وحديثه في البخاري (689)، ومسلم (411) (80).

2- وشعيب: وحديثه في البخاري (732).

3- والليث: وحديثه في البخاري (733) ومسلم (411) (78).

4- سفيان بن عيينة: وحديثه في البخاري (805)، (1114)، ومسلم (411) (77).

5- يونس ومعمر: وروايتهما في صحيح مسلم (411) (79) (81).

ومن شواهد رواية الزهري عن أنس حديث عائشة عند مسلم (412) (82)، وغيره

=

4- حديث أم سلمة:

عن أم سلمة: أن النبي آلى من نسائه شهرًا، فلما مضى تسعة وعشرون يومًا غدا أو راح فقيل له: إنك حلفت أن لا تدخل شهرًا، فقال: «إن الشهر يكون تسعة وعشرين»[1].

***

=

وفيه: «اشتكى رسول الله ﷺ فدخل عليه ناس من أصحابه يعودونه...». وحديث جابر عند مسلم أيضًا برقم (412) (84)، وغيره. وفيه: «اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد...».

ويبدو لي أن حميدًا الطويل جمع بين حادثتين منفردتين في حديثه هذا.

(1) أخرجه البخاري (1910) في الصوم: باب قول النبي ﷺ: «**إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا**». وأخرجه أيضًا (5202)، في كتاب النكاح: باب هجرة النبي ﷺ نساءه في غير بيوتهن، ومسلم (1085) (25) في الصيام باب شهر يكون تسعًا وعشرين ونصه:

أن النبي ﷺ حلف ألا يدخل على بعض أهله شهرًا.

وفيه إشكال، حيث إنه ﷺ حلف ألا يدخل على بعض أهله، أي بعض أزواجه وليس كلهن والاعتزال شمل كل الزوجات.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (213/9): «وهو يشعر بأن اللاتي أقسم أن لا يدخل عليهن هن من وقع منهم ما وقع من سبب القسم لا جميع النسوة، لكن اتفق أنه في تلك الحالة انفكت رجله كما في حديث أنس... فاستمر مقيمًا في المشربة ذلك الشهر كله، وهو يؤيد أن سبب القسم ما تقدم في مارية، فإنها تقتضي اختصاص بعض النسوة دون بعض، بخلاف قصة العسل، فإنهن اشتركن فيها إلا صاحبة العسل، وإن كانت إحداهن بدأت بذلك، وكذلك قصة طلب النفقة والغيرة فإنهن اجتمعن فيها».

سادسًا: الراجح في سبب نزول آيات التحريم هو قصة مارية:

وعليه، ومن خلال ما تقدم يتبين لنا بوضوح أن سبب نزول آيات التحريم هو: تحريمه ﷺ مارية وأن حادثة شرب العسل ليست سببًا للنزول، وإنما ذكرت فيها آية التحريم على سبيل الاستشهاد كما تقدم بيان ذلك، ولا مانع من أن تكون قد وقعت قبل حادثة التحريم بمدة قصيرة، للأسباب الآتية:

1- إن الأحاديث الواردة في تحريمه ﷺ مارية، وكونها سببًا لنزول الآيات صحيحة، وقد اعترف بذلك عدد من المحدثين، منهم الحافظ ابن حجر، والإمام السيوطي، والإمام ابن كثير وهو ممن يرجح شرب العسل سببًا لنزول الآيات، والشوكاني، وهو ممن يرى: أن الحادثتين صحيحتان، وأن كلتيهما سبب في نزول الآيات.

ويؤكد ذلك الآثار الواردة عن أئمة التابعين، والأحكام الفقهية المستنبطة من هذه الحادثة.

وعليه فلا يصح قول من قال: إنه روي مرسلًا، اعتمادًا على رواية من روايات الحديث المرسلة، وهي ما جاء عن زيد بن أسلم.

وكونه لم يدون في الصحيح ليس حجة، فكثير من الأحاديث لم تدون في الصحيح، وأصحاب الصحاح لم يشترطوا الاستيعاب بل نصوا على أن ما لم يخرجوه في كتبهم من الصحيح أكثر.

3-صنيع جميع المفسرين عند تفسيرهم للآيات الأولى من سورة التحريم مشعر بترجيحهم له، فقد توسعوا أيما توسع في ذكر الأحاديث والآثار الواردة في ذلك، والأحكام الفقهية المستنبطة منها. بل قد اعترف عدد ممن لم يرجحه

بأنه أقرب إلى المعنى، ومنهم، ابن العربي، والقرطبي، والألوسي.

قال الحافظ ابن حجر: والراجح من الأقوال كلها قصة مارية، لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل فإنه اجتمع فيه جماعة منهن.

3- القرائن:

ومن القرائن التي تؤيد الترجيح:

أ- ورود سورة التحريم بعد سورة الطلاق مشعر بمناسبة بينهما:

قال الإمام السيوطي رحمه الله، وهو يتحدث عن سورة التحريم: «وهي متواخية مع التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء، وهذه على تحريم الإماء، وبينهما من الملابسة ما لا يخفى، ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة، ذكر في هذه خصومة نساء المصطفى ﷺ...»[1].

ب- وقال البخاري في صحيحه: وقال أهل العلم: إذا طلق ثلاثًا فقد حرمت عليه، فسموه حرامًا بالطلاق والفراق، وليس هذا كالذي يحرم الطعام؛ لأنه لا يقال للطعام الحل: حرام، ويقال للمطلقة: حرام[2].

جـ- وبعد كتابة ما تقدم رأيت تحقيقًا جيدًا للعلامة للشيخ محمد جمال الدين القاسمي حيث قال: «والذي يظهر لي، هو ترجيح روايات تحريم الجارية في سبب نزولها، وذلك لوجوه:

(1) انظر «روح المعاني» للألوسي (146/28).

(2) «فتح الباري» (285/9).

منها: أن مثله يبتغى به مرضاة الأزواج، ويُهتم به لهن.

ومنها: أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن، بل فيه أنه حلف لا يشربه أنفة من ريحه.

ومنها: أن الاهتمام بإنزال سورة على حدة لتقريع أزواجه ﷺ، وتأديبهن في المظاهرة عليه، وإيعادهن على الإصرار على ذلك، بالاستبدال بهنّ، وإعلامهن برفعه مقامه، وأن ظهراءه مولاه وجبريل والملائكة والمؤمنون: كل ذلك يدل على أن أمرًا عظيمًا دفعهن إلى تحريمه ما حرم، وما هو إلا الغيرة من مثل ما روي في شأن الجارية، فإن الأزواج يحرصن أشد الحرص على ما يقطع وصلة الضرة الضعيفة ويبترها من عضو الزوجية».

ثم أضاف قائلًا:

«وأما تخريج رواية العسل في هذه الآية، وقول بعض السلف نزلت فيه، فالمراد منه: أن الآية تشمل قصته بعمومها على ما عرف من عادة السلف في قولهم: نزلت في كذا...»[1].

***

(1) «محاسن التأويل» (215/16).

سابعًا: الدروس المستفادة من قصة التحريم:

الـدرس الأول: نستفيد من هـذه الحادثـة درسًـا تربـويًّا رائعًـا في فقـه الأسـرة المسلمة، وهو كتمان الأسرار في الحياة الزوجية، وعدم إفشائها مهما كان حجم السر، ومهما كان نوعه.

قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

لقد علمت الزوجة أنها وقعت في أمر لا يجوز الوقوع فيه، بعد أن استأمنها رسول الله ﷺ، وطلب منها عدم إفشائه، ولهذا كان موقفها موقف الضعيف المدافع عن تصرف خاطئ، وهي الآن تريد أن تلقي التبعة على من أفشت إليها سرها ظنًّا منها أنها هي التي أباحت بالسر.

قالت: من أنبأك هذا؟

ولكن النبي ﷺ ذهب لينفي هذا الظن، ويؤكد خطأ التصرف الذي صدر منها، ليتخذ القرار الحازم في الجزاء، فإن أمرًا عظيمًا مثل هذا – قد يهدد الحياة الزوجية برمتها، ويقضي على استقرارها – لا ينبغي أن يمر بغير جزاء.

فما هو الأسلوب الذي استعمله رسول الله ﷺ أمام هذا الخطر العظيم، والموقف الجلل؟

هل ضرب؟ لا، إنّ رسول الله ﷺ لم يستعمل أسلوب الضرب لحل المشكلات الزوجية.

ولكنه هنا استعمل أسلوب الهجر، وهو أسلوب تربوي هادف يعبر عن حالة الغضب وعدم الرضا أتم تعبير، وهو أكثر إيلامًا في النفس وأشد وقعًا عليها.

إنه أسلوب قرآني، ولكن النبي ﷺ هنا يعلمنا كيف نطبقه ومتى نطبقه, قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34]، وفي حادثة التحريم: «وأقسم رسول الله ﷺ أن لا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن». وفي رواية أخرى: «فاعتزل النبي ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعًا وعشرين ليلة»(1).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفيه أي في حديث عمر من الفوائد – المعاقبة على إفشاء السر بما يليق بمن أفشاه»(2).

الدرس الثاني: يستفاد من قصة التحريم درس عملي، ومنهج يتبعه المسلم في تعامله مع الأشياء التي أحلها الله له في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32].

وإذا كان الله عز وجل كرَّم الإنسان بشتى مظاهر التكريم، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا: فليس من منهج الله في شيء أن يُحرم الإنسان على نفسه بعضًا من هذا التكريم بأي وسيلة من وسائل التحريم، ولو بالامتناع عمّا أحله الله عن طريق حلف الأيمان، ولهذا كان لا مناص في المنهج الرباني من التراجع عن مثل هذا الامتناع، إذا ما وقع الإنسان فيه، قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ

(1) من حديث ابن عباس عن عمر، وقد تقدم تخريجه.
(2) «فتح الباري» (204/9).

اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾.

ثم أكد النبي ﷺ هذا المفهوم، وحثنا على التراجع من غير ما تردد عندما قال: «**وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها، فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير**»[1]. والأمر في قصة التحريم لا يخرج عن هذا الإطار: تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «ألى رسول الله ﷺ وحرّم، فأمر في الإيلاء بكفارة، وقيل له في التحريم: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[2].إن النبي ﷺ لم يحرم الحلال، وكل ما في الأمر أنه آلى أي: حلف، وحرم – أي امتنع – ولكنه عاد عن تحريمه فجعل الحرام حلالًا وكفر عن يمينه.

إنه أراد أن يعالج مشكلة طارئة قد عرضت في بيته الكريم , انطلاقًا من خلقه العظيم في تعامله مع زوجاته الطاهرات، ريثما تهدأ النفوس وتستقر الأوضاع، ولكن الله تبارك وتعالى أراد أن يعلم الأمة من وراء هذه الحادثة: أنه لا ينبغي لأحد أن يحرم حلالًا ولو بالامتناع عنه، فضلًا عن غيره؛ إذ لا يملك أحد مثل هذا القرار إلا الله تبارك وتعالى.

إن هذا الامتناع نوع من أنواع الإعراض غير المقصود عن إكرام الله وإنعامه، والكريم يعاتب المكرَّم إذا أعرض عن كرمه وإنعامه، ولكن معاتبة المحب لمحبوبه، لا معاتبة الغضب والانتقام، والله غفور رحيم.

قال الألوسي: «﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فيه تعظيم شأنه ﷺ بأن تَرْكَ الأولى

(1) رواه البخاري (6622) ومسلم (1653).

(2) أخرجه الطبري في تفسيره (150/12)، ورجاله ثقات كما قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (285/9).

بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يُعدُّ كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأن عتابه ليس إلا لمزيد الاعتناء به، وقد زلّ الزمخشري ههنا وزعم كعادته: أنَّ ما وقع من تحريم الحلال المحظور، لكنه غفر له عليه الصلاة السلام»[1].

ورد عليه ابن المنير بقوله: «إن ما أطلقه في حقه ﷺ تَقَوُّل وافتراء، والنبي منه براء، وذلك أن تحريم الحلال منه على وجهين:

الأول: اعتقاد ثبوت حكم التحريم، وهو محظور يوجب الكفر، فلا يمكن صدوره من المعصوم أصلًا.

والثاني: الامتناع من الحلال مطلقًا أو مؤكدًا باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح، وما وقع منه ﷺ من هذا النوع وإنما عاتبه الله عليها رفقًا به وتنويهًا بقدره، وإجلالًا لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريًا على ما ألف من لطف الله به»[2].

الدرس الثالث: في بيان اللفظ الذي استعمله رسول الله ﷺ في هذه الحادثة:

اختلف العلماء في اللفظ الذي استعمله رسول الله ﷺ في تحريمه مارية على قولين:

1- حرمها مع اليمين:

ومن قال بذلك: عائشة، وزيد بن أسلم، ومسروق، وقتادة وعامر

الشعبي، والضحك، ورجحه الطبري وقال - كما في تفسيره[3] -: لا يعقل

(1) «روح المعاني» 147/18.

(2) في كتابه «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» المطبوع بحاشية الكشاف (113/4).

(3) (150/12).

في لغة عربية ولا عجمية أن قول القائل لجاريته، أو لطعام أو شراب: هذا عليَّ حرام: يمين فإذا كان ذلك غير معقول، فمعلوم أن اليمين غير قول القائل للشيء الحلال له: هو عليَّ حرام.

قالوا: حرمها عليه: وحلف أن لا يقربها، فعوقب في التحريم، وجاءت الكفارة في اليمين.

ودليلهم في ذلك: حديث عائشة رضي الله عنها المذكور آنفًا.

2- حرمها فقط، فجعل الله عز وجل تحريمه إياها بمنزلة اليمين، وأوجب فيها الكفارة.

وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ورواية عن قتادة، ورجحه الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ودليلهم: حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية، وفيه: «قال: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها؟ قلت: بلى، فحرمها...».

الدرس الرابع: في بيان الأحكام الفقهية المتعلقة بالتحريم:

هذا، وقد اختلف العلماء فيمن حرّم على نفسه شيئًا، فقال جمهور الفقهاء: إن حرّم زوجته أو أَمته، ولم يقصد الطلاق ولا الظهار، ولا العتق في الأمة: فعليه كفارة يمين، ويعني بقوله: «عليَّ حرام»: أي اجتنابها وترك وطئها.

وقال مالك: في الحرام ثلاث تطليقات، ولا يسأل عن نيته، أما إذا قال لأمته: أنت عليَّ حرام، ولم يقرن ذلك بالحلف، فهو لغو عنده ولا يترتب عليه شيء.

وإن حرم طعامًا أو شرابًا أو غير ذلك من المباحات، فلغو - أي ليس عليه كفارة يمين - وهذا عند الشافعية والمالكية، أما عند الحنفية والحنابلة، فعليه في الجميع كفارة يمين[1].

الدرس الخامس: كما نستفيد من هذه الحادثة: أن ينأى المسلم بزوجه عن مثل هذه النزاعات، حتى لا تكون ضحية لأمر قد لا تكون سببًا له، ولا طرفًا فيه - ولو كانت أمة لا يعبأ بشأنها ولا يهتم لأمرها - وذلك صيانة للأسرة المسلمة من عوامل التمزق والانهيار، وحفظًا لاستقرارها وضمانًا لمستقبلها.

ويهدف هذا التشريع إلى تأمين كل ما يبعث على إضفاء الأمن والطمأنينة والسكينة في نفس الزوجة، لكي تتمكن من القيام بأداء وظائفها في داخل الأسرة على أحسن وجه وأتم نظام.

والغريب في الأمر: أن نجد في الأُمة من لم يتقن هذا الدرس، ولم يتعلم من هذه الحادثة فأسرف في استعمال ألفاظ التحريم، أو مصطلحات الأيمان

المغلظة وغير المغلظة للامتناع عن كثير من الأمور في عدد من مفردات الحياة اليومية، وما سبب ذلك إلا الجهل بأحكام الشرع، ثم هذه الاختلافات الطويلة التي تراكمت حول النص القرآني، وعلى الرغم من فائدتها في استنطاق النص

---

(1) للتوسع في بحث هذه المسألة فقهيًا يراجع:
«المغني» لابن قدامة (154/7، 155، 156، 232، 343)، و«روضة الطالبين» للنووي (28/8 - 30)، و«فتح الباري» (285/9)، وشرح صحيح مسلم للنووي (64/10)، وينظر «الموسوعة الفقهية» مادة: تحريم. وقد تعرض لبحث هذه المسألة من الناحية الفقهية كثير من المفسرين ومن هؤلاء: الجصاص في «أحكام القرآن» (695/3)، وابن العربي في «أحكام القرآن» (293/4)، والقرطبي في تفسيره (119/9)، وغيرهم.

واستنباط الأحكام إلا أنها قد تشغل المسلم أحيانًا عن الهدف الأسمى، وتبعده عن الأخذ من القرآن والتلقي المباشر عنه، سواء في تشكيل عقله، أو الاستفادة منه في معالجة ما يعترضه من مشكلات في حياته.

الدرس السادس: كما نستفيد من هذه الحادثة درسًا رائعًا في سماحة الإسلام ويسر تعاليمه ورفع الحرج عن أتباعه: ويتمثل هذا الدرس في أن الله تعالى قد شرع لنا تحلة الإيمان، قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾، قال المهلب[1]: من نعم الله على هذه الأُمة فيما خفف عنهم: أن من قبلهم كانوا إذا حرموا على أنفسهم شيئًا حُرِم عليهم، كما وقع ليعقوب عليه السلام، فخفف الله ذلك عن هذه الأُمة، ونهاهم أن يحرموا على أنفسهم شيئًا مما أحل لهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾[2].

---

(1) هو ابن أبي صفرة الأسدي الأندلسي، مصنف «شرح صحيح البخاري»، قال عنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (579/17): كان أحد الأئمة الفصحاء، الموصوفين بالذكاء، توفي سنة 435هـ.

(2) ويؤيد هذا ما جاء عن ابن عباس – وقد جاءه أعرابي يسأله بقوله: إني جعلت امرأتي حرامًا – قال: ليست عليك بحرام، قال: أرأيت قول الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فقال ابن عباس: «إن إسرائيل كان به عرق النسا، فجعل على نفسه إن شفاه الله أن لا يأكل العروق من كل شيء. وليست بحرام» يعني: على هذه الأمة. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (285/9): أخرجه يزيد ابن هارون في كتاب النكاح، ومن طريقه البيهقي بسند صحيح.

الـدرس السـابع: كمـا نشـهد في هـذه الحادثـة أدبًا بليغًـا في التعامـل مـع الخلافات الزوجية الخاصة، وذلك بالسكوت عن أسبابها وعدم التصريح بها، لاسيما إذا كنت تتعلق بخصوصيات الزوج والزوجة، والكناية عنها بلفظ عام دون الدخول في التفاصيل، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾.

فالآية تتحدث عن شيء معين حرمه رسول الله ﷺ، ولم تحدد أي شيء كان ذلك المحرَّم. وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا** ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ **حَدِيثًا** ﴾ هكذا بصيغة التنكير، ولم يحدد نوع الحديث الذي أسرَّه النبي ﷺ إلى بعض أزواجه. ولقد تأدب الصحابة بهذا الأدب الكريم، فهذا سيدنا ابن عباس رضي الله عنه يقول:

«مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع هيبة له...».وما منعه من السؤال إلا أنه يعلم أن المشكلة هي أمر خاص لا ينبغي التعمق في البحث عن أسبابه، وكشف أسراره، والمهم هو أخذ العبرة منه.

ولولا أن هذا الأمر يتعلق بسيرة رسول الله ﷺ لما دفعه ذلك إلى التحقيق والبحث والسؤال عن كل ما يتعلق به من أحكام وأحوال.

قال الحافظ ابن حجر: وفيه - أي في حديث عمر من الفوائد - حرص الصحابة على العلم والضبط بأحوال رسول الله ﷺ»[1].

(1) «فتح الباري» (202/9).

وهذا الدافع هو الذي جعل عمر يحدثه بذلك، ولا يكتمه عنه مع كراهيته للسؤال، فعندما سأله ابن عباس، قال له عمر: واعجبًا لك يا ابن عباس، «قال الزهري: كره – والله – ما سأله عنه ولم يكتمه عنه؟».

ولا عجب بعد ذلك أن نجد هذا الخلاف الكبير بين العلماء في تحديد السبب الحقيقي لحادثة التحريم.

الدرس الثامن: كما نستفيد من هذه الحادثة درسًا عمليًّا في الحياة الزوجية، وهو مبدأ الصراحة في التعامل، وألا يدفعه عن هذا المبدأ أي دافع، ولو كان هو مداراة الزوجة وكريم عشرته معها، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ** ﴾. وفي هذا التحريم: استعمل النبي ﷺ المدارة حلًّا مؤقتًا للمشكلة الطارئة في بيتِه، وقد جاء الخطاب الرباني ليصحح المسار في هذه الحادثة، ويعلم الأمة من وراء ذلك أسلوب الصراحة في التعامل، وهو منهج يبعث على الاطمئنان ويؤدي إلى الراحة والارتياح عند كلا الطرفين في حياتهم الزوجية.

الدرس التاسع: ثم بعد هذا الهجر الذي دام شهرًا أنزل الله الوحي ليضع حدًّا لهذه المشكلة عن طريق التوبة الخالصة. «وهنا نجد أن السياق قد تغير من الحكاية عن حادث وقع، إلى مواجهة وخطاب للمرأتين، كأن الأمر حاضر: ﴿ **إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** ﴾، وفي هذا إيماء إلى أن فيما فعلتاه انحرافًا عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به، وأن عليهما أن تتوبا مما صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما»[1].

---

(1) «التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر بن عاشور (356/13).

وهو درس نتعلمه من حادثة التحريم، بأن على كل زوجة إذا ما أخلت بأدب المعاشرة مع زوجها أن تتوب إلى الله من فعلها، لتفتح بذلك صفحة جديدة في حياتها الزوجية قوامها الطاعة والاحترام.

الدرس العاشر: وفي سورة التحريم «نجد حملة ضخمة هائلة، وتهديدًا رعيبًا مخيفًا» قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن مخالفة رسول الله ﷺ أمر عظيم لا ينبغي للمسلم أن يقع فيه، «ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله ﷺ، حتى احتاج إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين. والملائكة بعد ذلك ظهير، ليطيب خاطر الرسول ﷺ، ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير.

ولابد أن الموقف في حس رسول الله ﷺ وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة. ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر رضي الله عنهما وهو يسأله: جاءت غسان؟ فيقول: لا، بل أعظم من ذلك وأهول. وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة، وهجومها إذ ذاك أمر خطير، وهجومها إذ ذاك أمر خطير، ولكن الأمر الآخر في نفوس المسلمين كان أعظم وأهول، فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير، وسلام هذا البيت الكريم: أكبر من كل شأن، وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم، وهو تقدير يوحي بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور، وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء

للأمر، فهو إذًا صحيح قويم عميق»[1].

قال الحافظ ابن حجر: وفيه – أي في حديث عمر من الفوائد – اهتمام الصحابة بما يهتم له، لإطلاق الأنصاري اعتزاله نساءه الذي أشهر عنده بأنه طلقهن، المقتضي وقوع غمه ﷺ بذلك أعظم من طروق ملك الشام الغساني بجيوشه المدينة لغزو من بها، وكانوا في الطرف الأقصى من رعاية خاطره ﷺ أن يحصل له تشويش، ولو قل، والقلق لما يقلقه، والغضب لما يغضبه، والهم لما يهمه رضي الله عنهم...»[2].

الدرس الحادي عشر: كما نستفيد من هذه الحادثة درسًا تربويًّا آخر، ولكنه عن طريق الإيماء وليس مباشرًا، وهو استثمار هذه الحادثة عن طريق دعوة الزوجة إلى الأخلاق التي يجب أن تتحلى بها، والصفات التي يجب أن تتصف بها. قال تعالى: ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾؟

«وهي الصفات التي يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح. الإسلام: الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين: والإيمان: الذي يعمر القلب، وعنه ينبثق الإسلامُ حين يصح ويتكامل. والقنوت: وهو الطاعة القلبية. والتوبة: وهي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة.

والعبادة: وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له، والسياحة: وهي التأمل والتدبر والتفكر في إبداع الله والسياحة في القلب في ملكوته، وهن – مع

---

(1) «في ظلال القرآن» (3616/6) بتصرف.

(2) «فتح الباري» (204/9).

هذه الصفات - من الثيبات ومن الأبكار، كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر.

وهو تهديد لهن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكايداتهن في قلب رسول الله ﷺ وما كان ليغضب من قليل.

وقد رضيت نفس النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات، وخطاب ربه له ولأهل بيته واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة، وعاد إلى هدوئه بتوجيه الله سبحانه وتعالى، وهو تكريم لهذا البيت، ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه»[1].

الدرس الثاني عشر: ونستفيد من هذه الحادثة درسًا في أهمية دراسة حياة النبي ﷺ والاطلاع على جوانبها كافة[2]: الإنسانية والتشريعية والسياسية العسكرية والعبادية والتربوية، وعدم الانسياق وراء الدعوات الهدّامة التي تحاول الفصل بين حياته الإنسانية وحياته التشريعية، بدعوى أن حياته الإنسانية هي حياة خاصة، وليس مطلوبًا من المسلم التأسي بها، وبناء حياته من خلالها نظرًا لتطور الحياة وتغير أساليبها...، وهي نظرة مغرضة؛ إذ المسلم يميز بين الوسائل الدنيوية التي تتغير بتغير الظروف والأحوال والزمان والمكان وبين الأهداف والمثل والقيم التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان..

الدرس الثالث عشر: وفي حادثة التحريم نشهد «صورة من حياة إنسان

---

(1) «في ظلال القرآن» (3616/6 - 3617).

(2) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (204/9): «وفي الحديث - أي حادثة التحريم - ما كان الصحابة عليه من محبة الاطلاع على أحوال رسول الله ﷺ جلت أو قلت، واهتمامهم بما يهتم له...».

كريم رفيع جليل عظيم، يزاول إنسانيته في الوقت الذي يبلغ فيه أحكام الوحي، فلا يفترق هذا عن تلك؛ لأن القدر جرى بأن يكون بشرًا رسولًا حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير.

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل، ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنسانًا، فلا تكبت طاقة من طاقته البانية، ولا تعطل استعدادًا من استعداداته النافعة، وفي الوقت ذاته تهذبه وتربيه وترتفع به إلى غاية مراقيه.

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به، حتى استحالوا نسخًا حية منه.

وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية، كما يبدو في سيرة أهله وأقرب الناس إليه هي : النموذج العملي للمحاولة الناجحة، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية، التي لا تعيش في هالات ولا خيالات.

وتحققت حكمة القدر في تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة، وفي اختيار الرسول الذي يطيق تلقيها وترجمتها في صورة حية، وفي جعل حياة هذا الرسول كتابًا مفتوحًا يقرأه الجميع، وتراجعه الأجيال بعد الأجيال»[1].

الدرس الرابع عشر: ونستفيد من قصة التحريم درسًا مهمًّا من آداب الحياة الزوجية، وذلك بأن لا يستقصي الزوج عيوب زوجته، وألا يترصد أخطاءها ومواطن الضعف عندها، فإن ذلك يبعث على السآمة والملل في نفسها، مما يؤدي إلى فساد الحياة الزوجية، قال تعالى وهو يتحدث عن موقف النبي ﷺ

(1) «في ظلال القرآن» (3617/6) بتصرف يسير.

من إفشاء بعض نسائه السر: ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾.

وقديمًا قال الإمام علي ﷺ: «ما استقصى كريم قطُّ»، وقال سفيان الثوري: «ما زال التغافل من فعل الكرام»[1].

وقال الشاعر العربي[2]:

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومه ... لكنَّ سيدَ قومه المتغابي

ولكن حذارِ من أن يتقلب التغافل إلى الغفلة، فلا يدري الزوج ما يجري في بيته من أمور، قد تكون لها عواقب وخيمة على أمن الأسرة وضمان استقرارها، وشتان ما بين الغفلة والتغافل، وما بين الإهمال والتيقظ.

الدرس الخامس عشر: وفي هذه الحادثة نجد لونًا جديدًا من ألوان تكريم المرأة في الإسلام، ودرسًا تطبيقيًّا في تغيير النظرة السائدة آنذاك حولها، واستمع إلى سيدنا عمر يحدثنا عن ذلك فيقول: «والله، إن كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئًا، فلما جاء الإسلام، وأنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم: رأينا لهن بذلك علينا حقًّا، من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا...»[3].

الدرس السادس عشر: كما أننا نتعلم من حادثة التحريم درسًا جديدًا في كيفية التعامل مع عادات الأمم والشعوب، ولا نرفضها لمجرد كونها مستوردة

---

(1) انظر «روح المعاني» للألوسي (145/28).

(2) هو الشاعر المعروف أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، وهذا البيت من قصيدة له يمدح بها والي الجزيرة مالك بن طوق التغلبي؛ انظر ديوانه ص 34.

(3) هو جزء من حديث ابن عباس عن عمر، وقد أخرجه البخاري (4913) و (5843)، والنص المذكور مجموع من هذين الموضعين.

إلينا إذا كانت نافعة، وتتفق مع قواعد ديننا، إنه منطق العدالة التي جاء بها هذا الدين، فالحق أحق أن يتبع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

يدل على ذلك قول عمر في الحديث: «... كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فبينما أنا في أمر أتأمره – أي أتفكر فيه وأراجعه – إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، فقلت: مالك ولما ههنا: فيما تكلفك – أي تعرضك – لأمر أريده. وأنكرت أن تراجعني...»

وعندما ذهب إلى رسول الله ﷺ هو جالس في مشربته معتزلًا نساءه شهرًا، وحدثه بهذا الحديث تبسم رسول الله ﷺ، وابتسامته ﷺ تنمُّ عن الرضا، وكيف لا يرضى رسول الله ﷺ بذلك، وهو يعلم أن هذه المراجعة نوع من أنواع مشاركة المرأة في مسؤولية الأسرة، والقيام مع الرجل بأعبائها.

وهو تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]، ولكن شريطة أن تتم هذه المشاركةُ في حدود الوظيفة التي أناطها الله بكل من الرجل والمرأة وعدم تجاوز أي منهما على حق الآخر. قال الحافظ ابن حجر: «وفيه : أي في حديث عمر من الفوائد – أن شدة الوطأة على النساء مذموم؛ لأن النبي ﷺ أخذ بسيرة الأنصار في نسائهم، وترك سيرة قومه»[1].

الدرس السابع عشر: ونشهد في حادثة التحريم مظاهر عناية الله برسوله

---

(1) «فتح الباري» (203/9).

ﷺ، وانتصاره له في إشارات متعددة، ولمحات دالة في عدة مواضع من آيات سورة التحريم: فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أظهره الله على إفشائه؛ إذ إن إطلاعه ﷺ على ما لا علم له به ما يهمه عناية ونصح له.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَاهُ﴾: يفيد القصر في هذه النصرة. أي إن الله هو ناصره، وفي هذا تعريف بأن الله تعالى ناصر رسوله ﷺ، لئلا يقع أحد من بعد في محاولة التقصير عن نصره.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وفيها تعظيم هذا النصر بوفرة الناصرين، وتنويهًا بمحبة أهل السماء للنبي ﷺ وحسن ذكره بينهم فإن ذلك مما يزيد نصر الله إياه شأنًا[1]. ولعل المراد من إعظام الله عز وجل شأن النصرة لنبيه ﷺ: «المبالغة في توهين أمر تظاهرهما، ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره في أمر النبوة والتبليغ وقهر أعداء الدين لما أن العادة قاضية باشتغال بال الرجل بسبب تظاهر أزواجه عليه...

وفيه أيضًا: مزيد إغاظة للمنافقين، وحسمٍ لأطماعهم الفارغة، فكأنه قيل: فإن تظاهرًا عليه لا يضر ذلك في أمره، فإن الله هو مولاه وناصره في أمر دينه وسائر شؤونه على كل من يتصدى لما يكرهه»[2].

---

(1) استفدت هذه المعاني من «التحرير والتنوير» للعلامة محمد الطاهر بن عاشور (353/13، 358).

(2) «روح المعاني» للألوسي (154/28).

الدرس الثامن عشر: ونستفيد من هذه الحادثة تجنب إذاعة الأخبار قبل التحقق من ثبوتها، وقبل الاطلاع الوافي عليها من مصادرها، فإن الإشاعة لها أثر ضار في الأسرة المسلمة وفي المجتمع المسلم، لاسيما فيما يتعلق بالحياة الزوجية. فعندما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه في حادثة التحريم شاع في المدينة أن النبي ﷺ قد طلّق نساءه، فما كان من عمر ﷺ إلا أن ذهب لتحري الخبر رغم كثرة ناقليه، وشيوعه بين الناس – من مصدره، يقول عمر: ودخلت على حفصة وهي تبكي، فقال لها: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في المشربة. فاستأذن على رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فلما أذن له دخل عليه يقول: قلت له وأنا قائم: يا رسول الله، أطلقت نساءك؟ فرفع إليَّ بصره، فقال: «**لا**»، فقلت: الله أكبر.قال: أفأنزل فأخبرهن أنك لم تطلقهن؟ قال: «**نعم، إن شئت**»[1]. قال الحافظ ابن حجر: «يستفاد منه – أي من حديث التحريم – أن الأخبار التي تشاع ولو كثر ناقلوها، إن لم يكن مرجعها إلى أمر حسي من مشاهدة أو سماع لا تستلزم الصدق، فإن جزم الأنصاري في رواية بوقوع التطليق وكذا جزم الناس الذين رآهم عمر عند المنبر بذلك محمول على أنهم شاع بينهم ذلك من شخص بناءً على التوهم الذي توهمه من اعتزال النبي ﷺ نساءه، فظن – لكونه لم تجر عادته بذلك – أنه طلقهن، فأشاع ذلك فتحدث الناس به»[2].وفي هذه القضية نزل الوحي ليعالج مثل هذه المشكلات، ويؤدب الأمة أن تلتزم المنهج الرباني الذي رسمه الله لها، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ**

---

(1) هو مقطع من حديث ابن عباس عن عمر، وقد تقدم تخريجه.

(2) «فتح الباري» 9/203 - 204.

الْأَمْنِ أو الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء]. **الدرس التاسع عشر**: «وفي ظلال هذا الحادث[1] الذي كان وقعه عميقًا في نفوس المسلمين يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار، ويرسم لهم مشهدًا من مشاهدها، وحال الكفار عندها، فيقول عز شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾. **الدرس العشرون**: وبعد ,

فإن هذه الدروس المستنبطة من حادثة التحريم، وهي دروس تربوية لها أهميتها في نظام الأسرة واستقرارها تثبت حكمة الله تعالى في إنزال سورة كاملة تتحدث عنها، وعليه فلا يلتفت إلى ما أثاره بعض المستشرقين حول ما نزل من الآيات في مستهل سورة التحريم، زاعمًا أن كتب الشرق المقدسة جميعًا لم تُشر إلى مثل هذا الحادث المنزلي على هذه الصورة. وما أحسبنا في حاجة إلى أن نذكر ما ورد بالكتب المقدسة جميعًا، من قصص الرسل وسيرهم، وما صنعوا وما أصابهم، عبرة للناس مما صح ومما لم يصح، وقد جاء في القرآن كثير من ذلك، قص الله على رسوله أحسن القصص، والقرآن لم ينزل لمحمد ﷺ وحده وإنما نزل للناس كافة، فإذا قص من أخباره ﷺ، وتناول من سيرته ليكون للمسلمين فيه أسوة حسنة، فلا شيء من ذلك يخرج عما أوردته سائر الكتب المقدسة، وما أورد القرآن من سير الأنبياء[2].

(1) «في ظلال القرآن» (3617/6) بتصرف.

(2) انظر كتاب «حياة محمد ﷺ» لمحمد حسين هيكل ص 360.

المبحث العاشر

أسلوب التخيير والتشاور

قصة التخيير نموذجًا

تمهيد:

يقدم هذا المبحث أسلوبًا من الأساليب النبوية في معالجة الخلافات الزوجية من خلال قصة التخيير، وهي قصة كشفت عن تعامل النبي ﷺ الحكيم مع المشكلات الاقتصادية التي تنشأ داخل الأسرة بسبب المطالبة بزيادة النفقات... وقد استعمل النبي ﷺ في حل هذه المشكلة (أسلوب التخيير)، وهي صورة مشرقة من صور مبدأ الشورى، وكيف يمكن الاستفادة منه في نظام الأسرة.

واستقرار الأسرة يستحق منا كل اهتمام, ذلك لأنها تمثل آخر حلقة من الحلقات التي يستهدفها التآمر الغربي في صراعه مع الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا.

واستقرار الأسرة أمر مهم حتى تتمكن من القيام بمسؤولياتها في تربية الأجيال وتنشئتهم تنشئة صالحة، وعدم استقرارها يعطل هذا الدور المنوط بها.

واليوم تعاني الأسرة من مشكلات كثيرة لعل من أهمها:

هذه المبالغة في أنماط الاستهلاك، والإسراف في النفقات، مما يدفع بالأسرة أن تسلك سلوكًا غير رشيد ولا حميد؛ إذ جرها إلى أنواع من التعامل الآثم في سبيل الحصول على مورد تسد به نفقاتها المتزايدة يومًا بعد يوم، وقد ظهر في

المجتمع نتيجة ذلك:

التعامل بالربا، وأخذ الرشوة، والغش في المبيعات، وعدم إتقان الأعمال، إلى غير ذلك من المنهيات التي حذرنا منها الإسلام، ومن هنا فإن الحق تبارك وتعالى حذرنا من مغبة ذلك عندما قال: ﴿مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. ولاشك أن الأسرة المسرفة هي أسرة لا يحبها الله، وليس لها شأن يذكر في الملأ الأعلى.

درس آخر أراد النبي ﷺ منا أن نتعلمه من قصة التخيير، وهو أن نبتعد عن المبالغة في الإنفاق العام حتى لا تكبر الديون، ولا شك أن الفرد أو الأسرة أو الأمة عندما تبالغ في الاستهلاك سيضطرها ذلك إلى الاستدانة لتغطية هذه النفقات.

ومشكلة الديون مشكلة قائمة في عالمنا الإسلامي، ولها آثارها الخطيرة على حاضر الأمة ومستقبلها.

وقد استعاذ النبي ﷺ في جملة ما استعاذ من غلبة الدين وقرنه بقهر الرجال، عندما قال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن...»، ثم قال: «ومن غلبة الدَّين وقهر الرجال»، فكأن النبي ﷺ أراد أن يقول لنا: إن غلبة الدين صنوا لقهر الرجال وقرين له...وفي هذا الأسلوب الرائع تحذير من الدين أيما تحذير.

كما أن النبي ﷺ أراد أن يعلم الأمة من خلال حادثة التخيير كيف تحافظ على المال إذا فتحت عليها الدنيا.

أراد أن يعلم المسؤول من الأمة – رب الأسرة الكبيرة، ورب الأسرة الصغيرة – كيف يقف الموقف الحازم أمام هذه الأنماط من الاستهلاك المبالغ فيه، ولو كان هذا الاستهلاك في المباحات فضلًا عن المحرمات، وما ذلك إلا

لضمان مستقبلها، والحفاظ على قوتها وحفظها من الخروج عن منهج الله.

وقد سجل لنا القرآن حقائق مهمة عن أقوام أصيبوا بالترف، وأسرفوا في الإنفاق، فكان عاقبتهم الدمار.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

والإسراف من الجرائم التي اقترفها فرعون فاستحق العقوبة التي نزلت به، وما نجا منها قومه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾، فحري بنا أن نتابع النبي ﷺ في سلوكه مع أسرته، وأن ننأى جانبًا عن كل سلوك يجعلنا في زمرة فرعون وزمرة المترفين.

أما خطتي في تفاصيل قصة التخيير، فسوف يكون في سبع فقرات؛ وهي:

أولًا: الآيات الواردة في قصة التخيير مع تفسير إجمالي لها.

ثانيًا: سبب التخيير مع بيان أن الراجح هو طلب زيادة النفقة.

ثالثًا: كيفية التخيير.

رابعًا: الأحاديث الواردة في قصة التخيير.

خامسًا: مناقشة قضية الاعتزال في حديث التخيير.

سادسًا: زمن وقوع هذه الحادثة.

سابعًا: الدروس المستفادة من قصة التخيير.

أولًا: الآيات الواردة في قصة التخيير:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: 28- 29].

التفسير الإجمالي[1]:

﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: سعتها ونضارتها ورفاهيتها والتنعم فيها.

﴿وَزِينَتَهَا﴾: أي زخارفها.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: أي أعطكن المتعة، وأطلقكن. والمتعة ما يعطى للمرأة المطلقة على حسب السعة والاقتدار من ثياب أو دراهم أو أثاث، تطوعًا لا وجوبًا.

﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: أي طلاقًا من غير ضرار ولا بدعة.

قال المفسرون: إن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئًا من عرض الدنيا، وطلبن منه الزيادة في النفقة، فنزلت الآية، ولما نزلت بدأ ﷺ بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهن إليه فخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ثم اختار

(1) «تفسير الطبري» (290/10)، «فتح القدير» للشوكاني (275/4)، «محاسن التأويل» للقاسمي (246/13)، وقد ذكرت هنا تفسير الآيتين بصورة مجملة، وأما التفصيل فقد تكفل البحث به ولاسيما الدروس المستفادة من قصة التخيير.

جميعهن اختيارها، وكن يومئذٍ تسعًا: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة، وسودة، وهؤلاء من نساء قريش، وصفية، وميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، وقيل في سبب التخيير غير ما ذكر هنا، مما سيأتي مناقشته في هذا البحث.

ثانيًا: سبب التخيير:

ذكر العلماء في قصة التخيير أربعة قوال؛ وهي:

1- طلب زيادة النفقة: وقد ذكره جميع المفسرين[1].

2- الغيرة: وذلك أنهن تغايرن عليه، فحلف ألا يكلمهن شهرًا، ثم أُمِرَ بأن يخيرهَّن.

وقد ذكره عدد من المفسرين[2]، وضعفه الطبري؛ إذ أورده بصيغة التمريض، فقال: وقيل: كان سبب ذلك غيرةً كانت عائشة قد غارتها.

3- أنه ﷺ لما خُيِّر بين مُلك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة أُمِرَ بتخيير

---

(1) انظر على سبيل المثال: «تفسير الطبري» (289/10 - 290)، «محاسن التأويل» للقاسمي (246/13)، «معالم التنزيل» للبغوي (525/3)، «زاد المسير» لابن الجوزي (377/6)، وقال عن القولين الأولين: والقولان مشهوران في التفسير، تفسير القرطبي (162/14)، «أحكام القرآن» لابن العربي (551/3)، تفسير ابن كثير (462/3)، ولم يذكر سوى القول الأول، وذكره الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (122/3).

(2) «جامع البيان» للطبري (290/10)، «زاد المسير» لابن الجوزي (377/6)، تفسير القرطبي (162/14)، «أحكام القرآن» لابن العربي (551/3)، وقال عنه: وهو الصحيح الذي يعول عليه ولا يلتفت إلى سواه، وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (122/3): وحكاه الغزالي. و«فتح القدير» للشوكاني (276/4).

نسائِهِ ليكُنَّ على مثلِ حالهِ[1].

وقد حكاه ابن الجوزي عن أبي القاسم الصيمري وذكره أيضًا ابن العربي والقرطبي وغيرهم[2].

4- أنَّ سبب نزولها قصة مارية في بيت حفصة، أو قصة العسل الذي شربه في بيت زينب بنت جحش.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا يقرب من الثاني[3].

وقد جعله ابن العربي القول الثاني نفسَهُ.

القول الراجح:

وبعد استعراض الأدلة يترجح عندي في سبب حادثة التخيير طلبُ زيادة النفقة، لقوة الأدلة التي استدل بها أصحاب هذا القول، وللأسباب الآتية:

---

(1) الحديث الوارد في ذلك هو ما رواه الإمام أحمد (7160) عن أبي هريرة قال: «جلس النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل يوم خلق قبل الساعة. فلما نزل قال يا محمد: أرسلني إليك ربك، أفملكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: بل عبدًا رسولًا». قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وفي الباب عن ابن عباس رواه النسائي في السنن الكبرى (6743)، وفي إسناده نجيح بن عبد الرحمن وهو ضعيف، وعن عمر عند الطبراني في الكبير (13309)، قال الهيثمي: وفيه يحيى بن عبد الله البابلي، وهو ضعيف.

(2) انظر المصادر السابقة.

(3) «التلخيص الحبير» (122/3).

1- ظاهر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، يدل على أنها نزلت لتعالج موضوعًا يتعلق بالمطالبة بأمر من أمور الحياة وزينتها.

2- أدلته من الحديث النبوي الصحيح واضحة، ومن أصرحها حديث جابر بن عبدالله، وهو نص صريح بأن حادثة التخيير وقعت بعد طلبهن زيادة النفقة، وقد ذكره جمهور المفسرين عند تفسير الآية.

3- الأدلة التي استدل بها أصحاب القول الثاني[1] لا تنهض دليلًا نظرًا للاعتراضات التي أثيرت حولها؛ لأنها تتعلق بحادثة التحريم، وهي حادثة أخرى له أدلتها وظروفها وأسبابها الخاصة بها.

4- وأما أصحاب القول الثالث، فقد استدلوا على قولهم بحديث: تخييره بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة، والواقع أنه لا يوجد دليل من النقل يدل على أن الآية نزلت بسبب هذا الحديث، بل الأحاديث الصحيح تدل على خلاف ذلك.

وقال الحافظ ابن حجر: «وهذا يعكر عليه أن الأكثر من أهل العلم بالمغازي: أن إيلاءه من نسائه كان سنة تسع، وأن تخييرهن وقع بعد ذلك، وقد كان ﷺ في آخر عمره قد وسع له من العيش بالنسبة لما كان فيه قبل ذلك، قالت عائشة: ما شبعنا من التمر حتى فتحت خيبر»[2].

---

(1) للاطلاع على أدلتهم ومناقشتها يرجع إلى بحثي المرسوم بـ «حادثة التخيير في إطار المعالجة النبوية لمشكلات الحياة الزوجية»، المنشور في مجلة الأحمدية الصادرة عن دار البحوث - دبي العدد (12) سنة 1423هـ.

(2) «التلخيص الحبير» (122/3).

5- وأما أصحاب القول الرابع فيكفي في رد قولهم: أن قصة التحريم هي حادثة أخرى تختلف تمام الاختلاف عن هذه الحادثة من عدة وجوه[1]، ورحم الله الحافظ ابن حجر عندما قال عن هذا القول: وهذا يقرب من الثاني.

ثالثًا: كيفية التخيير:

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه على قولين:

القول الأول: أنه خيرهن بإذن الله في البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترن البقاء،. وبهذا قالت عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي والزهري وربيعة.

القول الثاني: أنه إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن في الطلاق. وبهذا قال عليٌّ والحسن وقتادة، وقال الشوكاني - رحمه الله -: والراجح الأول[2].

رابعًا: الأحاديث النبوية الواردة في قصة التخيير:

ورد في قصة التخيير حديثان، وهما:

1- ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: «**إني ذاكر لك أمرًا، فلا عليك ألا تعجلي حتى**

(1) انظر: بحثي المرسوم بـ «حادثة التحريم في إطار المعالجة النبوية لمشاكل الحياة الزوجية» المنشور في مجلة الأحمدية. العدد (10) سنة 1423هـ.

(2) «فتح القدير» (274/4).

تستأمري أبويك» قالت: وقد عَلِمَ أنَّ أبويَّ لم يكونا ليأمراني بفراقه».

قالت: ثم قال: «**إن الله عز وجل قال:** ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [سورة الأحزاب].

فقالت: فقلت: في أي شيء أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلتُ، زاد مسلم قال معمر: فأخبرني أيوب أن عائشة قالت: لا تخبر نساءك أني اخترتُك، فقال لها النبي ﷺ: إن الله أرسلني مبلغًا ولم يرسلني متعنتًا»[1].

وجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه أن يخبر نساءه، ذاكرًا سبب ذلك من خلال التخيير بين الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة، مما يوحي بأن سبب ذلك هو طلبهن الحياة الدنيا وزينتها وذلك عند طلبهن زيادة النفقة، ثم جاء حديث جابر ليوضح ذلك بصورة صريحة، كما أن هذا النص بين لنا كيف طبق النبي ﷺ أمر التخيير الذي أُمر به من الله تبارك وتعالى، مع ملاحظة أن الإمام البخاري رحمه الله لم يخرج عند تفسير هاتين

(1) أخرجه البخاري (4786)، في تفسير باب «وإن كنتن تردن الله ورسوله...»، ومسلم (1475) (27) في الطلاق: باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية من طريق الزهري قال أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن به، وأخرجه أحمد (24487) و (25299) و (25301) و (26108)، والنسائي (3440) من طريق معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة، وفي بعض الروايات: لما نزلت «وإن كنتن تردن...» دخل علي رسول الله ﷺ...».

الآيتين في صحيحه سوى هذا الحديث.

2- حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه وهذا نصه:

قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت[1].

فقال عمر: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك.

فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت بنت زيد[2] - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفًا فوجأت عنقها[3].

فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه[4]، وقال: «**هن حولي كما ترى يسألنني النفقة**»[5].

(1) في رواية مسلم: واجمًا ساكتًا، ومعنى وجم: سكت على غيظ، أو عبس وأطرق وسكت عن الكلام من شدة الحزن. المعجم الوسيط، مادة وجم.

(2) في رواية مسلم: بنت خارجة، واسمها جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، وهي من المبايعات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ، وهكذا جاء اسمها في طبقات ابن سعد (252/8، 345)، و«الإصابة» لابن حجر (755/7).

(3) قوله: «فوجأت عنقها» أي: ضربته.

(4) الناجذ: آخر الأضراس، وهو الذي يقال له ضرس العقل. وفي رواية ابن لهيعة: «حتى بدت نواجذه» وللإنسان أربعة نواجذ، وهذا اللفظ كناية عن شدة الضحك وبلوغه فيه الغاية.

(5) في رواية ابن لهيعة عند أحمد: «سألنه النفقة فلم يوافق عنده شيء حتى أحجزنه» ووقع في رواية السندي «حتى أحجرنه» وقال: هكذا في كثير من النسخ، ولعله لغة في حجزنه، أي منعنه من الخروج، وقيل: لعل أحرجنه من الحرج.

فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ[1]، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجس ما ليس عنده[2]، قال: وأنزل الله عز وجل الخيار[3]. فبدأ بعائشة فقال: «**إني ذاكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك**» قالت: ما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ**﴾ الآية، قالت عائشة: أفيك أستأمر[4] أبوي؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال: «**لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني مُتعَنِّتًا أو مفتنًا[5]، لكن بعثني معلمًا ميسرًا**»[6].

---

(1) هذا النهي الوارد في هذه الجملة غير مذكور في رواية مسلم.

(2) انفرد مسلم بزيادة هنا وهي: «ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعًا وعشرين»، ولا وجود لهذه الزيادة في مسند أحمد ولا في سنن النسائي مع أن السند واحد.

(3) في رواية مسلم: ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ**﴾ حتى بلغ ﴿**لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: 28، 29].

(4) في رواية مسلم: «أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة».

(5) وفي رواية عند أحمد «معنفًا» وعند مسلم: «لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا».

(6) أخرجه أحمد (14515)، (14516)، ومسلم (1478)، (29)، في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، ومن طريقه أخرجه البيهقي (38/7)، والنسائي في «السنن الكبرى» (9208)، من طريق ابن لهيعة كلاهما (زكريا بن إسحاق وعبد الله بن لهيعة) عن أبي الزبير المكي. وأخرجه ابن سعد في طبقاته (180/8)، من طريق أبي سلمة الحضرمي، كلاهما (أبو الزبير وأبو سلمة) عن جابر بن عبد الله، وليس في حديث أبي سلمة ذكر لاعتزاله ﷺ شهرًا. وانظر تفسير ابن كثير (523/3)، و«الدر المنثور» للسيوطي (594/6).

وجه الدلالة:

أن قوله ﷺ: «**هن حولي كما ترى يسألني النفقة**» يدل دلالة واضحة على أن سبب نزول الآيتين من سورة الأحزاب هو طلب النفقة.

خامسًا: مناقشة قضية الاعتزال في قضية التخيير

هل اعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهرًا في قصة التخيير؟

قد ورد في حديث جابر بن عبد الله الذي أخرجه مسلم[1] قوله: «ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعًا وعشرين» مما يفيد أن النبي ﷺ اعتزلهن شهرًا بعد مطالبتهن بزيادة النفقة. وقد ذهب إلى ذلك عدد من المفسرين، منهم الإمام الطبري والبغوي وابن الجوزي وغيرهم[2].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل أن عائشة سألت رسول الله ﷺ شيئًا من الدنيا، إما زيادة في

(1) أخرجه مسلم (1478) (29)، وقد تقدم تخريجه. لكن يشار هنا إلى أن الإمام مسلمًا انفرد بتخريج ذكر الاعتزال، ولا وجود لهذه الزيادة في مسند أحمد، وهو متقدم عليه، كما أنه لا وجود لها في سنن النسائي وهو متأخر عليه علمًا بأن السند واحد، والجميع يروي الحديث من طريق أبي الزبير المكي عن جابر..وأخرجه أيضًا ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (180/8)، من طريق أبي سلمة عن جابر أيضًا وليس فيه ذكر لاعتزاله ﷺ شهرًا.

(2) تفسير الطبري (288/10)، وتفسير البغوي (525/3)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (376/6).

النفقة أو غير ذلك، فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه فيما ذكر ثم أمره الله عز وجل أن يخبرهن»[1].

ولكن يعارض ذلك أنه:

قد جاء في حديث ابن عباس عن عمر الذي أخرجه البخاري ومسلم ما يفيد اعتزاله ﷺ شهرًا كان بعد حادثة التحريم، ونصه: «.. فاعتزل النبي نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعًا وعشرين ليلة. وكان قال: «**ما أنا بداخل عليهن شهرًا**» من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله...»[2].

فهل الاعتزال كان بعد التحريم أم كان بعد طلب زيادة النفقة في حادثة التخيير؟

---

(1) ثم أورد عن أبي الزبير أن رسول الله ﷺ لم يخرج صلوات، فقالوا: ما شأنه...».
وهي مثل رواية أبي الزبير عن جابر التي رواها مسلم مع اختلاف في بعض السياق، والذي يهمنا هنا أنه لم ترد في هذه الرواية قصة اعتزاله ﷺ نساءه شهرًا بل جاء فيها: «لم يخرج صلوات...»، مما ينفي أنه اعتزلهن شهرًا بعد طلب النفقة.
وقد وردت رواية عن ابن زيد – وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم – وفيها: «كان أزواجه قد تغايرن على النبي ﷺ فهجرهن شهرًا، فنزل التخيير من الله له فيهن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾، فخيرهن بين أن يخترن أن يخلي سبيلهن ويسرحهن، وبين أن يقمن إن أردن الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين ولا ينكحن أبدًا».
لكنها رواية ضعيفة لأنها جاءت عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المتوفي سنة (182هـ) غير مسندة، أضف إلى ذلك أن عبد الرحمن المذكور ضعيف عند أهل الحديث. انظر «التقريب» ص 400.
(2) تقدم تخريجه في المبحث التاسع، الفقرة الرابعة: الأحاديث الواردة في قصة التحريم. وقد بحثت هذه المسألة بتوسع في بحثي الموسوم بـ «حادثة التحريم في إطار المعالجة النبوية....».

عند دراسة الحادثتين يترجح أن اعتزاله ﷺ نساءه شهرًا كان بعد حادثة التحريم بدليل حديث ابن عباس عن عمر في الصحيحين، وهو نص في محل النزاع، وعند التعارض يقدم ما رواه البخاري ومسلم على ما رواه مسلم ويؤيد ذلك: أن حديث جابر بن عبد الله نفسه قد رواه أحمد في مسنده، والنسائي في سننه، ولم يذكرا الاعتزال المذكور علمًا بأن السند واحد كما تقدم قريبًا.

بقى أن يقال:

ما المانع من أن يكون سبب الاعتزال وهو وقوع الحادثتين ثم جاء التخيير بعد الاعتزال؟

قلت: هذا جواب وجيه، ويؤيد ذلك أن الحادثتين وقعتا في زمن متقارب، فقد وقعت حادثة التحريم في أواخر سنة ثمان من الهجرة[1] بينما وقعت حادثة التخيير في بداية سنة تسع من الهجرة كما سيأتي.

فكأن الاعتزال المذكور جاء تأديبًا لكل الزوجات على ما صدر منهن وقد احتمل ذلك الحافظ ابن حجر، قال رحمه الله:

«.. وقد اختلف في الذي حرّم على نفسه، وعوتب على تحريمه، كما اختلف في سبب حلفه أن لا يدخل على نسائه، على أقوال» وذكر منها التحريم، وطلب زيادة النفقة ثم قال: «والراجح من الأقوال كلها قصة مارية».

ثم أضاف قائلًا: «ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها، ويؤيده شمول الحلف للجميع، ولو كان مثلًا في قصة مارية فقط لاختص بحفصة وعائشة... وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ وسعة

(1) انظر أدلة ذلك في بحثي «حادثة التحريم في إطار المعالجة النبوية....».

صدره، وكثرة صفحه، وأن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجبه منهن ﷺ ورضي عنهن»[1].

قلت: لكن يلزم من هذا الجمع أن التخيير قد وقع أيضًا بسبب الحادثتين حادثة التحريم، وحادثة طلب زيادة النفقة، وأن الاعتزال وقع بسبب الحادثتين أيضًا.

وقد يقال: وما المانع من ذلك؟

قلت: المانع من ذلك النصوص الواردة في كلا القصتين، وبيان ذلك: أن التخيير في آيتي سورة الأحزاب قد نزل بسبب طلب زيادة النفقة، يدل على ذلك حديث جابر بن عبد الله وهو نص في محل النزاع، وظاهر الآية يؤيد ذلك، كما أن سبب التحريم مارية أو شرب العسل على خلاف بين العلماء، فهما حادثتان منفصلتان.

---

(1) «فتح الباري» (201/9)، وقال الغزالي في «الوسيط» (9/5): «إنما اختص في أمر النكاح بوجوب التخيير لنسائي بين التسريح والإمساك، ولعل سره فيه أن الجمع بين عدد منهن يوغر صدورهن بالغيرة التي هي أعظم الآلام، وهو إيذاء يكاد ينفر القلب، ويوهن الاعتقاد، وكذلك إلزامهن الصبر على الضرر والفقر يؤذيهن، ومهما ألقى زمام الأمر إليهن خرج عن أن يكون بصدد التأذي والإيذاء، فنزه عن ذلك منصبه العلي، وقيل له: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ**﴾ ونزل ذلك عليه حين ضاق صدره ﷺ من كثرة خصامهن، واقتراحهن زينة الدنيا حتى آلى عنهن، ومكث في غرفته شهرًا، فابتدأ بتخيير عائشة رضي الله عنها وقال: «**إني ملق إليك أمرًا، فلا تبادريني بالجواب حتى تؤامري أبويك**، وتلا الآية، فقالت: أفيك أوامر أبوي؟ اخترت الله ورسوله والدار الآخرة». ثم قالت: لا تخبر زوجاتك باختياري إياك، وأرادت أن يختار سائر زوجاته الفراق، فطاف على نسائه، وكان يخبرهن باختيار عائشة إياه فاخترن الله ورسوله بأجمعهن».

مما يدل عل أن حديث عائشة في التخيير قد ألحق بحديث ابن عباس عن عمر الذي ورد في التحريم، وأن أحد الرواة قد جمع بينهما لتشابه موضوعيهما، ولقرب وقوعهما وقد تقدم بيانُ ذلك في قصة التحريم.

إلا أن يقال: بأنه قد وقعت قصة التحريم ثم حادثة طلب زيادة النفقة، ثم جاء اعتزاله ﷺ شهرًا تأديبًا لهن، ثم نزل التخيير بسبب طلب زيادة النفقة، وفيه تكلف ظاهر.

ورحم الله الحافظ ابن حجر ما أَدَقَ عَبَارَتَهُ عندما قال: «ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها...»ولم يرجح ذلك، بل رجح في قصة التحريم أنها كانت بسب مارية، مما يدل على أن الحادثتين منفصلتان.

سادسًا: زمن وقوعها

من المفيد في معرفة المزيد عن تفاصيل قصة التخيير معرفة زمن وقوعها إذ به تنكشف لنا كثير من الحقائق المتعلقة بها، وعنصر الزمن مهم في الاطلاع على الظروف والملابسات التي رافقت هذه الحادثة، فمتى يا ترى وقعت هذه الحادثة؟!

للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال، وهي:

1- أنها وقعت سنة تسع للهجرة، وممن جزم بذلك الحافظ الدمياطي وأتباعه،وقال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل ذلك: هو المعتمد[1].

---

(1) «فتح الباري» (197/9)، وقد ذكر أدلته على ذلك. ولمزيد من التفصيل ينظر بحثي «حادثة التحريم في إطار المعالجة النبوية....».

2- أنها وقعت بعد غزوة خيبر، وممن ذهب إلى ذلك المولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني (ت 1109هـ)(1).

3- وقعت بعد غزوة بني قريظة، وهذا يعني أن التخيير وقع في أواخر سنة خمسة من الهجرة، ذلك لأن غزوة بني قريظة وقعت بعد غزوة الأحزاب، وقد نص علماء السيرة على أنها وقعت سنة خمس على خلاف بينهم في الشهر، فذهب جمهورهم إلى أنها وقعت في شوال(2)، وذهب البعض إلى أنها وقعت في ذي القعدة(3)، وممن قال بهذا القول أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت: 745هـ)(4)، ونقله عن الألوسي (1270هـ)(5).

---

(1) تفسير الصافي (4/ 185)، وقد نقل عن القمي سبب النزول وهو: أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر، وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه: أعطنا ما أصبت؟ فقال لهن رسول الله ﷺ: «**قسمته بين المسلمين على ما أمر الله**. فغضبن من ذلك، وفيه: فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربه أم إبراهيم تسعة وعشرين يومًا، ثم أنزل الله هذه الآيات. وتابعه على ذلك محمد حسين الطباطبائي في «الميزان في تفسير القرآن» (315/16). وفاتهما أن النبي ﷺ لم يكن في تلك الفترة – وهي شهر محرم من السنة السابعة، وهي زمن وقوع غزوة خيبر – قد تسري بمارية حتى يعتزل في مشربتها!!.

(2) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (165/3)، و«الكامل» لابن الأثير (70/2)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (93/4)، وقال: «نص على ذلك ابن إسحاق، وعروة بن الزبير، وقتادة، والبيهقي، وغير واحد من العلماء سلفًا وخلفًا....».

(3) انظر «المغازي» للواقدي (440/2)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (65/3).

(4) انظر تفسيريه «البحر المحيط» (219/7)، و«النهر الماد من البحر المحيط» (724/2/2).

(5) انظر «روح المعاني» (182/11)، مصرحًا بنقله، ومستحسنًا له بقوله: «وما أحسن موقع هذه الآيات على هذا بعد انتهاء قصة الأحزاب وبني قريظة كما لا يخفى».

وممن ذهب إلى هذا القول عدد من المفسرين المعاصرين، وهم: محمد بن يوسف

=

ونصُّ أبي حيان: «لما نصر الله نبيه، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود، وذخائرهن، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله: بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول - أي الخدم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قبله بمطالبتهن بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن، وأزواج النبي إذ ذاك تسع» ثم عددهن.

ويبدو لي أن مستند أبي حيان ومن تابعه في هذا القول هو: ورود آيات حادثة التخيير بغد الآيات التي تحدثت عن غزوتي الأحزاب وقريظة، وفاتهم أن التخيير المذكور كان لجميع أزواج النبي ﷺ، يدل على ذلك:

ظاهر قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ** ﴾ والأصل أن يشمل لفظ «الأزواج» الجميع.

ثانيًا: نص عدد من أئمة التابعين من أهل التفسير منهم: الحسن البصري وقتادة وعكرمة على أن التخيير وقع من النبي ﷺ وكان تحته يومئذ تسع نسوة، فخمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة، وكان تحته صفية وميمونة بنت الحارث، وزينب بنت جحش وجويرية

=

أطفيش الإباضي في «تيسير التفسير للقرآن الكريم» (346/10)، والأستاذ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره (150/7)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» (314/10)، وسيد قطب «في ظلال القرآن» (2820/5)، ومحمد علي الصابوني في «صفوة التفاسير» (33/2)، والدكتور وهبة الزحيلي في «التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج» (279/21)، - وقد نقل نص أبي حيان، ولم يصرح بمصدره -، وعبد الكريم الخطيب في «التفسير القرآن للقرآن» (697/6).

بنت الحارث. وبدأ بعائشة فلما اختارت الله ورسوله والدار الآخرة رؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ فتتابعن كلهن على ذلك واخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وقد نقل المفسرون هذا القول من غير إنكار(1). والغريب أن القائلين بوقوع حادثة التخيير بعد غزوة بني قريظة قد ذكروا ذلك، وفاتهم أن النبي ﷺ، ولم يكن قد تزوج هذا العدد من النساء فإنه تزوج عددًا من نسائه بعد غزوة بني قريظة، ومن هؤلاء:

1- زينب بنت جحش وقد تزوجها بعد غزوة بني قريظة في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة الهجرية(2). فمن المستبعد أن تطالبه بذلك في بداية زواجها منه، لاسيما وهي معروفة بالغنى واليسار.

2- أم حبيبة - رملة بنت أبي سفيان بن حرب - وكان ذلك سنة سبع للهجرة(3).

3- صفية بنت حيي وذلك بعد غزوة خيبر، وكانت غزوة خيبر في شهر محرم من السنة السابعة للهجرة(4).

---

(1) ينظر على سبيل المثال تفسير الطبري (289/10)، والبغوي (525/3)، وزاد المسير (377/6)، وتفسير الطبري (164/13)، وابن كثير (523/3)، و«البحر المحيط» (219/7)، و«الدر المنثور» (597/6)، و«روح المعاني» (182/11).

(2) انظر «طبقات ابن سعد» (114/8).

(3) انظر «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» للدكتور مهدي رزق الله ص 706.

(4) وممن قال بذلك ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (455/2)، ورجحه ابن حجر في الفتح (41/16).

4- ميمونة بنت الحارث الهلالية، وقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن تحلل من إحرامه في عمرة القضاء، وكانت عمرة القضاء في نهاية العام السابع الهجري تقريبًا(1).

5- جويرية بنت الحارث، وقد تزوجها بعد غزوة بني المصطلق(2).

وعليه كان ينبغي أن يقال: كان تحته يومئذ أربع نسوة!!

وأما القول الثاني: وهو أن التخير قع بعد غزوة خيبر فلا أعلم له مستندًا من الأثر، ثم ما قيل عن القول الثالث يمكن أن يقال فيه إذ لم يكن عنده يومئذ تسع نسوة لأن صفية قد تزوجها بعد الغزوة مباشرة، وميمونة قد تزوجها في نهاية سنة سبع من الهجرة.

الراجح:

وعليه فالذي أرجحه هو القول الأول، وأن التخيير وقع في سنة تسع من الهجرة. قال الحافظ ابن حجر: وآية التخيير نزلت سنة تسع اتفاقًا»(3).

ويؤيده ما يأتي:

1- سياق الآيات يؤيد أنها نزلت في تنظيم بيت النبوة وتشريع الأحكام الخاصة به، ولهذا جاء عن عكرمة أنه قال: «خيَّر رسول الله أزواجه فاخترن

(1) انظر «السيرة النبوية» للدكتور مهدي رزق الله ص 135.

(2) وهي قد وقعت سنة ست من الهجرة عند ابن إسحاق، وسنة خمس عند الواقدي، وكلاهما قال: في شهر شعبان. انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (227/3)، و«المغازي» للواقدي (404/1).

(3) «فتح الباري» (438/7).

الله ورسوله فانزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾[1].

وقال قتادة والحسن: لما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك فقال: لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج فقصره الله عليهن، وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله[2].

2- من المعلوم أن غزوة حنين التي وقعت بعد فتح مكة في أواخر سنة ثمان من الهجرة قد غنم المسلمون فيها غنائم عظيمة جدًا من الأموال والإبل والشياه، وأن رسول الله ﷺ قد وزعها على المهاجرين والطلقاء وبعض زعماء قريش وغطفان وتميم يتألفهم في ذلك ولم يعط الأنصار شيئًا[3].

يحدثنا الصحابي الجليل جبير بن مطعم عن مشهد من مشاهد توزيع الغنائم وقد ازدحم على رسول الله ﷺ الأعراب مما اضطروه إلى غصن شجرة حتى علق رداؤه به، فوقف رسول الله ﷺ وقال: «**أعطوني ردائي فلو كان عدد هذه العضاه - أي شجر الشوك - نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**»[4].

وكان هذا الموقف تجاه المؤلفة قلوبهم قد أغضب الأنصار مما جعل بعض أحداثهم يقول: «يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا

---

(1) «أسباب النزول» للسيوطي ص 401 بحاشية تفسير الجلالين.

(2) تفسير الطبري (290/10).

(3) انظر تفاصيل ذلك في «السيرة النبوية» للدكتور مهدي رزق الله ص 593 فما بعدها.

(4) رواه البخاري (3148).

تقطر من دمائهم»[1].

مما جعل رسول الله يجمعهم ليقول لهم: «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم**»[2] وفي رواية «**أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم...**»[3].

ويبدو أن هذا الموقف أغضب الكثير، فقد حدثنا عبد الله بن مسعود عن موقف من مواقف الغضب الذي أوذي فيه رسول الله ﷺ فيقول: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة فأعطى الأقرع بن حابس - من زعماء تميم - مائة من الإبل، وأعطى عيينة، وهو ابن حصن من زعماء غطفان - مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب فآثرهم يومئذ بالقسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله!!

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[4].

ومن هذه المواقف ما حدثنا به جابر بن عبد الله «أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس فقال: يا محمد اعدل. قال: **ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل**. فقال عمر: دعني فأقتل هذا المنافق. فقال: معاذ الله! أن

(1) رواه البخاري (3147).

(2) رواه مسلم (1061).

(3) رواه أحمد (11730).

(4) رواه البخاري (3150).

يتحدث الناس أني أقتل أصحابي...»[1].

وجه الدلالة:

فإذا كان توزيع الغنائم قد أغضب كثيرًا من الناس بما فيهم الأنصار وهم معرفون بسابقتهم ونصرتهم رسول الله ﷺ ودعوته فلا يستبعد أن يكون له أثر على أزواج رسول الله ﷺ إثر رجوعه إلى المدينة المنورة[2]، وأن يدفعهم ذلك إلى المطالبة بزيادة النفقة بعد أن رأوا هذه الغنائم العظيمة تُوزع على الناس، ولا يكون لهن فيها نصيب.

3- ويؤيد ذلك أن عددًا من المفسرين قد ذكروا أن طلبهن كان هو زيادة النفقة، وليس طلب النفقة[3]، يدل على ذلك نص الآية: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

وزينة الحياة هي الأمر الزائد على الضروريات قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران].

---

(1) رواه مسلم (1063)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (496/2)، واسم الرجل عنده: ذو الخويصرة التميمي.

(2) قال الحافظ ابن حجر: «لأنه ﷺ قد دخل المدينة من رجوعه من الطائف في ذي الحجة» أي في نهاية السنة الثامنة للهجرة.

(3) انظر تفسير الطبري (288/10)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (376/6)، وتفسير البغوي (525/3)، وغيرها.

وأما النفقة فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله، وحاشاه أن يقصر في ذلك.

أليس هو القائل: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[1].

وقد تقدم بيان ذلك عند الحديث عن تعامل النبي ﷺ مع زوجاته في الجانب الاقتصادي.

سابعًا: الدروس المستفادة من قصة التخيير

بادئ ذي بدء لابد من الإشارة إلى أنه من أهم الأحكام المستنبطة من قصة التخيير: هو مشروعية التخيير[2]، فقد أجازت الشريعة الإسلامية للمسلم أن

---

(1) رواه الترمذي (3895)، وابن ماجه (1978).

(2) يشار هنا إلى أن هذا الحكم أخذ مساحة واسعة في كتب الفقهاء على مختلف مذاهبهم، وقد ذكر السيوطي في «الخصائص الكبرى» (400/2) أن وجوب التخيير من خصائصه ﷺ وأما بالنسبة لغيره ﷺ فهو مشروع، خلافًا لابن حزم الظاهري وله أحكام أشير إلى أهمها:

حكم التخيير: ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الزوج إذا خير زوجته فاختارته لا يقع عليها شيء، وإن اختارت نفسها ففيه خلاف:

1- تقع طلقة بائنة إذا أراد الزوج الطلاق: وممن قال بذلك أبو حنيفة وأصحابه، ومعنى قولهم: إذا أراد الزوج الطلاق أي إذا نوى الزوج بلفظ التخيير الطلاق، ولا يحتاج إلى نيتها.

ولفظ التخيير عندهم ليس من ألفاظ الطلاق: لا صريح ولا كناية، وإنما يقع الطلاق به إذا نوى استحسانًا للحديث الوارد عن عائشة أن النبي ﷺ خير نساءه فاخترنه فلم يكن ذلك طلاقًا، وفي القياس لا يقع، لأنه وعد، والفتوى على الاستحسان.

=

يخير زوجته بين البقاء أو مفارقته إذا طالبته بأمور لا يستطيع الوفاء بها، وهو باب من أبواب تفويض الطلاق للزوجة.

قال الخطي الشربيني: «جواز تفويض الطلاق للزوجة: هو جائز بالإجماع، واحتجوا له أيضًا بأنه ﷺ خير نساءه بين المقام معه، وبين مفارقته لما نزل قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾[1].

وبعد الذي تقدم من دراسة هذه الحادثة والاطلاع على تفاصيلها، ومعرفة سببها، والتعرف الكامل على النصوص الواردة فيها، وزمن وقوعها، لابد لنا من استنباط الدروس والعبر التي تنفع المسلم في حياته الزوجية مقتديًا بالحياة الزوجية للنبي ﷺ.

الدرس الأول: نشهد في حادثة التخيير تطبيقًا رائعًا لمبدأ الشورى في نظام الأسرة لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: 38].

=

2- تقع طلقة يملك بها الرجعة: وممن قال بذلك عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، وإسحاق، وأبو عبيدة، وأحمد، والشافعين، وقد ذهبا إلى أن لفظ التخيير من ألفاظ الكنايات الخفية فيحتاج إلى نية الزوج والزوجة.

3- تقع ثلاثًا: وبه قال الحسن ومالك، وقيده بالتخيير المطلق، وأما المقيد لفظًا بطلقة أو اثنتين فإنه يتقيد بذلك. وقد عد الإمام مالك لفظ التخيير من ألفاظ الكنايات الظاهرة فلا تحتاج إلى نية. وللتوسع في بحث هذه المسألة من الناحية الفقهية يراجع: «روضة الطالبين» للنووي (49/8)، «المغني» لابن قدامة (383/10)، «رد المحتار على الدر المختار» لابن عابدين (559/4)، و«الخرشي على مختصر سيدي خليل» (73/4)، وتفسير البغوي (525/3)، وتفسير القرطبي (171/14)، وشرح صحيح مسلم للنووي (68/10)، و«أحكام القرآن» لأبي بكر الرازي الجصاص (527/3)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (526/3).

(1) «مغني المحتاج» (465/4).

وفيها تعليم للأمة بأن مبدأ الشورى مبدأ عام يمكن تطبيقه في كثير من قضايا الأسرة وشؤونها وحل خلافاتها.

الدرس الثاني: كما نشهد في هذه الحادثة لونًا من ألوان تكريم المرأة باستشارتها وتخييرها في أن تأخذ القرار الذي تريده سواء في البقاء باعتبارها عضوًا فاعلًا في هذه الأسرة والعيش مع الزوج في ضوء إمكانياته، وعلى المنهج الذي رسمه لحياته، شريطة عدم الإضرار بها أو التقصير في حقها، أو أن تختار الحياة التي ترضاها وتجد فيها ما تستريح له.

الدرس الثالث: ونشهد في هذه الحادثة أدبًا كريمًا من آداب حل المشكلات الزوجية وهو التروي والهدوء وعدم الاستعجال باتخاذ القرار عند نشوب الخلاف، فإن في العجلة الندامة يدل على ذلك قوله.ﷺ لعائشة: «**إني ذاكر لك أمرًا ما أحب أن تعجلي فيه...**».

الدرس الرابع: ونشهد في هذه الحادثة أسلوبا رائعًا في تخفيف الآثار الناشئة عن المشكلات بين الزوجين، وذلك بأن يلجًا إلى السكوت، وعدم الإكثار من الكلام حالة تفاقم المشكلة، فإن بعض الكَلاَم عند ثورة الخصام كِلام، ويفضي إلى العداوة، ويبعد عن الوئام، يدل على ذلك: «فدخلا – أي أبو بكر وعمر – والنبي ﷺ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكت واجم»

الدرس الخامس: كما نشهد في هذه الحادثة طلب الزوج من زوجته الاستعانة بمشورة الأبوين إذا كانا صالحين عاقلين أو من يقوم مقامهما في حال غيابهما في اتخاذ القرار في حال نشوب الخلاف، يدل على ذلك قوله ﷺ: «**حتى تستشيري أبويك...**» قالت عائشة: «وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه» وأؤكد على مشورة الأبوين الصالحين؛ لأن صلاحهما يدفعهما إلى

الإصلاح... أما إذا عدم الصلاح والعقل فإن المشورة ستزيد من تفاقم المشكلة، وسيكون لها نتائج سيئة على مستقبل الأسرة وضمان استقرارها.

الدرس السادس: ونشهد في هذه الحادثة مبادرة الآباء إلى معالجة المشكلات الزوجية التي تنشأ بين الزوج وزوجته، وأن يكون الآباء عوناً للزوج لاسيما إذا تعسفت المرأة في استعمال حقها، وذلك عن طريق إرهاق الزوج بالمطالبة بزيادة النفقات والإلحاح الزائد عليها.

يدل على ذلك مبادرة أبي بكر وعمر واستئذانهما للدخول على رسول الله ﷺ، لمعالجة موضوع طلب زيادة النفقة من ابنتيهما.

الدرس السابع: كما نشهد في هذه الحادثة ضرورة إدخال أسلوب المرح في مجالس الصلح التي تعقد لحل المشكلات الزوجية فإنه أسلوب نافعٌ جدًّا في مثل هذه الأوقات العصيبة، وله أثر بالغٌ في تهدئة النفوس، وتخفيف حدة الغضب، وتلطيف الأجواء المتوترة، كما أنه يساعد على اتخاذ القرار السليم لصالح الزوجين، يدل على ذلك قول عمر: «لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك...» وقد تم له ذلك.

الدرس الثامن: ونشهد في هذه الحادثة أثر التقوى في انصياع أزواج النبي الطاهرات إلى الحق، والتعهد بالسير عليه وعدم الإصرار على المطالبة بما يؤدي إلى إحراج الزوج، يدل على ذلك قولهما: «والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده»

والمطالبة بزيادة النفقات والإكثار من الطلبات أمر محرج للزوج لاسيما إذا كان يمر بظروف عصيبة تمنعه من المبادرة والإجابة السريعة، وقد تدفع الزوج الذي لا يملك مخافة الله إلى الطرق المحرمة في الكسب فيضر بنفسه وأسرته.

فكم رأينا من أسرة انفرط عقدها وتفرق شملها عندما اضطر الزوج فمد يده إلى رشوة محرمة، أو سرقة ظالمة، أو متاجرة بأمر حرمه الله فدفعه ذلك إلى الحرام الآثم دفعًا. وقد أدبنا القرآن بأدب الاعتدال عندما قال: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق].

الدرس التاسع: كما نشهد في هذه الحادثة صورة رائعة من صور المبادرة إلى الخير، وإيثار أمور الآخرة على الدنيا، وما أشد حاجتنا إلى التأسي والاقتداء بهذا الموقف النبيل من أم المؤمنين عائشة – ومعها أمهات المؤمنين الطاهرات – عندما خيرها رسول الله ﷺ فقالت: «بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة».

الدرس العاشر: ونشهد في هذه الحادثة أسلوب الصراحة في التعامل مع الزوجة فعندما دفعت المشاعر الأنثوية عائشة لتطلب من زوجها الكريم ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته يصر الرسول ﷺ على الصراحة والصدق في التعامل. وهو أسلوب له أهمية كبيرة في استقرار الأسرة ويزيد من الثقة المتبادلة بين الزوجين، وكم رأينا من أسرة أشرفت على الانهيار نتيجة عدم الصراحة من الزوج، ومراوغته في التعامل وفقدانه الصدق في تصرفاته وأفعاله ومواعيده.

الدرس الحادي عشر: كما نشهد في هذه الحادثة أسلوبا كريمًا في التعامل مع الزوجة حال الخلاف، وذلك بأن لا نلجأ إلى إهانتها بالضرب سواء من أبيها أو زوجها، يدل على ذلك ما جاء في حديث جابر: «فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة...» فنهاهما رسول الله ﷺ . وعلينا في حالة نشوء المشكلة اللجوء إلى أسلوب الحوار، وحل الخلاف بالتي هي أحسن

عن طريق الإقناع.

الدرس الثاني عشر: ونشهد في هذه الحادثة صورة من صور العاطفة البشرية الحلوة في قلب رسول الله ﷺ لزوجه الكريمة عائشة، ولكن حبه لها لم يمنعه من أن يتخذ الوسيلة الحازمة معها كي ترتفع معه إلى مستوى القيم التي يريدها الله له ولأهل بيته، وهو درس بليغ لمن يحب زوجته أن لا يدفعه ذلك الحب إلى التقصير في مسؤوليته تجاهها، أو سكوته عما يعيقها عن الارتقاء إلى مدارج الكمال وأعالي الدرجات ومنازل التقوى.

الدرس الثالث عشر: ونشهد في هذه الحادثة: أسلوبًا من أساليب الارتقاء بالحياة الزوجية عن طريق تقديم المعونة للزوجة بأن لا يحجب عنها كل ما قد يعينها على الخير، ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير، وأن يعاملها معاملة المعلم الرفيق لا معاملة المعلم المتعنت كي ترتفع على نفسها وتتخلص من جواذب الأرض ومغريات المتاع[1].

قال.ﷺ: «**إن الله لم يبعثني معنِّتًا ولا متعنِّتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا**»

والمعنت: الذي يوقع غيره في العنت، والعنت له معان كثيرة، والمناسب منها هنا: المشقة, والأذى.

والمتعنت: هو الذي يطلب زلة الآخر وأذاه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله:

«وفي إبهامه ﷺ، وعدم مصارحته ومواجهته لعائشة بالزجر، إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلِّم: المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف

(1) «في ظلال القرآن» (2854/5) بتصرف.

والتعريض ما أمكن من غير تصريح.

وبطريق الرحمة من غير توبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيِّجُ الحرص على الإصرار»[1].

الدرس الرابع عشر: كما نشهد في هذه الحادثة «حقيقة حياة الرسول ﷺ والذين عاشوا معه واتصلوا به، وأجمل ما في هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان، وحياة ناس من البشر لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية مع كل تلك العظمة الفريدة التي ارتفعوا إليها، ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد عما عداه... فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت في تلك النفوس، ولكنها ارتفعت وصفت من الأوشاب.

ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان... وكثيرًا ما نخطئ حينما نتصور للنبي ﷺ ولصحابته صورة غير حقيقية أو غير كاملة، تجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية، حاسبين أننا نرفعهم بها وننزههم عما نعده نقصًا وضعفًا. وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية، صورة ملفعة بهالات غامضة لا نتبين من خلالها ملامحهم الإنسانية الأصيلة ومن ثم تنقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم... فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر...»[2].

الدرس الخامس عشر: وأخيرًا نشهد في هذه الحادثة درسًا بليغًا في حياة هذا النبي القائد ﷺ في ترفعه وعزوفه عن زخرف الحياة وزينتها، وقد وقع منه هذا التدبير في بيئة يستأثر القائد فيها بكل نفيس غال من المغانم جريًا على ما

---

(1) «فيض القدير» للمناوي (573/2).

(2) «في ظلال القرآن» (2855/5) بتصرف.

اعتاد العرب في غاراتهم على أعدائهم.

وقد وقعت هذه الحادثة بعد غزوة حنين تلك الغزوة التي غنم فيها المسلمون الغنائم العظيمة فلم تطمح إليها نفسه، ولم تمتد إليها يده، ولم يوزعها على أهله بل وزعها على المسلمين لاسيما ممن ضعفت نفسه، يتألفه على الإسلام لينقذه من النار، ويدفع به إلى حظيرة الإيمان، ويجنده لصالح الدعوة لينضم إلى القافلة ويعلي به بناء الإسلام.

فصلى الله عليك يا رسول الله وأنت تعيش في الدعوة وللدعوة ومن أجل الدعوة... وصدق الله عندما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب].

***

المبحث الحادي عشر

أُسلوب الطلاق

ومن الأساليب التي استعملها رسول الله ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية أسلوب الطلاق، وقد تبين لي من خلال دراسة هذا الموضوع أن النبي ﷺ استعمل أسلوب الطلاق مرتين: مرة مع زوجه الكريمة حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، ولكنه ﷺ راجعها، ويبدو لي أن هذا الطلاق الرجعي قد يضع حدًّا لمشكلات ربما لا تنتهي لولا اتباع هذا الأسلوب، إذ إن الزوجة تدرك أن حياتها مع زوجها باتت مهددة فلابد لها من استدراك الأمر قبل فوات الأوان فتسارع إلى إصلاح ما اعوج من أمرها.

واستعمله ﷺ مرة ثانية مع أميمة بنت النعمان الجونية الكندية فقد طلقها قبل الدخول بها، ولم يراجعها وذلك لأن ابنة الجون هذه كان بها غرور وكبر وترفُّع وترى أنها بنت زعيم من زعماء العرب وهم صفات لا تصلح معها أن تكون إحدى نساء النبي ﷺ.

وهو درس غاية في الأهمية على الأزواج أن يستفيدوا منه، وأن يسارعوا إلى الطلاق قبل الدخول، إذا ما علموا أن حياتهم مع هذه الزوجة لا تستقيم، لاختلاف في الطباع، أو تباين في السلوك، أو سوء في الأخلاق.

وأن ينسحبوا مسرعين من مشروع يحمل بذور الإخفاق فيه، وأن يختصروا الطريق على أنفسهم قبل قيام الأسرة ووجود الأطفال، فتكبر المشكلة وتتفاقم، ويصعب علاجها.

وإليك بيان ذلك:

تمهيد:

يأتي أسلوب الطلاق في نهاية الخطوات التي تتخذ لمعالجة الخلافات الزوجية، وذلك بعد أن يستنفذ الزوجان كل الأساليب الممكنة في معالجة ما طرأ من خلاف.

وبعد أن يجربا الحلول كافة التي قد تساعد على أن تعود الحياة الزوجية إلى طبيعتها من الاستقرار والهدوء والاطمئنان.

لكن ما العمل إذا لم تنجح الجهود كافة في محاولة رأب الصدع، وإصلاح الأمور؟ فلا سبيل عندئذ للخلاص سوى الطلاق، ذلك القرار البغيض، يقول عليه الصلاة والسلام: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[1].

ولكن كيف يكون الطلاق بغيضًا إلى الله مع وصفه بأنه حلال؟ وذلك لأن البغيض ما رجح تركه على فعله، والحلال فيه: المساواة بين الفعل والترك.

وقد أجاب العلماء عن هذا الإشكال بقولهم: الطلاق حلال لذاته، والأبغضية لما يترتب عليه من انجراره إلى المعصية. لذلك قالوا: أبيح الطلاق للحاجة، والحاجة عند تباين الأخلاق، وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله، فشرعه رحمة منه سبحانه[2]، قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء].

إنه حقًّا قرار بغيض لما له من آثار، وما يترتب عنه من نتائج سلبية تتجاوز

(1) رواه أبو داود (2187)، وغيره.

(2) انظر تمام البحث في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للشيخ علي القاري (284/6).

حدود الزوجين في نطاق الأسرة لتشمل المجتمع..

لكن قد يضطر الإنسان إليه اضطرارًا، ويلجأ إليه عند تعذر الحلول.

ومن هنا فقد أباحته شرعة الإسلام، وشرعت له من الضوابط والحدود ما جعلته يحقق أهدافه في معالجة المشكلات، وحل الأزمات، وصانته بسياج منيع كيلا يساء استعماله، وحتى لا يتخذ ذريعة لظلم مِنْ قِبَلِ متعسفٍ يرى فيه استعمالًا لحق مشروع.

فالطلاق حل لمشكلة متفاقمة، أو مشكلة قائمة من قبل أن تتفاقم، وإنهاء لعلاقة ليس فيها أمارات النجاح، ولا علامات التقدم.

ولا أريد أن أتحدث هنا عن هذه الضوابط والحدود التي يجب أن يكون الطلاق في إطارها، إذ قد تكفلت كتب الفقه ببيانها، وحسبي هنا أن أعود إلى حياة النبي ﷺ لنرى هل استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في حياته الزوجية؟ وإذا كان في زواج النبي ﷺ حكم ودروس فإن في طلاقه ﷺ حكمًا ودروسًا يمكن أن يستنبطها المسلم، وأن يستفيد منها إذا ما وقع في ظروف شبيهة بتلك الظروف.

من خلال دراستي لكتب السنة والسيرة تبين لي أن النبي ﷺ استعمل الطلاق مرتين:

الأولى: مع حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

لكنه راجعها.

والثانية: مع أميمة بنت النعمان الجونية الكندية فقد طلقها قبل الدخول بها، ولم يراجعها، بل أمر لها بمتعة الطلاق، وألحقها بأهلها، وفيما يأتي تفصيل لهذا الموضوع:

أولًا: قصة طلاقه ﷺ لحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ طلق حفصة ثم راجعها[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «دخل عمر على حفصة وهي تبكي فقال: لعل رسول الله قد طلقك، إنه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدًا»[2].

وعن عقبة بن عامر الجهني قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فبلغ ذلك عمر، فحثا على رأسه التراب، وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته.

فنزل جبريل من الغد، وقال للنبي ﷺ: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر[3].

وعن قيس بن زيد: أن النبي ﷺ طلق حفصة، فدخل عليها خالاها: قدامة، وعثمان، فبكت، وقالت: والله ما طلقني عن شبع وجاء النبي ﷺ فقال: «**قال لي جبريل: راجع حفصة فإنها صوامة، قوامة، وإنها زوجتك في الجنة**»[4].

(1) أخرجه الدارمي (2181)، وأبو داود (2283)، وابن ماجه (2016)، وأبو يعلى (160/1)، برقم (173). وإسناده صحيح.

وأخرجه النسائي (3560) عن ابن عمر وإسناده صحيح. وأخرجه أحمد (15867) عن عاصم ابن عمر مرسلًا.

(2) أخرجه أبو يعلى في مسنده (160/1) برقم (172).

(3) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (229/2): إسناده صالح.

(4) أخرجه ابن سعد (84/8)، والحاكم (15/4)، والطبراني كما في «المجمع» (245/9)،

=

قال السندي رحمه الله: «فيه – أي في هذا الحديث من الفوائد –: جواز التطليق، وأنه لا ينافي الكمال إذا كان لمصلحة»[1].

ويبدو لي أن سبب طلاقها هو ما كان في طبعها من حدة وشدة، ولعلها قد ورثت ذلك عن أبيها الفاروق، ثم زادته عوامل التأيم عن الزوج فأضحت سريعة الغضب والانفعال.

ولهذا كان عمر ﵁ دائم النصح لابنته ضمانًا لحسن معاشرتها للنبي ﷺ: سمع يومًا من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقًّا؟

فقال لها: أي حفصة أتغاضب إحداكن رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل؟

فقالت: نعم.

فقلت: خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي؟

=

وفيه: قيس بن زيد تابعي صغير مجهول، وباقي رجاله ثقات.

ووقع في المتن ذكر عثمان بن مظعون، وهم وَهْمٌ، لأن عثمان مات قبل أحد، وتزوجها النبي ﷺ بعد أحد. نبه على ذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على سير أعلام النبلاء.

وأخرجه الطبري في تفسيره (85/12) عن قتادة مرسلًا. وفيه: فأنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. لكن رفعه ابن أبي حاتم عن أنس كما في تفسير ابن كثير (398/4).

وفي الباب عن أنس عند الحاكم (15/4)، وفي سنده الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف، وباقي رجاله ثقات.

وعن عمار بن ياسر عند البزار والطبراني كما في «المجمع» (244/9).

(1) كما في حاشيته على سنن ابن ماجه رقم الحديث (2016).

لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك.

ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ»[1].

وفي رواية: «يا حفصة أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟

والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك»[2].

***

(1) أخرجه البخاري (5191).

(2) أخرجه مسلم (1479) (30).

ثانيًا: قصة طلاقه ﷺ لأميمة بنت النعمان الجونية الكندية

وأما المرأة الثانية: فقد طلقها قبل الدخول بها ولم يراجعها[1].

فمن هي هذه المرأة التي طلقها ولم يراجعها مما فوت عليها هذا الشرف العظيم، شرف اقترانها برسول الله ﷺ، وحرمانها من لقب «أم المؤمنين» ,وما هي أسباب هذا الطلاق؟

أما المرأة فهي: ابنة النعمان الجونية الكندية. على خلاف بين العلماء في اسمها، فمنهم من سماها أسماء[2]، ومنهم من سماها أميمة[3] بعد أن اتفقوا

---

(1) رجحت في قصة أميمة: طلاقها من النبي ﷺ اعتمادًا على سياق الروايات التي جاءت في هذه القصة ومنها: رواية السيدة عائشة: أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها...» وهي ألفاظ دالة على أن النبي ﷺ عقد عليها، ثم فارقها بقوله: «**الحقي بأهلك**» وهي رواية في صحيح البخاري كما سيأتي. وكذلك رواية أبي أُسيد: «**هبي لي نفسك**».

والسيدة عائشة وأبو أسيد أعرف بهذه القصة من سهل بن سعد الذي رواها بلفظ: «هذا رسول الله ﷺ جاءك ليخطبك».

لكون السيدة عائشة من داخل بيت النبوة، وأبو أسيد هو الذي أمره رسول الله ﷺ أن يرسل إليها. بينما ذهب ابن حزم إلى أن النبي ﷺ أرسل إليها ليخطبها، ولم يعقد عليها. وانظر «جوامع السيرة النبوية» ص 32.

(2) سماها بذلك علماء السيرة ومنهم هشام بن الكلبي، ومحمد بن إسحاق، ومحمد بن حبيب وغيرهم، وكذلك جاء ذكرها في عدة روايات عند ابن سعد في «الطبقات» (143/8، 144، 145)، و«المستدرك» للحاكم (36/4، 37).

وتردد الحافظ ابن حجر فقال في «الفتح» (271/9): «فلعل اسمها أسماء، ولقبها أميمة». وقال غير ذلك في مكان آخر.

(3) سماها بذلك الإمام البخاري في صحيحه، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (269/9): «والصحيح أن اسمها أميمة بنت النعمان».

على أنها الجونية، قال ابن عبد البر:

«أجمعوا على أن النبي ﷺ تزوج الجونية»[1].

وأما أبوها فهو: النعمان بن أبي الجون بن الأسود بن الحارث بن شراحيل ابن الجون بن آكل المرار الكندي، قال ابن سعد:

قدم على رسول الله ﷺ مسلمًا، وقال: أزوجك أجمل أيم في العرب كانت تحت ابن عم لها فتوفي عنها فتأيمت، وقد رغبت فيك، وخطبت إليك، فتزوجها رسول الله ﷺ على اثنتي عشرة أوقيَّة ونَشٍّ[2] فقال: يا رسول الله لا تقصر بها في المهر.

فقال رسول الله: «**ما أصدقت أحدًا من نسائي فوق هذا، ولا أصدق أحدٌ من بناتي فوق هذا**».

فقال النعمان بن أبي الجون: ففيك الأسى، فقال: فابعث يا رسول الله إلى أهلك من يحملهم إليك، فإني خارج مع رسولك، فمرسل أهلك معه.

فبعث رسول الله ﷺ أبا أسيد الساعدي، فلما قدما عليها، جلست في بيتها، وأذنت له أن يدخل، فقال أبو أسيد: إن نساء النبي ﷺ لا يراهن أحد من الرجال - وكان قد نزل الحجاب - فقالت: أرشدني، قال: لا تكلمي أحدًا من الرجال إلا ذا محرم منك...»[3].

---

(1) «الاستيعاب» (349/4). وقد استوعب الأقوال.

(2) النش: نصف أوقية، وهذا يعني أن صداقه ﷺ كان اثنتي عشرة أوقية ونصف الأوقية، وهو يساوي خمس مائة درهم، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد (24626)، وغيره.

(3) رواه ابن سعد في «الطبقات» (102/8)، والحاكم (36/4) من طريق الواقدي،

=

لكن ما أسباب هذا الطلاق؟

هناك اتفاق بين العلماء على أن سبب طلاقها هو قولها للنبي ﷺ أعوذ بالله منك.

يدل على ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه» من طريق الأوزاعي قال: سألت الزهري: أيُ أزواج النبي ﷺ استعاذت منه؟

قال: أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك.

فقال لها: «**لقد عُذت بعظيم الحقي بأهلك**»[1].

ولكن ما هو الدافع الذي دفعها أن تتلفظ بهذه الألفاظ؟ وما سبب هذا التصرف المشين؟

هناك روايتان تحددان بشكل واضح سبب تصرفها ذاك، وتلفظها بالتعوذ المذكور، وأنا هنا سأذكر هاتين الروايتين، ثم أحاول مناقشتهما للوصول إلى السبب الوجيه الذي دفع النبي ﷺ أن يطلقها، وهي:

ما جاء في صحيح البخاري عن أبي أُسيد ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له الشَوْط[2]، حتى انتهينا إلى حائطين، فجلس بينهما، فقال النبي ﷺ: «**اجلسوا ههنا**»

=

وأخرجه الطبري كما في «الإصابة» لابن حجر (560/3).

(1) (5254).

(2) هو بستان في المدينة معروف، وفي رواية ابن سعد: فأنزلتها بالشوط من وراء ذُباب في أطم...». وذباب: جبل معروف بالمدينة، والأُطُم: هو بناء يشبه القصر، وهو من حصون المدينة.

ودخل، وقد أُتي بالجونية، فأنزلت في بيت في نخل في بيت[1] أميمةُ بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها.

فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: «**هبي نفسك لي**».

قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسُوقة؟

قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك.

فقال: «**لقد عُذت بمعاذ**».

ثم خرج علينا فقال: يا أبا أُسيد اكسها رازقيتين[2]، وألحقها بأهلها»[3].

وواضح في هذه الرواية: أن ابنة الجون هذه كان بها غرور وكبر وترفع أنها بنت زعيم من زعماء العرب، ورئيس من رؤساء القبائل، وهي صفات لا تصلح معها أن تكون إحدى نساء النبي ﷺ، ولا تؤهلها أن تفوز بلقب «أم المؤمنين» يدل على ذلك قولها: وهل تهب الملكة نفسها للسُوقة!

جوابًا على كلمة قالها النبي ﷺ على سبيل التودد والمؤانسة: «**هبي نفسك لي**».

قال ابن المنير:

«هذا من بقية ما كان فيها من الجاهلية، والسوقة عندهم من ليس بملك كائنًا ما كان، فكأنها استبعدت أن يتزوج الملكة من ليس بملك.

---

(1) هكذا بتكرار لفظ في بيت، وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده عن أبي نعيم شيخ البخاري فقال: في بيت في النخل أميمةُ».

(2) والرازقية: ثياب من كتان بيض طوال قاله أبو عبيدة، وقال غيره: يكون في داخل بياضها زرقة، والرازقي: الصفيق.

(3) رواه البخاري (5255).

وكان ﷺ قد خير أن يكون ملكًا نبيًّا فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا تواضعًا منه ﷺ لربه»[1].

ويبدو لي أن جوابها المذكور كان مصحوبًا بحالة من الغضب الشديد مما يؤكد أن صفة الترفع كانت متأصلة في نفسها لا يرجى لها معها صلاح، وأنها ليست حالة عارضة يرجى زوالها.

ولهذا اتخذ ﷺ قراره بطلاقها؛ لأنه ﷺ رأى أن هذه المرأة بهذه الصفات غير مؤهلة لأن تعيش في البيت النبوي الكريم.

ومع ذلك فقد كان ﷺ في فراقه لها محسنًا، أليس قد قال الله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾.

فقد أمر لها بمتعة الطلاق، وهي عبارة عن ثوبين من أنفس الثياب آنذاك، ثم ألحقها بأهلها بكل تكريم.

وأما الرواية الثانية: فهي ما جاء في صحيح البخاري[2] أيضًا، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ذكر للنبي ﷺ امرأة من العرب فأمر أبا أسيد الساعدي أن يرسل إليها، فأرسل إليها فقدمت فنزلت في أُجُم بني ساعدة، فخرج النبي ﷺ حتى جاءها، فدخل عليها، فإذا امرأة منكِّسةٌ رأسها، فلما كلمها النبي ﷺ قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «**قد أعذتك مني**».

فقالوا لها: أتدرين من هذا؟ قالت: لا.

قالوا: هذا رسول الله ﷺ جاء ليخطبك.

---

(1) «فتح الباري» (271/9).

(2) (5637)، ورواها مسلم (2007).

قالت: كنت أنا أشقى من ذلك.

فأقبل النبي ﷺ يومئذ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه ثم قال: اسقنا يا سهل...».

وواضح من هذه الرواية الثانية: أن التصرف الذي صدر من ابنة الجون إنما كان بسبب عدم معرفتها بالنبي ﷺ فتلفظت بما تلفظت به، وصدر منها ما صدر.

وإذا كان الأمر كذلك فهنا يثار تساؤل مهم مفاده: هل يمكن للنبي ﷺ أن يعاقب امرأة بحرمانها من الاقتران به، والفوز بشرف انتسابها إليه، بسبب جهلها بشخصيته، وهو خطأ غير مقصود وقعت فيه إذ هي تظن كل الظن أن رجلًا من الرجال دخل عليها، وليس هو زوجها الموعودة به.

والجواب:

أنني أستبعد كل الاستبعاد أن يعاقب النبي ﷺ امرأة على ما صدر منها بسبب خطأ غير مقصود وقعت فيه امرأة هي زوجته.

فإن رحمة النبي ﷺ، وفطنته، وحكمته تأبى ذلك، كما أن عدله.ﷺ يأبى ذلك.

قال الحافظ ابن حجر - في معرض رده على من قال: يحتمل أنها لم تعرفه ﷺ فخاطبته بذلك -: «وسياق القصة من مجموع طرقها يأبى هذا الاحتمال»[1].

إذن: ما زال الإشكال قائمًا فلابد من تفسير وجيه لهذه الرواية لتتفق مع

(1) «فتح الباري» (271/9).

الرواية الأولى ولا تشذ عنها أو تخالفها لاسيما وهي رواية صحيحة إذ لو كانت ضعيفة لكفانا ضعفها عن مؤنة توجيهها.

ويبدو لي أن هذا الإشكال هو الذي دفع الحافظ ابن حجر أن يذهب إلى تعدد القصة، وأن ذلك وقع مرتين في حادثتين منفصلتين، قال رحمه الله:

«فيقوى التعدد، ويقوى أن التي في حديث أبي أسيد

– أي الرواية الأولى – اسمها: أميمة.

والتي في حديث سهل – أي الرواية الثانية – اسمها: أسماء، والله أعلم، وأميمة كان قد عليها ثم فارقها، وهذه لم يعقد عليها بل جاء ليخطبها»[1].

لكن يعكر على هذا الاحتمال الذي ذكره الحافظ رحمه الله ما روى ابن سعد عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى أنه قال عن أسماء بنت النعمان الجونية: لم تستعذ منه امرأة غيرها.

والغريب أن الحافظ ابن حجر نفسه أيد ذلك عندما قال: «وهو الذي يغلب على الظن؛ لأن ذلك إنما وقع للمستعيذة بالخديعة المذكورة فيبعد أن تخدع أخرى بعدها بمثل ما خدعت به بعد شيوع الخبر بذلك»[2].

وقال ابن القيم:

«فالقصة واحدة دارت على عائشة رضي الله عنها، وأبي أسيد، وسهل، وكلٌ منهم رواها، وألفاظهم فيها متقاربة، ويبقى التعارض بين قوله: جاء

(1) «فتح الباري» (272/9).

(2) المصدر السابق (270/9).

ليخطبك، وبين قوله: فلما دخل عليها، ودنا منها...»[1].

وإذا كان الأمر كذلك فما هو الجواب عن الإشكال؟

الذي يبدو لي: أن اعتذارها بكونها لا تدري أن الداخل عليها هو رسول الله ﷺ الوارد في رواية سهل بن سعد اعتذار غير مقبول، إذ يستبعد أن يدخل عليها رسول الله ﷺ بعد هذه المقدمات التي سبقت مجيئها ثم لا تعرفه...

وإذا سلمنا بأنها كانت صادقة في هذا الاعتذار فإن تصرفها المذكور يدل على تسرعها في الجواب، وعدم تثبتها في الأمور، وهي صفات لا تصلح معها أن تكون إحدى نسائه ﷺ في بيته الكريم.

وهناك تفسير آخر، وهو أن يقال:

لعلها كانت لا تعني أن رسول الله ﷺ بشخصه كان مجهولًا عندها، فهذا مستبعد؛ لأنه ليس من المعقول أن لا تخبر بدخوله ﷺ عليها، كما جرت العادة في مثل هذه المناسبات...

وإنما كانت تعني استنكار دخوله المتواضع عليها، لقد ظنت - وهي تعيش في بيت الزعامة - أن يدخل عليها رسول الله ﷺ بأبهة الملوك، وعاداتهم ورسومهم في الزواج، فلما دخل عليها بالهيئة المتواضعة، التي دخل فيها، استنكفت ذلك، ونكست رأسها، وعاملت النبي ﷺ هذه المعاملة الجافة التي لا تليق بالنبي ﷺ وهذا ما يؤكد ما قلته في توضيح الرواية الأولى من أن صفة الترفع والغرور إنما هي خصال كانت متأصلة في طبيعة ابنة الجون، ومن هنا اتخذ النبي ﷺ قراره الحاسم في فراقها...

---

(1) «زاد المعاد» (290/5).

ولابد هنا من الإشارة إلى ما جاء في بعض الروايات الضعيفة من أن سبب تعوذها هو: مكيدةٌ من بعض النساء.

وفي رواية: مكيدة من عائشة أو حفصة لإبعادها عن بيت النبوة.

فهي روايات واهية لا يلتفت إليها، وأذكر نصوصها للتحذير منها:

وهي:

أولًا: «... فدخل عليها داخل من النساء لما بلغهنَّ من جمالها، وكانت من أجمل النساء، فقيل لها: إنك من الملوك، فإن كنت تريدين أن تحظي عند رسول الله ﷺ فقولي: أعوذ بالله منك فإنه يرغب فيك»[1].

وأما الرواية الثانية: وفيها أن المكيدة كانت من عائشة أو حفصة فهي: «... ثم قالت لها إحداهما – أي عائشة أو حفصة... إنه يعجبه أن تقول المرأة: أعوذ بالله منك.

وأنه لما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال: «**إنهن صواحب يوسف وكيدهن**»[2].

وهي رواية منكر جدًّا؛ لأن في إسنادها: هشام بن محمد الكلبي، قال عنه الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عساكر: رافضي ليس بثقة[3].

---

(1) ذكرها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (145/8)، والحاكم (36/4)، من رواية الواقدي، وهو ضعيف لاسيما وقد خالف بروايته هذه الروايات الصحيحة عن الثقات وقد ذكروا في تعوذها المذكور سببًا غير هذا وقد تقدم ذكره.

(2) أخرجها الحاكم (37/4)، وقال الذهبي في تلخيصه: سنده واهٍ. وهو كما قال؛ لأن في إسناده هشام بن محمد الكلبي.

(3) انظر «لسان الميزان» لابن حجر (196/6).

والغريب أن هذه الرواية المنكرة قد راجت على عدد من أهل العلم.

منهم الشيخ محمد متولي الشعراوي كما في تفسيره[1]، ود/ عائشة عبد الرحمن في كتابها: «تراجم سيدات بيت النبوة رضي الله عنهن».

ود/ محمد الأحمدي أبو النور في كتابه «منهج السنة في الزواج»[2].

وقد سبقهم الحافظ ابن حجر فذكرها في فتح الباري ولم ينبه على نكارتها[3]، وحاشا لأمهات المؤمنين أن يكذبن على رسول الله ﷺ، كيف وهي مخالفة لما ذكر في الروايات الصحيحة وقد تقدم بيانها.

***

(1) (6908/11).

(2) ص 392.

(3) (24/12) من طبعة أبي حيان – القاهرة.

الخاتمة

في النتائج والتوصيات

أولًا: إن النبي ﷺ مثل قمة الخيرية في التعامل الأفضل مع أهله، وقد ظهر ذلك من خلال تعامله مع زوجاته في جميع المفردات السلوكية التي انتظم منها عقدة الحياة الزوجية لهذه الأسرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها على سبيل المثال:

الجانب الاقتصادي، والإنساني، والتعاوني، والجمالي والترفيهي.

وهذه الجوانب تعد أساليب وقائية لمعالجة المشكلات الزوجية، ذلك لأن أكثر الخلافات قد تنشأ عن إغفال جانب من هذه الجوانب، أو التقصير فيه، ومن ثَمَّ فالتأكيد على هذه الجوانب هو جزء من حل المشكلات بالقضاء على أسبابها.

ثانيًا: كما استعمل النبي ﷺ أساليب علاجية مع المشكلات التي عرضت في بيته الكريم، وهي مشكلات كانت قليلة جدًا، وهي من الندرة بحيث لا تذكر لولا ما تعوَّدَ المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامة على السواء، وهذا مع طول العشرة، وتعدد الزوجات، وكثرة الحوادث الجسام.

مع الإشارة إلى أن عددًا منها كان بسبب مكائد المنافقين لينالوا من النبي ﷺ، وينتقموا من دعوته.

بينما كان سبب أكثر هذه المشكلات هو الغيرة، وكيف لا يغرن على زوج

مثل رسول الله ﷺ.

وليس لهن من دافع سوى حبهنَّ لهذا النبي عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

ومع ذلك فقد استعمل ﷺ أساليب متعددة لمعالجة هذه الخلافات ليكون بذلك قدوة للمسلمين في تعاملهم مع زوجاتهم، ومعالجتهم للمشكلات التي تنشأ بينهم، وبين زوجاتهم.

ومن هذه الأساليب التي استعملها ﷺ:

1- أسلوب الابتسامة والدعابة ذلك لأن بعض المشكلات ليس لها من حل سوى الابتسامة التي تضفي عليها طابع المرح، وتبعدها عن دائرة الجد.

2- أسلوب التغاضي، وذلك بأن لا يستقصي الزوج عيوب زوجته، وأن لا يترصد أخطاءها، فإن ذلك يبعث على السآمة والملل في نفسها مما يؤدي إلى فساد الحياة الزوجية وفرق البحث بين التغاضي الذي هو من قبيل التغافل - ومازال التغافل من فعل الكرام - وبين الغفلة التي لها عواقب وخيمة على أمن الأسرة، وضمان استقرارها.

3- أسلوب الحوار الهادف لإقناع الزوجة بالعدول عن خطأ وقعت فيه أو فكرة مسبقة حملتها، وهي غير صحيحة. وحذر من الاستبداد الذي يعد من الأمراض الخطيرة التي تعصف بالأسرة فتقضي على حاضرها ومستقبلها.

وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في كثير من الخلافات مع زوجاته وذكرت أمثلة لذلك منها: تعامله مع صفية، وعائشة في المبحث الثالث من القسم الثاني.

وعرضت لهذا الأمر أيضًا في المبحث التاسع عند حديثي عن الدرس السادس عشر من الدروس المستفادة من قصة التحريم.

4- أسلوب العظة: ويستعمل هذا الأسلوب في حال تقصير المرأة في أداء حق الله عليها، أو في أداء حقوق الزوج التي أوجبها الشرع له عليها.

5- أسلوب العتاب: ويستعمل هذا الأسلوب في موقف لا ينبغي أن يمر دونما حساب، ويضع حدًا لمشكلة طالما كررت للحيلولة دون وقوعها مرة ثانية.

6- أسلوب التروي والتثبت والتحقيق قبل إصدار الأحكام وهذا الأسلوب نافع في كل الخلافات التي تقع في الأسرة لاسيما تلك التي لها مساس بالأعراض.

وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في معالجة مشكلة حادثة الإفك التي عرضت للسيدة عائشة من قبل المنافقين.

وقد كشف البحث عن بعض وجوه الخيرية في هذه الحادثة، وذلك من خلال عشرين درسًا تم استنباطها من ثنايا هذا الحدث الجلل ويعد أكثرها نتائج مهمة في بحث هذه الحادثة.

وقد رجح الباحث: أن هذه الحادثة وقعت بعد الانتهاء من غزوة بني المصطلق في سنة ست من الهجرة.

7- أسلوب القضاء العادل، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب مع السيدة عائشة عندما كسرت إناء أم سلمة بسبب الغيرة وقال لها النبي ﷺ: «**إناء كإناء، وطعام كطعام**».

وقد عرض الباحث روايات هذه الحادثة، وحدد اسم صاحبة القضية،

واسم مرسلة الطعام، وأنها وقعت ما بين السنة الرابعة والخامسة من الهجرة، كما حدد نوع الإناء، ونوع الطعام، وصورة الحادثة، والجانب التربوي الذي يستنبط من هذه الحادثة، ثم حلل القضاء النبوي الذي صدر عن النبي ﷺ في قضية مالية تتعلق بضمان المتلفات، وموقف الفقهاء من هذه القضية، وكذلك موقف بعض القوانين المدنية في معالجة مثل هذا الموضوع.

8- أسلوب التأديب بالدفع، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب مع السيدة عائشة.

ومال إلى أن هذا الأسلوب هو البيان النبوي لمعنى الضرب في القرآن الكريم.

ورجح أن الضرب: ليس معناه: الأذى الجسدي والإهانة لكي تخضع المرأة للرجل، وتنقاد على كره منها لرغباته.

9- أسلوب الهجر، وقد عرض البحث قصة التحريم نموذجًا لهذا الأسلوب.

وقد كشف البحث عن أهمية هذه الحادثة إذ تم استنباط عشرين درسًا منها، وهي دروس نافعة في فقه الأسرة.

وقد انتهى البحث إلى عدد من النتائج المهمة، منها:

أ- الراجح في سبب نزول سورة التحريم هو: تحريمه ﷺ أمته مارية، وأن هذه الحادثة وقعت في أواخر سنة ثمان من الهجرة.

وأن حادثة شرب العسل هي واقعة واحدة حدثت قبل حادثة تحريمه ﷺ مارية، وليست سببًا لنزول السورة، وأن ساقية العسل هي: زينب بنت جحش.

ب- استعمل النبي ﷺ في بداية المشكلة مع زوجه حفصة بنت عمر أسلوب التهدئة بأن حرَّم على نفسه مارية، وهو حل مؤقت، وأوصاها بكتمان ذلك، لكن الخطاب الرباني عاتبه على ذلك، وفيه إشارة إلى أسلوب الصراحة في التعامل مع المشكلات الزوجية.

جـ- ثم استعمل ﷺ أسلوب الهجر، فقد اعتزل أزواجه شهرًا، وهو حل حاسم في مواجهة المشكلات التي كان آخرها إفشاء سره من قبل حفصة رضي الله عنها.

10- أسلوب التخيير والتشاور، وقد عرض البحث قصة التخيير نموذجًا.

وهي قصة كشف عن تعامل النبي ﷺ الحكيم مع المشكلات الاقتصادية التي تنشأ داخل الأسرة بسبب المطالبة بزيادة النفقات.

وقد كشف البحث عن مزيد من الدروس الهادفة في فقه الأسرة المسلمة تم استخلاصها من قصة التخيير وصلت إلى خمسة عشر درسًا، وأكثر هذه الدروس هي نتائج لهذا المبحث.

وأهم هذه النتائج:

أ- إن أسلوب التخيير الذي استعمله النبي ﷺ في معالجة المشكلة الاقتصادية هو: صورة مشرقة من صور مبدأ الشورى، وكيف يمكن الاستفادة منه في نظام الأسرة.

ب- الراجح في سبب التخيير هو: طلب زيادة النفقة من قبل أزواج النبي ﷺ الطاهرات، وأن ذلك حدث في سنة تسع من الهجرة.

جـ- أثبت البحث أن النبي ﷺ استعمل في معالجة هذه المشكلة أسلوب

السكوت مع الإطراق ابتداء، ثم استعمل أسلوب التخيير والتشاور انتهاء.

11- أسلوب الطلاق، وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب مرتين: مرة مع زوجه الكريمة حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، لكنه راجعها.

ومرة ثانية مع أميمة بنت النعمان الكندية فقد طلقها قبل الدخول بها، ولم يراجعها.

ورجح الباحث في قصة أميمة طلاقها من النبي ﷺ اعتمادًا على سياق الروايات التي جاءت في هذه القصة ولم يرجح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن النبي ﷺ خطبها ولم يعقد عليها.

وسواء قلنا هذا أو ذاك فإن الذي يهمنا في معالجة المشكلات الزوجية أن النبي.... اتخذ قراره الحاسم مع أميمة بنت النعمان بسبب ما كان تتصف به من غرور وكبر وترفع.

وهو درس غاية في الأهمية على الأزواج أن يستفيدوا منه، وأن يسارعوا إلى فك الارتباط قبل الدخول إذا ما علموا أن حياتهم مع هذه المرأة لا تستقيم لاختلاف في الطباع، أو تباين في السلوك، أو سوء في الأخلاق.

وأن ينسحبوا مسرعين من مشروع يحمل بذور الإخفاق فيه، وأن يختصروا الطريق على أنفسهم قبل قيام الأسرة، ووجود الأطفال، فتكبر المشكلة، ويصعب حلها.

إن أسلوب الطلاق: قد يضع حدًا لمشكلات ربما لا تنتهي لولا إتباع هذا الأسلوب.

وهو معالجة لمشكلة متفاقمة، وإنهاء لعلاقة ليس فيها أمارات النجاح، ولا علامات التقدم.

وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

أ- مشروعية الطلاق باعتبار أن النبي ﷺ استعمله عند الحاجة إليه.

ب- إن المرأة التي طلقها النبي ﷺ ولم يدخل بها هي: أميمة بنت النعمان الجونية الكندية.

وأنها واقعة واحدة، وليست واقعتين، وأن سبب ذلك ما اتصفت به أميمة من كبر وترفع وغررو بدليل قولها للنبي ﷺ: «وهل تهب الملكة نفسها للسوقة» جوابًا على قول النبي ﷺ لها: «**هبي نفسك لي**».

وقولها: «أعوذ بالله منك».

ونبه على نكارة ما جاء في بعض الروايات من أن سبب تصرف أميمة مع النبي ﷺ هو مكيدة من عائشة أو حفصة لإبعادها عن بيت النبي ﷺ، وقد تورط بذكرها من غير بيان نكارتها عدد من العلماء.

ثالثًا: أثبتت الدراسة أن النبي ﷺ لم يستعمل أسلوب الضرب في معالجة المشكلات الزوجية.

وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ خادمًا له قط، ولا امرأة له قط، ولا ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل...»[1].

رابعًا: يوصي الباحث بمتابعة دراسة الحياة الزوجية للنبي ﷺ والكشف عن كافة جوانبها، واستقراء بقية الأساليب التي استعملها النبي ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية في بيته الكريم.

---

(1) رواه أحمد (24034)، ومسلم (2328).

خامسًا: كما يوصي الباحث بكتابة منهج النبي ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية خارج بيته الكريم، تلك المشكلات التي عرضت للأسر الكريمة في عصره ﷺ.

سادسًا: يدعو الباحث العلماء المختصين في علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، وعلم الاقتصاد، وعلم الإدارة، أن يستفيدوا من المعالجات النبوية في تطوير بحوثهم، عن طريق دراسة هذه المعالجات النبوية، وتحليلها.

وصلى الله على سيدي ومولاي محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***

المصادر[1]

1- الإجابة لما استدركته السيدة عائشة على الصحابة، للزركشي، المكتب الإسلامي – دمشق.

2- الأحاديث المختارة، للضياء المقدسي، ت: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، 1990.

3- الإحسان بترتيب صحيح، لابن حبان ابن بلبان الفارسي، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

4- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت.

5- أحكام القرآن، لأبي بكر الرازي الجصاص، دار الفكر، بيروت.

6- أحكام النساء، لأبي الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.

7- أخلاق النبي ﷺ، لأبي الشيخ، النهضة المصرية، القاهرة.

8- الأدب المفرد، لمحمد بن إسماعيل البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة.

9- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

10- الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين، لابن عساكر، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 1990.

(1)عملت في تأليف هذا الكتاب في أكثر من بلد بحسب ارتباطي العلمي، ومن هنا تعددت الطبعات لبعض المصادر التي اعتمدتها، وقد حاولت توحيد الإحالات قدر الإمكان، إلا ما شذ عني فأرجو معذرة القارئ.

11- أسباب النزول، للسيوطي، المطبوع بحاشية تفسير القرآن الكريم، تفسير وبيان للدكتور محمد حسن الحمصي، دار الرشيد - دمش - بيروت.

12- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، دار الفكر، بيروت.

13- الإشراف على مسائل الخلاف، للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي، ضمن «الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف»للدكتور بدوي عبد الصمد الطاهر، دار البحوث، دبي.

14- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت 1992م. وطبعة دار الكتاب العربي.

15- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

16- الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، طبع أسعد الدرابزوني.

17- الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، دار الكتب العلمية، بيروت.

18- إلى كل فتاة تؤمن بالله، للدكتور محمد سعيد البوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

19- الأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ، ت: عبد العلي الأعظمي، الدار السلفية، الهند، 1402هـ.

20- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لابن المنير، المطبوع مع الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

21- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

22- البداية والنهاية، لابن كثير مكتبة المعارف، بيروت، وطبعة دار المعرفة - بيروت.

23- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت: محمد أبو الفضل، دار الفكر،

بيروت ط: 3، 1980.

24- بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، للعامري، دار صادر، بيروت.

25- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، لحسين الديار البكري، دار صادر، بيروت.

26- التاريخ الكبير، للبخاري، دار الكتب العلمية - بيروت.

27- تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت.

28- تحرير تقريب التهذيب لابن حجر، للدكتور بشار عواد معروف، والشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1997م.

29- تخريج إحياء علوم الدين، للعراقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

30- تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

31- تراجم سيدات بيت النبوة، د. عائشة عبد الرحمن، دار الكتاب العربي، بيروت.

32- التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، وطبعة دار الفكر.

33- تفسير المراغي، للشيخ أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، بيروت.

34- التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.

35- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت.

36- تفسير الشعراوي، طبعة دار أخبار اليوم، القاهرة.

37- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى 1988م.

38- تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر، تونس.

39- تفسير الصافي، للمولى محسن الكاشاني، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

40- التقريب، لابن حجر، تح: محمد عوامة، دار ابن حزم، بيروت 1999م.

41- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر، المدينة المنورة، 1964م

42- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 1992م.

43- تيسير التفسير للقرآن الكريم، لمحمد بن يوسف اطفيش الإباضي، طبعة وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، 1987م.

44- جامع الأحاديث، للسيوطي، ترتيب أحمد عبد الجواد، طبعة الكتبي، القاهرة 1992.

45- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، دار الفكر، بيروت 1988م.

46- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

47- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، لمحمد ابن إسماعيل البخاري، دار الأرقم، بيروت.

48- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة ط: 7، 2001.

49- الجامع، للإمام محمد بن عيسى الترمذي، دار الحديث، القاهرة.

50- الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت.

51- جوامع السيرة، لابن حزم، دار ابن كثير، دمشق، ط2، 1986.

52- حياة محمد ﷺ، حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط: 20.

53- حاشية السندي على شرح السيوطي لسنن النسائي = سنن النسائي.

54- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

55- الخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.

56- الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر تحـ: شوقي ضيف، القاهرة..

57- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار الفكر، بيروت.

58- دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ، للدكتور محمد رواس قلعجي، دار النفائس.

59- دلائل النبوة، للبيهقي، دار الريان للتراث، القاهرة.

60- ديوان أبي تمام، تحـ: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط1، 1981م.

61- الرحيق المختوم، للمباركفوري، دار الكتاب والسنة، باكستان.

62- رد المحتار على الدر المختار، لمحمد أمين الشهير بابن عابدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

63- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، دار الفكر، بيروت، وطبعة دار إحياء التراث العربي.

64- روضة الطالبين، للنووي، المكتب الإسلامي، بيروت.

65- روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، للصابوني، دار البيان العربي.

66- زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت.

67- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة - بيروت.

68- الزهد، لهناد بن السري، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت.

69- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

70- سفراء النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، بيروت ط1، 1996م.

71- السلسلة الصحيحة، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، 1995.

72- السنن، لأبي داود، سليمان بن الأشعث، طبعة دار الأرقم - بيروت.

73- السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين البيهقي، دار الفكر، بيروت.

74- السنن، لمحمد بن يزيد ابن ماجه، المكتبة العلمية، بيروت.

75- السنن، للدارقطني، دار المحاسن، القاهرة.

76- سنن النسائي: «المجتبى»لأحمد بن شعيب النسائي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

77- سنن النسائي الكبرى، لأحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، وطبعة مؤسسة الرسالة.

78- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، للدكتور مهدي رزق الله، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى

1992م.

79- السيرة الحلبية، للحلبي، طبعة دار المعرفة، بيروت.

80- السيرة النبوية، لابن هشام، در الخير، بيروت، وطبعة دار البيان العربي، القاهرة.

81- السيرة النبوية الصحيحة، للدكتور أكرم العمري، مكتبة العبيكان، الرياض.

82- سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

83- شرح مشكل الآثار، للطحاوي، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1994.

84- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، مكتبة الرشد، الرياض.

85- شرح صحيح مسلم، للإمام يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية بيروت، وطبعة مطبعة الشعب، القاهرة.

86- الشمائل، لابن كثير، تح: مصطفى عبد الواحد، ط: دار المعرفة، بيروت.

87- الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ، لابن تيمية، مطبعة السعادة، القاهرة.

88- صحيح ابن خزيمة، تح: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 1، 1971.

89- صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني، زاهد القدسي، الطبعة التاسعة، بيروت.

90- الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت.

91- عبقرية محمد، لعباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

92- العجاب في بيان الأسباب، لابن حجر تحـ: د/ عبد الحكيم الأنيس، دار ابن الجوزي - السعودية ط1: 1418هـ.

93- عمل اليوم والليلة، لابن السني، دار ابن زيدون، بيروت.

94- فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت 1992م. وأما القسم الأول من الكتاب، والمبحث السادس منه فقد رجعت إلى طبعة دار أبي حيان - القاهرة.

95- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، للشوكاني، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، وأما المبحث التاسع من الكتاب فقد رجعت إلى طبعة دار ابن كثير، دمشق.

96- الفخر المتوالي فيمن انتسب إلى النبي ﷺ من الموالي، للسخاوي، تحـ: مشهور حين ط: 1، 2002، دار غراس - الكويت.

97- الفصل للوصل المدرج في النقل، للخطيب البغدادي تحـ: د. عبد السميع الأنيس، دار ابن الجوزي، السعودي، 1997.

98- فقه السيرة، د/ محمد سعيد البوطي، دار الفكر، دمشق.

99- فيض القدير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، ط مصطفى محمد، القاهرة، 1356.

100- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت.

101- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر، بيروت.

102- الكشاف، للزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

103- كشف الأستار عن زوائد البزار، للهيثمي تحـ: الأعظمي، مؤسسة

الرسالة، 1979م.

104- لباس التقوى، للدكتور عيادة أيوب الكبسي، دار البحوث، دبي.

105- لسان الميزان، لابن حجر، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

106- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جميع عبد الرحمن النجدي، مصورة مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

107- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت الطبعة السادسة 1987م.

108- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت.

109- محمد رسول الله ﷺ، محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق.

110- محاسن التأويل، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.

111- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، نشر رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر.

112- مرويات غزوة بني المصطلق، لإبراهيم قريبي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط: 1، 1993.

113- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري، مصورة دارة الكتاب الإسلامي، القاهرة.

114- المحلى، لابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت.

115- المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

116- المسند، لأبي يعلى الموصلي، بتحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون

للتراث، ط1، 1404هـ.

117- المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج، دار الأرقم، بيروت.

118- مسند أحمد بن حنبل، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

119- مسند الشهاب، لمحمد بن سلامة القضاعي، مؤسسة الرسالة، ط: 2، 1986.

120- مسند إسحاق بن راهوية، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.

121- المصنف، لابن أبي شبيه، ط: الدار السلفية، الهند، 1980.

122- المصنف، عبد الرزاق الصنعاني تح: الأعظمي، المكتب الإسلامي.

123- معالم التنزيل، للحسين بن مسعود البغوي، دار المعرفة، بيروت، وأما المبحث السادس فقد رجعت إلى طبعة دار طيبة للنشر - الرياض.

124- المعارف، لابن قتيبة الدينوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

125- المعجم الوسيط، لنخبة من الأساتذة في مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، تركيا. الطبعة الثانية 1972م.

126- المعجم الأوسط، للطبراني، تح: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة 1415هـ.

127- المعجم الكبير، للطبراني، ط: 2، دار إحياء التراث العربي.

128- المغازي، للواقدي، طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ط2، 1989م.

129- المغني، لابن قدامة، مكتبة هجر، القاهرة. وأما المبحث التاسع فقد

رجعت فيه إلى طبعة مكتبة الرياض الحديثة – السعودية.

130- مغني المحتاج بشر المنهاج، للخطيب الشربيني, دار الكتب العلمية، بيروت.

131- المفصل في أحكام المرأة والأسرة المسلمة في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 2، 1997.

132- مكارة الأخلاق، للخرائطي، المطبع السلفية، القاهرة.

133- منهج السنة في الزواج، د. الأحمدي أبو النور، دار السلام، القاهرة ط:5، 1996.

134- الموسوعة الفقهية، لمجموعة من الباحثين، إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت.

135- الميزان في تفسير القرآن، لمحمد حسين الطباطبائي، طبعة جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، إيران.

136- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، دار الفكر، بيروت.

137- النهر الماد من البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت.

138- النهاية، لابن الأثير، دار ابن الجوزي، السعودية.

139- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للشوكاني، مكتبة دار التراث، القاهرة.

140- الوسيط، للغزالي، تح: أحمد محمود إبراهيم، ومحمد محمد تامر، دار السلام، القاهرة، ط: 1، 1417هـ.

141- الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.

البحوث العلمية:

- ضرب المرأة كوسيلة لحل الخلافات الزوجية، «بحث» للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، منشور في مجلة المسار، الصادرة عن مركز التراث والبحوث اليمني، العدد الرابع، سنة 2001م.

****

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس الآيات القرآنية

سورة الأحزاب

فهرس الأحاديث والآثار

–أ–

-ذ-

-ر-

-ز-

-س-

–ك–

****

فهرس الموضوعات